الإصدار: 61

روافد

سنن التداول ومآلات الحضارة

د. محمد هيشور

آفاق

يهدى ولا يباع

روافد

سنن التداول ومآلات الحضارة

د. محمد هيشور

الإصدار: 61 (يناير 2013م / صفر 1434هـ)

الإخراج الفني : محمود محمد أبو الفضل

د. محمد هيشور

من مواليد الجزائر، حاصل على الماجستير والدكتوراه في الأدب العربي، يعمل أستاذًا بكلية الحضارة الإسلامية والعلوم الإنسانية بجامعة وهران.

له مؤلفات عديدة، منها: «سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها»، و«نظريات في فكر مالك بن نبي»، و«أسئلة في الأدب الإسلامي»، و«الأدب الإسلامي والمشروع الحضاري» وغيرها...

روافد

نهـر متعـدد... متجـدد

مشروع فكري وثقافي وأدبي يهدف إلى الإسهام النوعي في إثراء المحيط الفكري والأدبي والثقافي بإصدارات دورية وبرامج تدريبية وفق رؤية وسطية تدرك الواقع وتستشرف المستقبل.

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

قطاع الشؤون الثقافية

إدارة الثقافة الإسلامية

ص.ب: 13 الصفاة - رمز بريدي: 13001 دولة الكويت

الهاتف: 22487310 (965+) - فاكس: 22445465 (965+)

نقال: 99255322 (965+)

البريد الإلكتروني: rawafed@islam.gov.kw

موقع «روافد»: www.islam.gov.kw/rawafed

تم طبع هذا الكتاب في هذه السلسلة للمرة الأولى،

ولا يجوز إعادة طبعه أو طبع أجزاء منه بأية وسيلة إلكترونية أو غير

ذلك إلا بعد الحصول على موافقة خطية من الناشر

الطبعة الأولى - دولة الكويت

يناير 2013 م / صفر 1434هـ

الآراء المنشورة في هذه السلسلة لا تعبر بالضرورة عن رأي الوزارة

كافة الحقوق محفوظة للناشر

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الموقع الإلكتروني: www.islam.gov.kw

رقم الإيداع بمركز المعلومات: 127 / 2012

تم الحفظ والتسجيل بمكتبة الكويت الوطنية

رقم الإيداع: 2012 / 539

ردمك: 978-99966-50-68-0

فهرس المحتويات

تصدير ٧

مقدمة ٩

الفصل الأول

مفهوم مصطلح السنن بين مرادفاته ١٣

الفصل الثاني

مصادر مفهوم السنن واستقراءاته ٤٣

الفصل الثالث

البحث عن مفهوم السنن ووعي مقوماته ٨١

الفصل الرابع

السنن العادية وإبداع الفكر الحضاري ١١٥

الفصل الخامس

السنن الجبرية والاكتشاف العلمي واختراعاته ١٤٧

الفصل السادس

السنن الخارقة واستعانة الغيب ١٨٥

الفصل السابع

مفهوم التداول بين مرادفاته ٢٢٥

الفصل الثامن

تداول الحضارة في القرآن الكريم ٢٦٩

الفصل التاسع

مآلات مستقبل الحضارة ٣١١

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

لم يزل الفكر الإسلامي ، في سياقاته المختلفة ، مشدودًا إلى فقه السنن باعتباره واحدًا من أهم الموضوعات الحيوية التي تشكّل دراستها مفتاحًا مُهِمًّا للإجابة على عدد من الأسئلة والإشكالات المثارة حول الكون والحياة والإنسان سواء في واقعها أو في مآلاتها... والخروج من المأزق الحضاري الذي كبل طاقة المسلمين في ظل مفاهيم جبرية لم تتبين حدود القدر ومعالم الحرية الإنسانية في الكسب والابتلاء.

ويسعى كتاب «سنن التداول ومآلات الحضارة» للدكتور محمد هيشور إلى تلمس أسباب الإجابات المفتاحية على تلك الأسئلة بمنظور يتميز بالرؤية الاستشرافية.. ويعين على ترشيد المسارات الحضارية للمسلمين والإنسانية في ضوء معطيات فقه السنن التداولية.

ويسر إدارة الثقافة الإسلامية بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت أن تقدم هذا الكتاب إلى جمهور القراء والمهتمين والدارسين، إسهاما منها في توسيع دائرة الاستفادة من فقه السنن في تقييم الواقع الحضاري الإسلامي.

والله نسأل أن ينفع به، ويجزي كاتبه خير الجزاء. إنه سميع مجيب...

مقدمة

لقد اجتهدت في وضع هذا الكتاب بين يدي القارئ في أسلوب التأليف ومنهجه لا في أسلوب الإنشاء وإبداعاته، وإن كان فيه من الإنشاء فإنه من التأليف، والقصد إشراك عقول أخرى في بيان مفهوم السنن وقضاياه ومجالاته لأنه جديد مازال لم يعترف به البعض ويعتمده، ومن سنن التأليف وأعرافه أنه حين يكون موضوعه جديدا يبدأ بتعريفه أو التعريف به، وحيث أن السنن موضوع جديد فلم يخرج عن قاعدة التعريف به وبمقوماته ومصادره ومجالاته والوعي به وأقسامه.

ولذا رأيت استهلال فصول هذا الكتاب ومباحثه بالتعريف بالسنن، وهو تعريف لم يشغل بال كثير وإنما كان يشغل ثلة من الأولين مثلما مازال يشغل ثلة من الآخرين، حيث بعد حديث القرآن الكريم عن السنن هدي إليها ابن خلدون، ولكن وقفت بفكره ظروف عصره فلم يضع مصطلحه، فكان بدل بحثه في سنن تداول الحضارات بحث في سنن تداول الدول وتناوب الأسر والقوميات عليها ولو في إطار خريطة العالم الإسلامي وجهاته ومناطقه، ولاسيما التي عرفت نظام الدويلات أكثر من غيرها.

ثم نشأ الاهتمام بالسنن مرة أخرى على يد الإمام محمد عبده وتلميذه رشيد رضا، ثم أضاف إليه بعدهما سيد قطب في ظلال القرآن، ومالك بن نبي في كتاباته تحت عنوان «مشكلات الحضارة» ولاسيما كتاب «شروط النهضة»، ومن حدث فكر مالك بن نبي كان صنع تيار الاهتمام بالسنن لدى عدد من تلاميذه ولو من غير التنظير له بقدر كاف، ومن ثمّ دخلت أفكار السنن برنامج المعهد العالمي للفكر الإسلامي فتوسع الاهتمام بها أكثر حين تبنى ما كتب في السنن وتتبعها في الرسائل الجامعية وطبعها، وعقد من أجل ذلك السمينارات والندوات، مثلما مثبت في متن هذا الكتاب وهوامشه.

وخلال إعداد رسالتي العلمية، رحت كالعادة أبحث عما يخدم موضوعها من مصادر ومراجع ودوريات فوجدت أوفرها حديثا تفسير المنار وشيئا

في ظلال القرآن وإلى جانبهما دراسات من أبرزها «سنن الله في المجتمع من خلال القرآن الكريم» لمحمد الصادق عرجون، وكتابات جودت سعيد ولاسيما «حتى يغيروا ما بأنفسهم» المستمدة من كتابات مالك بن نبي، ومن هذا وذاك غدت تتجلى ملامح دراسة السنن وتتفتح آفاقها أمامي، فكان كتاب سنن التداول ومآلات الحضارة، وهو محاولة تزيد في بيان مفهوم السنن وتبيّن كيف تداولت أمم وأقوام الحضارات من بيان التاريخ والقرآن الكريم، مثلما تري كيف تترشح القوى من خلال السنن للفوز بقيادة البشرية وتؤول إليها مقاليد مآل الازدهار الحضاري، حيث بقدر الالتزام بالسنن والانضباط بمقتضيات حيثياتها تتحقق الأهداف.

فجاءت فصول الكتاب متآزرة يسوق بعضها إلى بعض سوق المقدمات إلى النتائج، ليرسو البحث في موضوع مآلات الحضارة إلى أن المآل مآلات وأن الحضارة حضارات ليكون الانسجام بين شطري عنوان الكتاب من الناحية الشكلية ومثلها الموضوعية، لأن جوهر الحضارة واحد حيث يستصحب جديدها شيئا ممن سبقه مثلما هو مرشح أن تستصحب الحضارة القادمة شيئا من علم الحضارة القائمة مما يتوافق مع السنن وتؤشر له ليتواصل نحو المستقبل، ومثلما استصحبت الحضارة الغربية كثيرا من الحضارة الإسلامية كالمنهج العلمي والبناء على اكتشافاتها الأولى كالذي ذهبت إليه تجارب عباس بن فرناس في الطيران والحسن بن الهيثم في الضوء والكاميرا، وحتى لو تنكرت الحضارة الغربية لهذا وتنكبت عنه فإنها لم تبدأ من الصفر لما يتنافى ومنطق سنن التوارث، ثم كان ختام الكتاب اجتهاد في البحث عمن سيكون له المآل الحضاري ويزدهر على يديه أكثر لأنه لا نهاية لمعارج التقدم، ولمن سيؤول إلى السقوط الحضاري من الأمم القائمة فالحكم لمنطق السنن والالتزام به وبحيثياته. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

الفصل الأول

مفهوم مصطلح السنن بين مرادفاته

- **مفهوم السنن:**

- **السنن في قاموس العربية:** السنة جمع سنن، والسنن –بفتح السين وتشديدها ـ تعني نهج الطريق، وسنة الكتاب منهجه وطريقته التي كتب بها، وسنن- بفتح السين والنون دون تشديدهما- هي ظهر الخيل[١]. وسنن -بكسر السين دون تشديدها- تعني سكة حرث الأرض[٢]، كما تعني سنن –بكسر السين دون تشديدها- الغفلة والنعاس مثلما في قوله تعالى: ﴿ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾[٣] والسنن بضم السين وتشديدها معان، منها: السنة بمعنى الفهدة والدبة ودائرة الوجه[٤].

ولكن الذي شاع من معاني لفظ السنن هو الطريق، ومن مرادفاته القانون والناموس، وللكلمة أصل صحيح بهذه المعاني كلها في كلام العرب والقرآن الكريم،ومنها الدوام والثبات على الأمر، كما في قولهم: سن الماء: إذا داوم على صبه، وسن الإبل: بمعنى داوم على رعيها والإحسان إليها، وسن النصل إذا صقلها وحدها .وقد صار من امتدادات هذا المعنى الطريقة المحمودة والمستقيمة.

وقد جاء لفظ سنة بحرفيه الأصليين (س . ن) دون اشتقاقه في القرآن ست عشرة مرة، بمعنى ما بيّن الله للإنسانية من طرق واتجاهات الأمم السابقة التي جعلها الله قوانين ثابتة في البشر والوجود كله، دون أن تتغير هذه القوانين أو تتبدل، كما قال تعالى: ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ ﴾[٥]، أي لم يتغير[٦].

١- ابن سيد البطليموسي: معجم المثلث، مادة (س. ن . ن)

٢- ابن سيد البطليموسي: معجم المثلث، مادة (س. ن . ن)

٣-سورة البقرة، الآية ٢٥٥.

٤- ابن سيد البطليموسي: معجم المثلث، مادة (س. ن . ن)

٥-سورة البقرة، الآية ٢٥٩

٦-ابن عباس: تنوير المقباس، ص٣٧.

وهكذا أفادت جل استعمالات كلمة سنة في القرآن معنى واحدا هو القانون والطريق المستخدمة وإن تشعّبت تصريفات السنة من حيث الإفراد والجمع والإسناد إلى الضمائر ومنها ضمير المتكلم، وهو لفظ الجلالة حينا وإلى الأمم الخالية من الأولين أحيانا أخرى[١] أو إلى كل ما تمكن الإضافة إليه.

ويبدو أنه منذ نزل القرآن العظيم ونشأت علوم الحضارة الإسلامية منه واشتقت من دعوته إلى التدبر ونمت في ظله وازدهرت تحت إشرافه، نظر علماء القرآن إلى السنة نظرة لغوية لفظا من الألفاظ ولم ينظروا إليها مصطلحا، لاسيما وأن دراسات المصطلح تعتبر مرحلة متأخرة في جو درس الحضارة الإسلامية بالموازنة مع دراسات اللفظ، ولذا لم ينظرعلماء القرآن إلى لفظ السنة مصطلحا من خلال تخصصاتهم إلا قليلا ومثلهم علماء السنة والحديث الذين قد يكونون أول من أخرج لفظ السنة من المعنى اللغوي إلى المعنى الاصطلاحي، ومن ثمة صار لفظ السنة يعني الطريق والقانون معتمدا على أصل ذاته اللغوي، ومنه ذهب البحث يفتش عن القوانين التي تحكم الوجود كله.

وهكذا خرج مصطلح السنة والسنن عن المعنى اللغوي شأنه شأن مصطلحات أخرى، فأصبح يعني قانون الوجود وناموس الكون الذي أودع فيه، لينظم شؤون الحياة، وسلوك البشر وفق مشيئة الله وإرادته، ولذا عرّف بعضهم السنن على أنها ما جرى على مراد الله من أمر البشر والكون المادي، سواء كان مصدره كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ، وتطبيقات البشر التي بنيت عليها عن طريق استنباط ما يستخرج من أفعال البشر، أو عن طريق ما يشتق من الكون ومفرداته، والتاريخ واستقراءاته، ومن هنا عرّف بعضهم السنن على أنها قدر الله[٢] الذي لا نقص فيه ولا زيادة، وإنما

١-محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة (س. ن. ن) .

٢- محمد قطب: حول التفسير الإسلامي للتاريخ، دار الشروق، القاهرة، ص١٠٢.

كل شيء فيه بقدر، فالسنن تجري بميزان، فلا اختلال فيها ولو بمثقال ذرة، لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾[1].

ومع حيازة لفظ السنن للمعنى الاصطلاحي ومفهومه، إلا أنه مازال يعتمد المعنى اللغوي أكثر،ويرجع إليه اشتقاقاته كلها ويأخذ إذنه فيها ولاسيما في الشعر العربي القديم، حيث استخدم شعراء قدماء ومحدثون لفظ السنن بالمعنى اللغوي فقط،ولم يستخدموه بمضمونه الذي هو بين يدي هذه الدراسة

فقال حسان بن ثابت :

إن الذوائب من فهر وأخوتهم قد بيّنوا سنّة للناس تتبع

وقال أبو تمام :

ولولا معان سنّها الشعراء ما درى بناة المعالي كيف تبنى المكارم

حتى قال محي الدين عطية :

وسنّة الله منذ البدء سارية لا تخطئ الناس من عجم ومن عرب

وقال شاعر آخر :

ما عاين الناس من فضلي كفضلهم ولا رأوا مثلهم في سالف السّنن

إذاً السنن هي النواميس والقوانين الأزلية التي تضبط حركات كائنات الوجود المادية والكونية والمعنوية لتؤدي الأغراض التي خلقت من أجلها بقدر.

- **السنن في القرآن:** اهتم الأوائل بألفاظ ومفاهيم مثل الفقه، وأشبعوها بحثا، وقد ساعدهم على ذلك ضغط الحاجة يومئذ، بينما سكتوا على ألفاظ أخرى فتأخروا فيها مثل لفظ السنن إلا من الناحية اللغوية لعدم

١-سورة الرحمن، الآية: ٧ .

ضغط الحاجة إليه يومئذ، وقد توافرت من دواعي التجديد الحضاري الذي صار يسمى النهضة فاستوقف لفظ السنن بعض علماء القرآن الكريم على أنه الطريقة وقانون الخالق في خلقه.

ومن هنا بدأ ينشأ الاهتمام بمفهوم السنن في الاصطلاح، وبمقتضى ورود لفظ السنة والسنن في القرآن الكريم تناوله المفسرون من حيث المعنى، أما تتبع أثر السنن في توجيه الحياة، وضبط دواليبها، وبعث الحضارات وازدهارها، فلم يعرف للمفسرين اهتمام كبير به ولاسيما القدماء، لأن وعي مفهوم لفظ السنن الذي تتناوله هذه الدراسة لم يكن إلا من المحدثين منذ الإمام رشيد رضا الذي أولاه قدرا كبيرا من اهتمامه، وسار على نهجه آخرون، أما القدماء كالإمام الطبري فرغم أن تفسيره اهتم بالتاريخ الذي هو أكبر ميدان يقرأ فيه مفهوم السنن إلا أنه لم يعبأ به كثيرا وإلى جواره ابن كثير وغيرهما.

ولعل الذي حال دون اكتشاف مفهوم السنن والاهتمام به في التفسير منذ القدم اهتمامات أخرى، كالاهتمام بقضايا الفقه والنحو والبلاغة التي هي أهم المباحث التي عالجها العلماء القدماء في القرآن الكريم، مثلما تكون قد حالت عوامل أخرى دون الوصول إلى اكتشاف السنن وقوانين الوجود، لعل في مقدمتها مستويات ظروف عصر يومئذ الحضاري، فلم يهتم القدماء بما اهتم به المحدثون، حيث ركب القدماء موكب الحضارة العربية الإسلامية، أما المحدثون فقد أوقفتهم تأملاتهم في كيفيات بعث الحضارة الإسلامية وتجديد دواليبها لاستئناف نشاطها مرة أخرى، فالقدامى،ومنهم الإمامان الطبري وابن كثير، لم يعطوا مفهوم السنن والاهتمام به ما يستحق، ولم يهتموا بما تستهدفه غاياته والفوائد المرجوة من وراء دراسته، بل من وراء وروده في القرآن الكريم.

فالإمام الطبري حين اعترضه لفظ السنن، كالذي في قوله تعالى:

﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾[1]، ذهب إلى أن الآية تعني ذكر ما قد خلا من قبل من سنن سلفت في الأولين، والخطاب موجه إلى أصحاب محمد ﷺ، وأهل الإيمان بمن سبق من الرسل مثل قوم عاد وثمود ومن سلفهم وخلفهم من الأمم ممن كذّب بالأنبياء، فجرت فيهم سنن الله في نصر المؤمنين، وإمهال المكذبين، واستدراجهم حتى بلغ الكتاب أجله[2].

أما ابن كثير، فقد ذهب في تفسير تلك الآية إلى خصوصية السبب، الذي هو أهل أحد، وروى أنه قتل سبعون منهم، وقد خلا مثل هذا في الأولين، أي قد جرى نحوه على الأمم الأخرى التي كانت قبل أهل أحد من أتباع الأنبياء، ثم كانت العاقبة للمؤمنين، والدائرة على الكافرين[3].

ويستنتج من هذا أن قدماء المفسرين ليس في آرائهم كثير مما يخدم موضوع السنن بالمعنى المعروض في الدراسات الحديثة، التي تسعى إلى الإفادة من السنن في المشروع الحضاري، وتطلعاته المستقبلية ومآلاته نحو السقوط أو الازدهار.

وهذا ما جعل مفهوم السنن لدى القدامى لا يحقق هدفه الرئيس من تفسير هذه الآية وشبيهاتها، أما المفسرون المحدثون ومنهم الإمام محمد عبده ورشيد رضا وسيد قطب فقد حاولوا إشباع حاجة الباحث والقارئ إلى مفهوم السنن، حين توسعوا في معنى السنن توسعا قصد به توظيفها في مشروع نهضة الأمة الإسلامية، وترشيد حضارة الآخر من خلالها.

- **السنن في اهتمامات رشيد رضا:** يكاد يكون أول مفسري العصر الحديث يكتشف معنى لفظ السنن بمفهومه الحضاري المؤثر في الحياة،

١- سورة آل عمران، الآية: ١٣٧.

٢- تفسير الطبري، ج٣، دار الفكر، بيروت، ص٦٥.

٣- تفسير ابن كثير، ج٢، دار الفكر، بيروت، ص١٢٠.

وقد كان أكثر من غيره إحساسا بحقيقة السنن ودورها الحضاري من خلال توجيهات أستاذه محمد عبده، وهذا ما يفصح عن وعي المحدثين بأثر السنن في قيام الحضارات وسقوطها وتجديدها وتداولها، وإن لم يحرص صاحب المنار على الاهتمام بذكر لفظ السنن قدر حرصه على بيان مفهومه وتحكمه في مجرى الحياة الحضاري.

وحين تحدث رشيد رضا في السنن حديث المدرك لمفهومها وضرورة العمل الحضاري من خلاله، رأى أن عدم فهم السنن وإدراك حقيقتها في الوجود وفي الآفاق والأنفس والكون والتاريخ أدى إلى اضطراب الحياة وفقد توازنها، مما كاد يسوي بين قيم الخير والشر، ويمزج تناقضاتهما، وهنا كادت تفقد الحياة معناها ومغزاها، فظهرت مذاهب فكرية كالصراع والعبثية والحتمية والقدرية الجبرية.

وأشار الإمام محمد عبده،ومن ورائه رشيد رضا، إلى أن الأمة الإسلامية،ومن خلالها البشرية، مدعوة إلى التعرف على مفهوم السنن واكتشافه في مصادره كالتاريخ حين السير في الأرض، بمعنى البحث في الآثار، والتأمل في ماديات الطبيعة وأشيائها، وكيف يديرها القدر الرباني الذي لا يعبأ به إلا ذوو الحس الإيماني، وشواهد الحياة كلها تدل على عواقب الأمور وخواتمها ومآلاتها بعد مقدماتها وتمهيداتها.

وهذا ما يعني أن الإمام رشيد رضا، ومن خلال توجيهات محمد عبده له، فسر السنن تفسيرا إيمانيا، ورأى أن حلولها بالأمم وحضاراتها قدر لا مردّ له لغضب الله على الأمة نتيجة ضلالها العقدي والأخلاقي وفساد العمل الذي يؤدي إلى اضطراب الفهم والتصور والسلوك، أو من أثر رضا الله، حين يعلمنا ويلهمنا كيف نهتدي إلى الصراط المستقيم، بالوقوف عند حدوده في ضوابط الحياة، وتجنب سنن الهالكين، وهذا يجعلنا نتلمس سنن الله في الحياة تلمسا إيمانيا من خلال نتائج السلوكيات والأعمال المنبثقة عن العقائد والإيديولوجيات .

وفي سياق تفسير لفظ الفسق في القرآن الكريم، رأى الإمام محمد عبده معنى الفسوق هو الخروج عن سنن الله تعالى في خلقه، وتعطيل وسائل إدراكها والالتزام بها، كالعقل والمشاعر، لعدم الاعتبار بالتجارب .

- **السنن في اهتمامات سيد قطب**: ولقد سار سيد قطب على نهج الإمام محمد عبده في الاهتمام بالسنن، وإن قرأها من خلال منهجه وتوجهه الحركي، فذهب إلى أن السنن في القرآن ينبغي أن تربط ما بين ماضي البشرية وحاضرها، ومن خلالهما تتطلع إلى المستقبل، فالعرب المخاطبون الأولون بالقرآن الكريم لم تكن لتؤهلهم تجارب حياتهم تبوء مقعد حضاري بين الأمم لولا الإسلام الذي أنشأهم نشأة أخرى وفق منطق سنن الوجود، فالنظام القبلي الذي كانوا يعيشون في ظله وتداعيات ظروفه ما كان ليقود تفكيرهم إلى الربط بين الأحداث العالمية والسنن التي تجري وفقها الحياة جميعا، وهي نقلة بعيدة لم تنبع من البيئة بقدر ما حملتها إليهم العقيدة الإسلامية، على حين أن بعضا من معاصريهم كالفرس والروم كانوا كفء التحضر وأهلا له، وما وقع في زمن الأولين فقد وقع مثله من بعدهم وسيقع.

وفي إطار هذا التفسير المنطقي الواسع العميق، ينبغي أن يفهم معنى السنن، حيث ربط بين ماضي الأمة وحاضرها من خلال مسار التاريخ في تناسق وتوازن وعدم انفصام بين السنن التاريخية ومجريات الحياة البشرية في كل زمان ومكان، وهذا ما يعبّر عنه بثبات السنن.

وأخلص إلى أن القدامى أخذوا بالسنن عمليا، أما المحدثون فقد وعوها، وحاولوا التنظير لها، وإبراز معانيها في الثقافة ليستعملوها من أجل استئناف نهضة الأمة الإسلامية،ومن ثم الاستدراك الحضاري على البشرية من خلالها.

- **اهتمامات أخرى**: لم يتوقف الاهتمام بالسنن في القرآن الكريم بعد أئمة التفسير المحدثين ومنهم محمد عبده ورشيد رضا وسيد قطب،

وإن لم يأت تفسير ثالث آخر يتعرّض لمفهوم السنن في القرآن الكريم فقد اهتمت به دراسات مثل كتاب سنن الله في المجتمع من خلال القرآن[1]، وكتاب سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها[2] ودراسات أخرى، ويبدو أن الدراسات هي المعول عليه في بيان مفهوم السنن من خلال القرآن،وهي دراسات القرآن الكريم الموضوعية التي تختار موضوعا واحدا من موضوعاته من خلال لفظ من ألفاظه ليكون عنوانه العام وتحته ألفاظ أخرى لتكون عناوين فصوله فتعطيه حقه ومستحقه، ويبدو أنه في هذا ينبغي أن يكدح الكادحون ويتنافس المتنافسون أكثر.

- **السنن في الحديث:** ما يقال في مفهوم السنن والاهتمام به في الحديث وشروحه إلا ما قد قيل في القرآن الكريم ودراساته،غير أن علم التفسير اهتم بالنص بينما اهتم علم الحديث بالرواية أكثر من اهتمامه بالدراية مما بدد جهودا صرفت عن نص الحديث ومتنه الذي عرف بعلم الدراية بمعنى الفهم، وهو الذي يهم هذه الدراسة تتبع مفهوم السنن فيه إلا ما كان مدخلا للموضوع واقتضته ضرورة المنهج.

وعلى هذا الأساس، فالسنة في مصطلح الحديث تتضمن أقوال رسول الله ﷺ وأفعاله وإقراره وسكوته، ومن منطلق الشمولية درس المحدثون السنن جمع سنة، بمعنى ما أثر عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو صفة خلقية راجعة إلى طبائعه النفسية في حالة الرضى والغضب، سواء كانت قبل البعثة أو بعدها، وزاد بعضهم إشارة منه أو ما هم به، وبهذا المعنى رادفت السنة الحديث في المضمون والمنزلة[3]، وعلى هذا قسمت إلى ثلاثة أقسام:

أ-**السنة القولية**: وهي ما أثر عن رسول الله عليه الصلاة والسلام من

١- محمد الصادق عرجون.

٢ - محمد هيشور .

٣- مصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ط٢، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م، ص٤٧ وما بعدها.

أقوال في مختلف المناسبات، كخطبة الجمعة والأعياد، وتوجيهاته بالتربية والإرشاد، وتعليم الدين وهو ما تبحث هذه الدراسة مفهوم السنن فيه.

ب-السنة الفعلية: وهي أفعاله عليه الصلاة والسلام كأدائه الصلاة والحج في الأفعال والأقوال وجميع الحركات.

ج-السنة التقريرية: هي ما أقرّ أصحابه عليه من أقوال وأفعال بسكوته وعدم إنكاره أو بموافقته وإظهار استحسانه، مثلما روي عن الصحابيين اللذين خرجا في سفر، فحضرتهما الصلاة، ولم يجدا ماء، فتيمما وصليا، ثم وجدا الماء في الوقت فأعاد أحدهما الصلاة ولم يعدها الآخر، فلما قصا أمرهما على رسول الله ﷺ أقرّ كلا منهما على ما فعل، فقال عليه الصلاة والسلام للذي لم يعد الصلاة: «أصبت السنة وأجزأتك صلاتك» وقال للذي أعاد صلاته : «لك الأجر مرتين» .

وتقابل السنة عند أهل الحديث البدعة، وهي ما لم يكن عليه المسلمون في عهد النبوة والراشدين، أي ما استحدث في الدين، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام:«كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»[١]، كما ورد هذا اللفظ في كلام رسول الله ﷺ وأريد به الطريقة، سواء طريقته العملية أو القولية، وفي كل تشريع منه عليه الصلاة والسلام للمسلمين، ليتعلموا أمور دينهم ودنياهم، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئا، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيئا»[٢] .

فالسنة من حيث النظرية التشريعية والعملية والتقريرية مفصلة أكثر

١-عبد الرؤوف شلبي: السنة الإسلامية بين إثبات الفاهمين ورفض الجاهلين، ط٣، دار القلم، الكويت، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م، ص٢٢.

٢- رواه مسلم.

من الحديث الذي هو السنة القولية، أما من حيث العمل والمنزلة التشريعية فيتفقان، ولعل الدليل هو أن مجامع الحديث تعنون باسم السنن، مثل سنن أبي داود، وابن ماجه، والنسائي وسنة رسول الله ﷺ كلها وليس الحديث فقط[1] من قوله وما أقرّ صحابته عليه.

ويبدو أن استدلال المحدثين بما ذكر من لفظ السنة في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام كان بمعنى الطريق في ماديات الحياة وبمعنى القانون في معنوياتها العلمية والفكرية، ومن هنا أصبحت السنة بمعنى ما يطلق على عمل أهل السنة والجماعة الذين ينأون عن الانحراف العقدي، ويحاربون البدع، واستعمل مصطلح السنة بما يقابل مصطلح الشيعة والفرق الأخرى.

وفي القرآن الكريم إشارات كثيرة إلى أن السنة بمعنى الوحي مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[2].

- **السنن في الفقه الإسلامي:** أعتقد أن منطق دراسة علوم الحضارة العربية الإسلامية كلها لغوي في جوهره، لأن العرب أمة البلاغة الميدان الذي تحداها الوحي فيه ومنه كان منطلقها الحضاري، ولذا كان الاهتمام بالمعنى اللغوي في علوم الحضارات العربية الإسلامية هو الأول ثم تلاه المفهوم الاصطلاحي، ومن الاهتمام بالمعنى اللغوي أخذ المفهوم الاصطلاحي الذي يدخل من خلاله العلم ميادين التخصصات الأخرى فيتميز مصطلح ميدان عن آخر، ومن هنا كان اتفاق لفظ المعنى اللغوي القاسم المشترك واختلاف مفهوم المصطلح، ولذا فإذا ظل لفظ السنة يحافظ على المعنى اللغوي فقد تعددت دلالات مصطلحه في الميادين الأخرى، مثل ما يعني لفظ السنة جمع سنن في الفقه الإسلامي الحكم الشرعي الذي أوثر

١- دائرة المعارف الإسلامية، مادة (س. ن. ة) .

٢- سورة النجم، الآية: ١-٤.

عن النبي ﷺ، وهو ما ثبت عنه عليه الصلاة والسلام مما ليس من باب الفرض ولا الواجب، فكانت السنة في الفقه هي الصفة الشرعية للفعل المطلوب طلبا طلبا غير جازم، بحيث يثاب فاعلها ولا يعاقب تاركها[١] .

فالسنة، في الفقه، هي كل ما صدر عن النبي صلى الله عليه و سلم بغرض التشريع، ولكن تفاوت معنى السنن وحجيته بين المذاهب المؤسسة للفقه الإسلامي، مثلما اختلفت نظراتهم في دلالة معنى الفرض والواجب، وإن ظل لمعنى السنة قاسم مشترك بينهم، ولاسيما حين يوعز المصطلح إلى الجانب العقدي، ويحتفظ بالمعنى اللغوي، وهو الطريقة.

والسنة بمعنى الطريقة تفيد معنى الاستمرار والتكرار في التداول[٢]، مثل العرف المألوف والعادة المتبعة وما رادفها كالطبيعة والسجية... هذه الدلالة التي أصبحت من خصوصيات السنن، وإن كان أبو هلال العسكري يفرق بين السنة والعادة[٣]، حيث العادة هي ما يديم الإنسان فعله من قبل نفسه، والسنة تكون على مثال سابق، وقد يضاف إلى هذا أن السنة في استعمال الفقه ترادف المندوب والمستحب والتطوع والنافلة[٤]، بينما لا ترادفها مرادفاتها الأخرى مثل العادة والطريقة والطبيعة المعنى نفسه، لأن السنة خرجت من المعنى اللغوي، واكتسبت معنى اصطلاحيا، أصبح يعني حكما شرعيا، بينما مرادفاتها اللغوية ظلت ضمن دائرة المعنى اللغوي، ولم تحظ بالامتياز الذي حظي به لفظ السنة، عندما أصبح لدلالته صلاحية مصطلح الحكم الشرعي، مع أنه ظل يشارك مرادفاته صلاحية دلالتها اللغوية، مع اختلاف الفقهاء في تصوراتهم لدلالة حكم مصطلح السنة، من حيث الجزم والحزم، أو العزيمة والرخصة، لاعتماده في إثبات

١- محمد مصطفى الأعظمي: دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه، ص٠٢.

٢- عبد الغني عبد الخالق: حجية السنة، ط٢، دار الوفاء، القاهرة، ١٤١٣هـ ١٩٩٣م، ص٥١ .

٣- أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية، مادة العادة.

٤- عبد الغني عبد الخالق: حجية السنة، ط٢، دار الوفاء، القاهرة، ١٤١٣هـ ١٩٩٣م، ص ٥١ .

مراتب الأحكام الشرعية، وما يترتب على إيتائها وتركها من جزاء وعقاب .

ويلتقي مصطلح السنة والسنن في صيغتي المفرد والجمع بين أهل الفكر في الميدان الحضاري وغيرهم في ميادين التخصصات الأخرى، كميدان أهل الفقه في قواسم مشتركة منها أن السنة والسنن تعني الطريقة والطرق، وأنها تفيد أحكاما تطبّق في ميادين الحياة كلها، وإن آثر الفقهاء تطبيقها في ميدان الشرع وما يترتب على ذلك من جزاءات وعقوبات، وآثر المفكرون تطبيقاتها في ميدان الحضارة العام، وتتبعوا آثارها وتداعياتها من حيث ازدهار الحضارات وسقوطها وتداولها بين الشعوب والأمم من غير إهمال لمعنى السنن لدى الآخرين[١]، مثلما يستعمل مصطلح السنة مقابل البدعة لدى علماء العقيدة[٢] الذين آثروا معنى السنة اللغوي، وبمعنى الطريقة لدى الصوفية.

والذي يهمّ هذه الدراسة أكثر من غيره هو توضيح مفهوم السنة الفكري، ودراسته في ميدان الحضارة العام وميادين موضوعاتها وقضاياها مثل التداول الذي،هو الآخر، له ميادينه الثقافية والسياسية والفكرية والاقتصادية وغيرها مما ترغب هذه الدراسة في تتبعه في جملة ميادين من الحياة مثل ميدان التاريخ والكون والاجتماع والنفس.

-**السنن في التاريخ**: ليس من اهتمام التاريخ الجانب اللغوي ولا الاصطلاحي ولا دلالته، لأن التاريخ له اهتمام آخر، فهو ميدان مجريات الأحداث وليس ميدان مخبر تدقيق لغوي أو اصطلاحي، ولذا ليس من الواقعية دراسة العلوم والمعارف في التاريخ دراسة لغوية أو اصطلاحية فقط، وإنما دراسته ينبغي أن تكون تقريرية وربما توثيقية وتحليلية استقرائية، وعلى هذا الأساس يدرس مصطلح السنن ومفهومه في التاريخ باعتباره مصدرا له

١- محمد الغزالي: السنة بين أهل الفقه والحديث، دار الشروق، القاهرة.

٢ - أحمد حماني: صراع بين السنة والبدعة، ط١، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ١٤٠٥هـ ١٩٨٤م.

يحسس الدارس بالانتماء له مثلما يحس من قوله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾[1] فالفعل «خلت» ماض، و«من قبلكم» إشارة إلى الذي سبق ومثله دلالة ﴿ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[2] فإضافة السنة إلى الأولين تعني السابقين، و﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ ﴾»[3] فالخلو بمعنى الذي مر، فالسياقات التي وردت فيها ألفاظ السنة والسنن ذات دلالة تاريخية، من بينها ما يستشرف المستقبل من خلاله.

وتحمل ألفاظ السنة في القرآن الكريم من خلال مواقعها فيه وجهة تاريخية ذات دلالات كثيرة، منها الأمر بالنظر كالذي في قوله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾[4]، وتحقيق إرادة الله في الأمم كلها عبر العصور كالذي في قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[5]، والتهديد بتطبيق العقوبة نفسها كالذي في قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[6]. فكانت هذه الآيات كأنها تحمل معنى إما وإما، حيث تجعل الإنسان بين خيارين الانتهاء أو الإتيان فهي بين أمر ونهي، فإما الاستقامة على أمر الله وإلا تطبيق سنة الأولين الذين خلوا من قبل وهي العقوبة والجزاء الفردي والجماعي الذي يؤدي إلى الانهيار النفسي والاجتماعي ثم الحضاري، ولذا فالسنة من قدر الله الذي لا مردّ له لحملها صفات عدم التبدّل والتحوّل المعبّر عنه في قوله تعالى: ﴿ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ

١-سورة آل عمران، الآية: ١٣٧.

٢- سورة الأنفال، الآية: ٣٨.

٣- سورة الأحزاب، الآية: ٢٦.

٤- سورة آل عمران، الآية ١٣٧.

٥- سورة النساء، الآية: ٢٦.

٦- سورة الأنفال، الآية: ٣٨.

ٱلۡأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴾[1].

ومن هنا حمل لفظ السنن معاني من خلال سياقاته في النص القرآني، حيث تقتضي الدراسة عرض ما قبل لفظ السنن وتتبع ما بعده، ليلا يبتر معناه وينقطع عن سياقاته فيخرج من وحدة النص القرآني الموضوعية، ويترتب على مفهوم لفظ السنة بمعنى الطريقة حين يضاف إلى لفظ الجلالة مثل سنة الله، وفي الدراسات الأخرى خارج النص القرآني ولو في معناه حين يضاف لفظ السنن إلى الحضارات كالقول سنن الحضارات أو إلى الحياة مثل جملة سنن الحياة وغيرها، ويحمل هنا معنى المنهج والخطة المتبعة والمثال المقتدى والشريعة المسطرة.

ولذا يعتبر التاريخ حقل اكتشاف مفهوم السنن ووعيه، وإن اكتفت رواياته بنقل أخبار ما أحدثته عوامل السنن في الحياة وأحكامها في توجيه مجرياتها من خلال أعمال البشر نحو قيام الحضارات وسقوطها وتجديدها وتداولها، وتحلل مجتمعات الأمم وازدهارها، فعرف المؤرخون السنن عوامل وأسبابا وشروطا إذا توافرت أدت إلى نتائج ومآلات من جنسها، إن كانت خيرا فخير، وإن كانت شرا فشر.

ومن هنا يعرف أن السنن عوملت في ميدان التاريخ على مستوى الخبر وفلسفته، وبمعنى آخر فقد درست السنن على مستوى الرواية والدراية، حيث تهيئ الأولى المادة المعرفية للثانية، فيكون لها فضل السبق، وعلى هذا كانت مستويات دراسة مفهوم السنن في التاريخ تابعة لمستويات دراسته في القرآن وتفاسيره والحديث وشروحه.

- **السنن في خبر التاريخ:** من طبيعة أخبار التاريخ أنها لا تزيد عن نقل المعلومة ورواياتها من غير تحليلها ولا تعليلها، وإبداء وجهة النظر فيها، لأن الأصل في الخبر الصدق وتحري الحقيقة، وإن عرّف الخبر في البلاغة على

1- سورة فاطر، الآية: ٤٣.

أنه ما احتمل الصدق والكذب بينما النبأ هو ما احتمل الصدق وحده[1].

ويبدو أن الخبر التاريخي القديم مثله كمثل الفنون الأخرى لم يعبأ بمفهوم السنن وبتحكمه في مجريات الحياة عند تحولاتها بين ازدهار الحضارة وسقوطها وتجددها إلى آخر ما يعتريها، مثلما لم يعبأ بمفاهيم أخرى ولو كان بريدها إلى العصور الحديثة وكأنه يحمل رسالة من دون أن يقرأ محتواها ويتفطن إلى خطر مضمونها وأهميته أو عدمه، مع أن لفظ السنن قديم قدم الوجود اللغوي، وابن شرعي أصيل في العربية جاء على لسان شعر الجاهلية والقرآن الكريم على أنه مؤثر من مؤثرات الأحداث في تاريخ الأمم الحضاري من خلال النفس والمجتمع وتداول التقلبات عليهما على مستوى الأفراد والجماعات، ليحدث التحول بين مواقع الحضارة من عز وتمكين وتخلف وانحطاط.

- **السنن في الفكر التاريخي**: يبدو أن حظ مفهوم السنن في الفكر التاريخي كان أكبر من حظه في خبره، وإن لم يلق اهتماما كبيرا يؤهله ليكون ضمن مفاهيم دراسات القاموس العربي ومصطلحاته، فيؤهله ليكون عنوان علم من العلوم الحديثة، ولذا تأخر ظهور الاهتمام بمفهوم السنن في ميدان التاريخ وتياراته، ولم يحظ باهتمام بالغ إلا من بعض مفكري الإسلام في العصر الحديث ولو من الوجهة التاريخية، ولذا يوم اكتشف الفكر الإسلامي مفهوم السنن شدّ عليه بقوة لما له من أثر في أداء وظائف التحول الحضاري وصنع أحداثه.

ويبدو أن من أسباب تأخّر الاهتمام بالسنن في ميدان التاريخ والميادين الأخرى عدم توافر شروط اكتشاف مفهومه ووعيه وتحكماته في تقلبات مجتمعات الأمم وتحولات حضاراتها، حيث إن مضمون السنن ومصطلحه وآثاره كان حاضرا، أما دلالته فقد حالت دون إدراكها أسباب أخّرت التنظير

١ - أبو هلال العسكري: الفروق في اللغة، ط٤، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.

له ولتأثيراته، فاعتمد لفظا مجردا من دلالاته، لأن لفظه كان معتمدا ولكن عندما ينطق به ينصرف ذهن السامع إلى مفهومه بمعنى ما أوثر عن رسول الله ﷺ مثلما قد ينصرف إلى معناه اللغوي.

ولذا تحاول هذه الدراسة تعريف مفهوم السنن، المصطلح ذي الدلالة الفكرية، والحمولة المعرفية، لتبيّنه في الحقل التاريخي، ولتظهر مدى اهتمام الفكر الإسلامي الحديث به والوعي بأثره في تحولات الحضارات وفعاليته، ولاسيما وأن التأريخ للتاريخ أول ما ظهر عند المسلمين بدأ من تدوين أحداث السيرة النبوية، حيث تعلق بالمصدر الثاني في الحياة الإسلامية بعد القرآن الكريم، فتحرى الصدق والصواب، واعتمد الضبط والتبيين من منطلق ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾[1] وفي قراءة فتثبتوا[2]، فيما أصبح يعرف بالأمانة العلمية والذي حقق في صدقه من عدمه العلماء من خلال منهج الجرح والتعديل الذي يرجى أن يشمل العلوم الأخرى، وإن عجز المؤرخون عن تطبيق مبادئه على الأخبار التاريخية مثلما عجز غيرهم، فلم يطبقها إلا المحدثون.

وكان يفترض أن يؤسس منهج رواية التاريخ على ما أسس عليه علم الرواية في الحديث ليتعرف بدقة على مسار التاريخ والعوامل التي تصنع أحداثه وتوجه حركاته نحو مقاصدها، ولعل هذه الحقيقة هي التي قصدها مفسرو التاريخ حين بحثوا في تعليلاته[3] وإن لم يتفطنوا إليها بقدر كاف ليعوا مفهوم السنن من خلالها، سيما وأن أكثر الأمم المتحضرة انطلقت من ذاتها التاريخية ومازالت تنطلق مثل تجربة اليونان والصين الحديثة.

ولذا لم يدرك فقهاء الحضارات وفلاسفة التاريخ حقيقة مفهوم السنن،

---

١ - سورة الحجرات، الآية : ٦.

٢ - أنظر التفصيل في كتب القراءات.

٣ - عمر فروخ: كلمة في تعليل التاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م.

ولم يتعرفوا على مصطلحها إلا بعد حين يوم توافرت شروط اكتشافه، وكأنهم عرفوا المسمى دون الاسم، فهؤلاء الفلاسفة أدركوا أن ما حكم حركات التاريخ وتحولات الحضارات مازال يحكمها، ولو من غير أن يعلن عن اسمه، ولعل عبارة التاريخ يعيد نفسه، وعبارة «ما أشبه الليلة بالبارحة» التي ترددها الألسن منذ أمد بعيد هي من خير ما يعبر عن هذه الحقيقة، حقيقة اطراد السنن وثباتها، سيما وأن علماء الغرب قد فازوا بفضل التطوير الذي مازالت آلياته واختراعاته تواصل إبداعها الحضاري وإن فاز علماء الإسلام بشرف السبق، ومن هنا يبدو الفرق بين تعامل الفكر الإسلامي والغربي مع السنن، حيث الفكر الغربي يبدو تعامله مباشرا بينما الفكر الإسلامي، والحديث منه خاصة،ظل يلح على اكتشاف مفهوم السنن وينبه على تأثيراته في الحضارة وفعاليته في الأحداث، ولكن أكثر الفكر الذي اعتمد المرجعية الغربية مازال يتغافل عن السنن التاريخية وعقوباتها وجزاءاتها في الأداء الحضاري، سيما وأن أحكام السنن التاريخية من أحكام الأقدار التي ليس لها من دون الله كاشفة، أو كأن الفكر الغربي صار يرفض كل ما في مصطلح العقوبة ومرادفاته في المبنى والمعنى.

وقد يكون من عدم الاكتراث بالسنن والإحساس بها من الغرب عدم الاعتراف بمجرياتها في تحولات الحضارات سكرات الانتصار ونشواته الذي يحققه في الإبداع المادي التكنولوجي وتطوراته، ويبدو أن وعي مفكري مؤرخي الإسلام نشأ من أزمة الهزيمة التي من حسنات تداعيات وقعها على النفس البشرية أنها تدعو إلى التساؤل فيما أصبح يعرف بأسئلة النهضة الحديثة[1]، مثلما كانت تجربة الصحابة في أعقاب هزيمة أحد سبب في النصر فيما بعدها لقوله تعالى:﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم

١- د/كمال عبد اللطيف: أسئلة النهضة العربية ـ التاريخ . الحداثة . التواصل ـ ط١، إصدار مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٣م.

﴿مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١].

ولذا، ليست السنن هي وقائع التاريخ وأحداثه وإنما هي العوامل التي تحكم تحولاته والأسباب التي تؤدي إلى مسبباته والشروط التي إذا توافرت تحققت مشروطاتها، لأن السنن ليست إملاءات التاريخ وأخباره وإنما هي مبادئ منطق تعليلاته، وكأن الله شاء للإنسان أن يسأل نفسه أسئلة ويجيب عنها بنفسه بعد توقف الوحي الذي كان يسعف الإنسان بدعوته إلى النظر في السماء كيف رفعت، وإلى الأرض كيف سطحت، وإلى الجبال كيف نصبت ليكتشف أثر السنن في تحولات الحياة.

ولعل من هنا سبق مفكرو التاريخ غيرهم إلى الاهتمام بالسنن والوعي بها والاعتراف بأدائها الحضاري، إلى جانب أن مفكري التاريخ الإسلامي هم أكثر العلماء بحثا عن أسباب هزيمة الأمة الإسلامية الحضارية الحديثة وعوامل نهضتها، وكأنهم يتلمسون طرق التحضر في تكدس الفكر وصراعات مذاهبه مرة أخرى[٢].

ويبدو أن تكرار تجارب البحث عن سبل المخرج من المأزق الحضاري للأمة الإسلامية هدى إلى التعرف على السنن باعتبارها مسالك خروج من دائرة التخلف، وسبل توصيل مقاصد ومقدمات إلى نتائج .

ولعل هذا ما أدى إلى أن يكون المهتمون بشؤون نهضة الأمة الإسلامية وتجديد حضارتها هم أكثر المهتمين بالسنن، مثلما هي تجربة عدد من مفكري التاريخ الإسلامي وفلاسفته الذين يقرأ الوعي بالسنن في اهتماماتهم على أنها قرارات ربانية، وتطبيقاتها بشرية، حيث تعتمد على مدى فهم البشر للقرارات الربانية، وطرق استنباطها، ومستويات الوعي بها، لأن التاريخ لا يدرس أقاصيص من غير عبر والتي منها الالتفات إلى

١- سور آل عمران، الآية: ١٦٥.

٢- عبد المجيد النجار: الشهود الحضاري للأمة الإسلامية، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٩م.

السنن التي تحكمها لمعرفة كيف تجري الأقدار الربانية من خلال أفعال البشر، ولذا قد تكون السنن أقرب إلى الدرس الفكري التاريخي من سواه، لاستمداد ذاتها منه، وجريانها في حقول تجاربه التي عرفت فيها وانطلقت منها، فالفكر التاريخي هو الحقل الماضي الذي يستفتى فيه عن مفهوم السنن ويسأل عنه في كيفيات تطبيقه في حياة البشر.

والذي يهم في هذا المجال من الفكر التاريخي هو كيف تعامل المؤرخون وفلاسفة التاريخ ولاسيما المحدثون مع مصطلح السنن وتأثيراته في الحياة البشرية يوم وقفوا على حقيقته حين احتارت تحليلات أبحاثهم وتعليلاتها في الجواب عن سؤال كيف[1]؟ الذي عرف فيه شيء من السنن لدى المؤرخين وليس في التاريخ، لأن هناك فرقا بين التاريخ والتأريخ مثلما بين الفكر والتفكير، حيث التاريخ يعني استحداث الوقائع، وإنشاء الأحداث وفق منطق السنن وأثرها داخل دائرة حكمها.

أما التأريخ فهو المسؤول عن بيان كيف تنفذ السنن، وعن معرفة الأسباب ومسبباتها، والشروط ومشروطاتها، والعوامل ومعمولاتها، والنتائج والمقدمات المؤدية إليها، والموجهة لها نحو الوجهة المرجوة بمقتضى أعمال البشر، إن نحو مآل الازدهار الحضاري وتطوراته، أو نحو مآل سقوط الحضارات وانهيارها، فالنتائج من جنس أعمال المقدمات، والمآلات نهايات بدايات من جنسها، وهذا ما ينبغي أن يشرحه الفكر أكثر من التاريخ.

- **السنن في الفكر:** لم يكن الفكر الإسلامي،لاسيما القديم منه، مهتما بنظرية السنن، حيث لم يعبأ بها ويعيها إلا قليل. فبعد عبد الرحمن بن خلدون[2]، كان مالك بن نبي والذين معه، فنشأ الاهتمام بالسنن مرة أخرى على يده وتوسع انتشاره على يد آخرين من تلاميذه بل من تلاميذ تلاميذه

١- مالك بن نبي: مجالس دمشق، مراجعة عمر كامل المسقاوي، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٦م.

٢- ت ٨٠٨ هـ.

بعدما كان حظ مصطلح السنن أوفر من مفهومه في الفكر الإسلامي الحديث بمعنى أنه مجموعة القوانين التي تحكم مادية الوجود ومعنوياته... السنن العادية والسنن الجبرية وفق ما أراد مبدعه جلّ شأنه، وقد باتت السنن من إبداعه الذي أخضع له مفردات الوجود كلها، ولذا كانت السنن أقساما: أحدها يحكم الكون وما تعلق بمفرداته وهي السنن الجبرية والعادية، والأخرى مما يحكم النفس البشرية وتقلباتها وما يتناوب عليها من حين لآخر.

وإذا كان الكون منضبطا بسنن مطردة تحكم حركات الحياة والأحياء فيه وتحكم التاريخ وتحولاته والمجتمع وتقلباته، فإن الإنسان وحده هو غير المنضبط والمتمرد من حين لآخر، ومن هنا كان التداول الحضاري وكان الإنسان من حيث هو كائن حي عاقل غير ملتزم بأحكام السنن ولكنه لا يكاد يهرب من حكم من أحكامها حتى يقع في قبضة حكم آخر، لأنه مسؤول مسؤولية اختيارية يتحمّل من خلالها تداعيات خطإه وصوابه وما يترتب على سلوكياته وأفعاله بل حتى ما يترتب على أقواله وألفاظه ولاسيما في نظر علم النفس: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾[١].

من هنا كان لزاما على المفكر أن يسعى إلى اكتشاف مفهوم السنن والبحث عنه من خلال لفظه ليبرز أسرار الكون حتى يدرك عظمة الخالق، فينتقل من التفكر في الصنعة إلى تفكير أشد في صفات الصانع، ومن التعرف على قدرة المخلوق إلى تعرف أشد على قدرة الخالق، ومن البحث في أسرار الموجود إلى البحث في حكمة الموجد المهيمن، ولعل هذا من أفضل ما يهدي إليه الفكر الإسلامي في هذا المجال من خلال فكر ابن خلدون إلى ابن نبي[٢] والذين كانوا على شاكلتهما، ثم من خلال معنى لفظ السنن

١- سورة الأنفال، الآية: ٥٣.

٢- ابن إبراهيم الطيب: مالك بن نبي وابن خلدون مواقف وأفكار مشتركة، الجزائر.

في النص العربي الذي تأسس عليه مفهومه الاصطلاحي فصار متناولا في معارف الحضارة العربية، والذي لولا المعنى اللغوي لما أدرك المفسرون والمفكرون وغيرهم مفهوما للسنن وربما ظَلَّ لفظ السنن مجرد لفظ غير مكتشف مفهومه والذي يعود فضل اكتشافه الأول لابن خلدون، حيث هو المرجع الأساس في فقه السنن بعد القرآن الكريم.

وإذا لم يكن بين يدي ابن خلدون مصدر لمعرفة السنن إلا القرآن، فإن مفكري الغرب قد لا يكون أمامهم في ميدان معرفة السنن إلا ابن خلدون، أما مفكرو الإسلام فأمامهم قبل ابن خلدون القرآن، وإن لم يتعرفوا على السنن إلا من خلال ابن خلدون لانصراف كتب التفسير،ولاسيما القديمة، عن الاهتمام بدلالة لفظ السنن إلى الاهتمام به من الناحية اللغوية والشرعية فقط، ولذا يعتبر ابن خلدون مترجم مفهوم السنن عن القرآن الكريم إلى مفكري الغرب والإسلام، وهذه حقيقة تستحق دراسة تؤكدها وتتبع توزيعاتها من ابن خلدون إلى ابن نبي إلى سواهما.

ويبدو أن الاهتداء إلى اكتشاف قوانين الظواهر الاجتماعية، أي السنن، هو من أكبر ما أتى به ابن خلدون في ميدان دراسة التاريخ وتحولات الحضارات، ومع مرور الأيام أخذ يتسع نطاق الاهتمام بالسنن بدءا من ابن خلدون وصولا إلى مالك بن نبي، إلى أن أصبحت السنن من قضايا الفكر الحضاري المعاصر، ولاسيما من المنظور الإسلامي.

أما إسلامية فكر ابن خلدون فلم تعرف إلا على يد عدد قليل من مفكري الإسلامية المحدثين الذين درسوه في إطار الإسلامية، ودعوا إلى دراسة إنتاجه وقراءته من منظورها، مثلما اقترحت مجلة المسلم المعاصر دراسة الأصول الفقهية لمقدمة ابن خلدون، ومثل دراسة عماد الدين خليل[1]،

١- ابن خلدون إسلاميا، ط٢، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .

ومصطفى الشكعة[1]، وعبد الحليم عويس[2]، فهؤلاء حاولوا رد فكر ابن خلدون إلى أصالة انتمائه الحضاري الإسلامي التاريخي، بعد أن شردت به كثير من الدراسات عن أصالته، فقوّمت إنتاجه على أنه قومي عربي، وعلى أنه اشتراكي، وأن له انتماء يونانيا وتأثرا إغريقيا، ولكن يبدو أنه قد انطبقت على ابن خلدون مقولة «الزمان جزء من العلاج» حين غلبت أصالة فكره تأويلاتهم وأثبتت تعسف الآخرين في تناوله، ولعل من نتائج استرداد فكر ابن خلدون إلى محيطه الإسلامي تبني مفكري الإسلامية المعاصرة فكره من منطلقه العربي الإسلامي وانتمائه الحضاري.

ومن الذين مهّدوا لعودة فكر ابن خلدون إلى محيطه العربي الإسلامي علي عبد الواحد وافي ثم تلاه آخرون مثل المفكر مالك بن بني الذي تبنى فكر ابن خلدون بإعجاب، وباقتناع شديد، سيما وأن فكر بن نبي صارخ الإسلامية، وليس فيه ما يسعف الآخرين على تأويله لمقاصدهم الإيديولوجية إلا بتعسف شديد.

ويبدو أن مالك بن نبي قد انتهى إليه جزء كبير من فضل ابن خلدون، فكان وكأنه ولادة أخرى لابن خلدون ولاسيما في موضوع السنن الذي كأنه تواعد معه عليه أكثر من غيره، ولذا لقب ابن نبي بابن خلدون الثاني وقد يلقب ابن خلدون بأنه ابن نبي الأول، فيما لو درس بن نبي دراسة استباقية مثلما درس ابن خلدون دراسة مستأخرة، أما أين موقع السنن في فكر مالك بن نبي فإن أول ما تظهر فيه كتابه «شروط النهضة» الذي يحمل عنوانه أكبر مقومات مفهوم السنن أي الشرطية، وفي كتابات أخرى ألفت بوحي من السنن وتوجيهاتها، مثل «بين التيه والرشاد»، والذي يفهم منه

١- الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته، ط١، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م .

٢-التأصيل الإسلامي لنظريات ابن خلدون، كتاب الأمة، ع٥٠، ط١، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر١٤١٦ هـ ١٩٩٦م.

أن الأمة الإسلامية عاشت مرحلة التيه، وهي حالة من حالات الأمم في حضاراتها، مثلما ورد ذكرها في بني إسرائيل في القرآن الكريم: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾[1].

ثم يعقب التيه رشد، وهو الذي يرى بن نبي أن الأمة الإسلامية بدأته بدخولها مرحلة الصحوة الإسلامية، وكتاب «وجهة العالم الإسلامي» حيث الوجهة بمعنى الاتجاه والنهج، ومازالت تتواصل الدراسات التي ربما أنشأها ابن خلدون وجدد البحث فيها مالك بن نبي وأكثرها دراسات رائدة والتي كأنها شروحات لأفكار ابن خلدون من خلال أفكار بن نبي، ولذا ليس ابن خلدون ومن بعده ابن نبي فريدين في ميدانهما وإنما لهما من قبل، وهو القرآن الكريم، ومن بعد، وهو امتدادهما في الذين جاؤوا من بعدهما على نهجهما من تلاميذهما حتى تتلمذ على تلاميذ ابن خلدون من خلال مالك بن نبي آخرون وهم الذين أصبح موضوع السنن من أشد اهتماماتهم باعتباره منهج نهضة عليه تتجدد الحضارة الإسلامية لتستأنف رسالتها فيؤول الأمر الحضاري إليها.

- **السنن في الدعوة الإسلامية:** إن من أشد اهتمامات الدعوة البحث عن الطرق الموصلة والأساليب المؤثرة إن على مستوى الميولات العاطفية أو الاقناعات العقلية، ولذا فلا ضير أن تكون السنن من أشد اهتمامات الدعوة الإسلامية لأنها هي الطرق التي تسلكها من أجل تحقيق غاياتها وإن لم تعلن عنها، وإذا كان أهم المفسرين الذين طرقوا السنن محمد عبده ومن خلاله رشيد رضا ثم سيد قطب ومن بعدهم أهم المفكرين الذين تناولوا السنن عند ابن خلدون ومالك بن نبي، فإن من أهم الدعاة الذين التزموا السنن ونظّروا لها وانتبهوا إليها بوعي حسن البنا وإن

١- سورة المائدة، الآية: ٢٦ .

لم تغب على آخرين مثل الإمام عبد الحميد بن باديس وأبي الأعلى المودودي، حيث انتهجوها طرائق قددا لتحقيق مقاصدهم، وعنهم أخذها غيرهم ومن تلاميذهم من نظّر لها وعنهم أخذها فأسهمت الدعوة في استعراض نظريات السنن وأفكارها فزادت في توسيع دائرة الاهتمام بها، وشاركت في تحقيق أهداف الدعوة المرجوة، ومازال يتواصل الاهتمام بالسنن في ميدان الدعوة إلى الإسلام وإصلاح المجتمعات بل توسع الاهتمام بها أكثر، وصار كدح الدعوة من أجل توسيع دائرة الاهتمام بالسنن أكثر في حرص شديد على سلوكها سبلا في تأسيس مناهج الدعوة إلى الإسلام، ولعل من أقوى ما يوضحها مفهوما لا نظرية كتاب قواعد الدعوة إلى الله[١] .

ومما واجهته الدعوة من خلال مصطلح السنن والسنة ما تشابه بين السنة والبدعة، ولاسيما حين الذهاب إلى أن من البدعة ما هو حسن وما هو سيئ، فيما اضطرت الدعوة إلى إفراد مؤلفات تناولت متشابهات ما بين السنة والبدعة[٢]، حتى ولو اختلف معنى مصطلح السنة واستعمالاته في مواقع بين المحدثين والفقهاء والأصوليين .

ومن توقف الدعاة عند مصطلح السنة أو السنن، دخل اهتمامات الدعوة التعامل مع حقيقة السنن وأثرها في الحياة، ويأتي في تقديري اهتمام حسن البنا رحمه الله وفهمه للسنن وأثرها في نصر الدعوات في مقدمة اهتمامات الدعاة الذين جاءوا من بعده وإن لم يحرصوا على ما ذهب إليه، وسيظل التاريخ يحتفظ له في الآخرين بمثل ما احتفظ به للأولين.

أما النص الذي ورد عن حسن البنا في السنن فهو خطابه: «ألجموا نزوات العواطف بنظرات العقول، وأنيروا أشعة العقول بلهب العواطف، وألزموا الخيال صدق الحقيقة والواقع، واكتشفوا الحقائق في أضواء الخيال

---

١ - همام سعيد .

٢ - أحمد حماني: صراع بين السنة والبدعة، ط١، دار البعث، قسنطينة الجزائر.

الزاهية البراقة، ولا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة، ولا تصادموا نواميس الكون، فإنها غلابة، ولكن غالبوها واستخدموها، وحوّلوا تيارها، واستعينوا ببعضها على بعض، وترقبوا ساعة النصر، وما هي منكم ببعيد»[١]، والشاهد هو انتباه حسن البنا إلى مفهوم السنة مثلما انتبه آخرون له وإلى أثره في الحضارة وتحقيق الأهداف المرجوة.

من فقه السنن ومثله أصبحت الدعوة علما له أسسه ونظرياته ووسائله وأهدافه، وإن لم يعترف له أكاديميا بالعلمية بقدر كاف، فإن السنن فيها حقيقة قائمة، ولذا فمن الإنصاف والموضوعية أن يتعرف على آراء الدعاة وتصوراتهم في القضايا العلمية والفكرية، لاسيما أن ميدان الدعوة فيه أكاديميون كثر، من مختلف فنون ميادين المعرفة العلمية والتاريخية والفكرية والأدبية، بل الدعوة أصبحت اختصاصا فيه أصناف التعرف على وجهات نظر الدعاة في مسائل البحث.

- **مرادفات السنن**: ليس للفظ السنن مرادفات كثيرة في الاشتقاق وإنما مرادفاته في المعنى والمفهوم، وإنما أوثر استخدامها لدى بعضهم أكثر من استخدام لفظ السنن بمعنى الطريقة والقانون الذي لم يحظ باهتمام إلا منذ وقت ليس ببعيد حين اكتشف لفظ السنن ومفهومه مرة أخرى بصفته المتداولة في كتابات المفكرين المعاصرين في اعتمادهم له كأداة تحضر.

وهناك قائمة من مرادفات السنن من حيث الاشتقاق اللغوي، ولكنها كادت تنقرض لعدم استعمال القرآن الكريم أكثرها، ولعدم تداولها في لغة الخطاب اليومي والتعليمي، ولذا لا تبدو فائدة كبيرة من دراستها، وإن كانت ماتزال تحتفظ بها قواميس اللغة العربية ومعاجمها دليلا على ثراء مادة (س. ن . ة) المعرفية اللغوية التي بينت هذه الدراسة شيئا منها، مما

---

١ - حسن البنا، إسلامنا، رسالة المؤتمر الخامس، دار الاعتصام، القاهرة، ص٢٥.

قد يتكئ عليه الدارس في بحث مادة السنن وشقيقاتها من خلال مشتقاتها الأخرى في المبنى والمعنى.

- **الناموس**: ولقد استخدم مصطلح السنن منذ عرف مرادفا للفظ الناموس، **مما** يدلّ على أنهما يعبران عن مضمون يكاد يكون واحدا، مثلهما مثل تعريف الشخص باسمه ولقبه وانتمائه لبلده، وقد استعمل لفظ الناموس على أنه لفظ قديم مرادف لمعنى السنن ومشارك له في بعض خصوصياته، حيث عبّرت به بعض الاستخدامات كالقول ناموس الكون أو ناموس الطبيعة، والقصد إرادة الله التي تخضع لها شؤون الوجود في أحوالها جميعها.

ولذا، دلّ الناموس على أن الوجود قائم على الحق وأن الحق أصيل فيه، وأنه ثابت على الناموس الذي لا يضطرب ولا تتفرق به السبل، ولا تختلف دورته، ولا يصطدم بعضه ببعض، ولا يسير وفق الهوى المتقلب والرغبة الجامحة، إنما يمضي في نظامه الدقيق المحكم المقدر تقديرا، ومن ثمّ أول ما يقع الشقاق يقع بين الإنسان وفطرته حين يحيد عنها وعن الحق الكامن في أعماقها[١]، فالتناسق مع الناموس لا يؤجل سعادة الناس إلى الآخرة، بل يجعلها واقعة ومتحققة في الحياة الأولى ثم تتم تمامها وتبلغ كمالها في الدار الآخرة[٢]، وإلى جانب مرادف الناموس القانون.

- **القانون**: أما القانون حين يجري في حياة الشعوب والأمم، فهو يستخدم فيما يعبّر عن إدارتها وسلوكياتها وهو الأصل، ولذا شارك مصطلح القانون استخدامات كثيرة مثل قانون بقاء الأمم، ومكانتها في الأرض، وصلاحيتها العامة التي تتفوق بها أمم على أخرى على قدر درجة الفعالية، وعلى قدر التزام القانون تتبدل تحولات الحضارات لتتداول الأيام بين الناس فتتقلب

١- سيد قطب: معالم في الطريق، ص١١٣.

٢- سيد قطب: معالم في الطريق، ص١١٤.

بين الذل والعزة والضعف والقوة.

ومن الموازنة بين دلالة مصطلح الناموس ودلالة مصطلح القانون من خلال مفهوم السنن لعموميته يعرف أن القرآن الكريم أملى السنن، وأن الفكر البشري وضع القانون، وأن الكون يقرأ من دلالة مصطلح الناموس لأنه نظم جريان أحداثه وحركاته وفق منطق، لذا كان البحث عن مفهوم السنن ومصطلحه من خلال القانون فظهرت مؤلفات باسمه.

وقد يكون الذي يجمع بين دلالات المصطلحات الثلاثة وظيفتها، التي تحاول تحقيق التناسق بين حياة البشرية وناموس الكون، وبينها وبين السنن والقانون، حتى يعيش الإنسان في سلام مع الكون ومع نفسه، ومع أحداث الحياة في توافق بين فطرته وشريعة الكون بمعنى قانونه، ومن هنا يوضح القرآن الكريم أن لله في الكون نواميس لا تتغير وفي الأمم سننا لا تتبدل هي الأخرى، وعليها تترتب الآثار التي تسمى نواميس أو شرائع، يعبّر عنها آخرون بالقوانين، مثلما تسمى قوانين الوجود وقوانين الطبيعة ولا مشاحة في الاصطلاح.

وإن ترشح ترجيح مصطلح السنن من دون مرادفاته لأسباب قد يكون شرحها استطرادا غير ضروري، ولعل منه تلمس حكمة استخدام القرآن له أكثر من مرادفاته وإن لم تعرف دلالة اصطلاحية لفظ السنن قبل العصر الحديث بتوسع وقوة استخدام وانتشار تداول، مثلما لم يرد أكثر لفظ السنن في الشعر العربي إلا بمعنى الطريقة إلى أن استعمله القرآن بدلالة مفهوم مصطلحه على أنه نسق نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل .

وللسنن مرادفات أخرى بعيدة منه إلى حد ما مثل الحكم مما يعني ضرورة تناول هذه الدراسة مفهوم السنن من وجهات أخرى في الإطار الحضاري العام مثل الوجهة الفقهية والتاريخية والعلمية، ليتتبع مفهوم السنن من

حيث تعريفه والوعي به ومصادره ومقاصده وطرق اكتشافه وضوابطه إلى أن يوقف عليه كيف يحكم التحول الحضاري وتداوله بين الأمم من خلال مقوماته ضمن مصادره بمقتضى استقراءاته واستنبطاته .

الفصل الثاني

مصادر مفهوم السنن واستقراءاته

- **مفهوم المصدر**: عندما تعرض المسائل المعرفية، يصبح من الضروري البحث عن مصدرها ومنشأها، وبداية منطلقاتها، وأسباب مسبباتها، وعوامل معمولاتها إلى أن تتضح، فيعيها الإنسان وعيا تنال به مقامات من الاهتمام العام المعرفي العلمي والثقافي وغيره.

ولم تخرج السنن عن هذه القاعدة، ولم تستثن من مقتضياتها، بل قد تكون في مقدمتها لتعدد مصادرها، وتفاوتها من حيث احتفاؤها بمادة السنن المعرفية ولفظها ومرادفاته ومفهومها ومرادفاته،وإن كانت مصادر السنن ليست كلها في مستوى واحد من حيث توافر لفظها فيها ولها من حيث طبيعة سنن كل مصدر مضافة إليه كالقول سنة الله وسنن القرآن وسنن الحديث وسنن الأمم إلى آخره، ووسائل البحث عنها، وطرق اكتشافها فيه، مثلما ليست قائمة مصادر السنن الفرعية نهائية، ولذا فإن دراستها من باب التعريف طليعة أولى وستتبعه تعريفات أخرى واكتشافات جديدة لآليات البحث عنها في مضامينها إن شاء الله .

- **تفاسير القرآن ودراساته**: تعرف السنن في القرآن الكريم ومن خلاله ومن خلال تفاسيره ولكن دراسة السنن في دراسات القرآن وعلومه أوضح سبيلا في التعريف بالسنن حين استوقفت دارسي القرآن والباحثين في علومه من أجل الاستشهاد بآياته، والاستدلال بها أكثر مما استوقفت مفسريه .

أما الدراسات القرآنية ففيها ما يشبه التخصص الذي تهيئ طبيعته الباحث للإتيان بالجديد[1] ، حين يضيّق مساحة بحثه في إطار نطاق مفردة معرفية أو مفردتين من مفردات القرآن الكريم، مثل السنن التي هي واحدة من أهم مفردات القرآن المعرفية وفق منطق فقه الأولويات ومراتب المعرفة في الفكر الإسلامي ولاسيما من خلال القرآن الكريم الذي تعتبر مفرداته

١- مثل «الظاهرة القرآنية» لمالك بن نبي، و«النبأ العظيم» لعبد الله دراز و من نهج نهجهما مثل جودت سعيد وبخاصة كتابه «إقرأ وربك الأكرم».

المعرفية حقائق قديمة قدمه وجديدة لتجدد معانيه عبر العصور التي تخرج جديدا كلما توافرت شروط التجديد والتجدد عندما تنضجه ظروف العصر بين الحين والآخر حقيقة أو مجموعة حقائق من القرآن، وتؤخر أخرى إلى حين استيفاء شروط نضج الإعلان عن اكتشافها، مثلما أخرت اكتشاف السنن إلى أيام نضج تجربة أدوات اكتشافها مع أنها ظلت مبثوثة في مصادرها منذ كانت.

ومن المتفق عليه أن السنن ذكرت في النص القرآني منذ كان وبثت في الكون ومثله من مصادرها الأخرى منذ كانت، إلا أن المفسرين والمفكرين وعلماء الطبيعة قد مرّ عليها أكثرهم بالغدو والآصال مرورا عابرا، فاشتغلوا بما أنضجته ظروف عصورهم من قضايا اللغة والفقه والتاريخ والفلسفة والفلك، ولكن السنن لم تتوافر شروط اكتشافها يومئذ لعدم نضج أدوات البحث فيها، لأن علماء الإسلام لم يشتغلوا في ميدان قضايا الفكر التي تعتبر السنن منها، لاشتغال أكثرهم بالفكر من منظور منطق فلسفة اليونان مثل الإمام الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب.

ولذا تأخر البحث في السنن إلى أيام أزمة نهضة الفكر الإسلامي الحضاري الحديث، فألحت أسئلة النهضة على اكتشافها في مصادرها ومنها القرآن الكريم إلحاحا شديدا، وقد يكون المصطلح واحدا من أسباب تأخر اكتشافها إلى أيام محاولات النهضة الحديثة من منظور تأصيل المصطلح الإسلامي، الذي تأخر هو الآخر عن دوره لتأخر تأسيس الفكر الإسلامي الحديث من منطلق أصوله غير الأصول اليونانية التي سميت الفلسفة باسمها، مع أن هناك حشدا من الآيات ظلت تحث على استخدام العقل من باب أمر الدعوة إلى التفكر والتعقل والتبصر، وغيرها من ألفاظ هذا السياق التي تواترت، من أجل اكتشاف واستخراج واستنباط محتويات القرآن الكريم ومضموناته التي منها سنن الوجود والكون والأنفس والآفاق .

وإذا كانت وظيفة الاستنباط من القرآن الكريم قد أنيطت أصلا بالمفسرين لأنها من تخصصهم، إلا أن من دراسات النص القرآني والنظر فيه وخواطرها وتأملاتها ما خدم جزءا من مهمة المفسرين، وحقق بعض ما أوكل إليهم من مقاصد كان ينبغي عليهم تحقيقها، سيما وقد غفل عنها بعضهم، مثل غفلتهم عن السنن، المسألة التي تجاوزها المفسرون، ولم يعبأوا بها إلا في استثناءات قليلة من القاعدة، وبخاصة المفسرين القدامى، الذين لم يستوقفهم لفظ السنة والسنن بالمعنى الذي تتناوله هذه الدراسة إلا في نظرات لغوية عابرة، لأن أكثر المستنبطين من القرآن الكريم كانوا هم الفقهاء فيما استخرجوه من أحكام شرعية ومعهم النحاة وما استشهدوا به على قواعدهم، وإلى جوارهم البلاغيون.

أما المفكرون فقد تأخرت استنبطاتهم لمعارفهم من القرآن كتأخر علماء الطبيعة إلى العصر الحديث، ولذا لم يحز فضل الانتباه إلى السنن إلا المفكرون المحدثون الذين بلوروا مفهوم السنن، ولعل ما حققته كتب الدراسات الفكرية في هذا الميدان أكثر مما حققته تفاسير القرآن الكريم وبخاصة قديمها، أما حديثها فيبدو أن أول ما ظهر فيه الاهتمام بالسنن «تفسير المنار» للإمام محمد رشيد رضا، ثم تبعه تفسير «في ظلال القرآن» للإمام سيد قطب، الذي ينظر إليه من الناحية الأكاديمية على أنه دراسات أكثر منه تفسير، لعدم استيفائه شروط التفسير الأكاديمية، التي اعترف صاحبه بالتخلي عن جزء منها في تواضع منه، حين أعلن في مقدمة كتابه في ظلال القرآن أنه لم يفسر القرآن وإنما نقل للقارئ تجربة حياته في ظلال القرآن[1].

ومن هذا المنطلق، فإن البحث عن السنن في مصدرها تفسير القرآن الكريم تعني البحث عن السنن في الدراسات التي سارت في ركاب القرآن،

١-أنظر مقدمة في ظلال القرآن ج ١.

ولم تسم نفسها تفاسير، وإنما جاءت تحت عناوين مثل خواطر في القرآن[١]، في رحاب القرآن[٢]، دراسات قرآنية[٣]، نظرات في الاستدلال القرآني[٤]، وكأنها تأثرت بعنوان في ظلال القرآن لسيد قطب، ويبدو أنها خدمت القرآن الكريم في القضايا الخاصة خدمة لائقة، مثلما في السنن التي وفرت في موضوعاتها مادة أكثر مما وفرتها كتب التفسير، وقد لا يعرف الباحث في السنن سبب عدم استيقاف ألفاظها المفسرين، ولاسيما في صيغة جمعها، أي السنن، مع أنها كثير ما جاءت في سياق الأمر بالسير في الأرض والضرب فيها، وكأن قصد الأمر في مثل صيغ هذا السياق الدعوة إلى اكتشاف السنن، وبخاصة سنن قيام الحضارات وسقوطها وتداولها وتجددها ومآلها.

ولذا فالسنن في حاجة إلى اكتشافها منهجا يقوّم طريقة الأداء الحضاري بالكشف عن الحقائق التي تحكم الكون والعالم، وتحمي صيرورتهما الزمانية وتطورات الإفادة الحضارية منهما لما تمنح الإنسان من حلول مشكلاته وتنسيق بين مفردات الحضارة حتى تتوافق جوانب الإيديولوجيا والتكنولوجيا ثم جوانب نظرياتها وتطبيقاتها، فتمضي الحضارة البشرية قدما صوب الأحسن والأرقى، لأن من مقاصد القرآن الكريم طلب تحقيق الأحسن[٥].

وفي هذا الاتجاه، بسط القرآن الكريم عن طريق الدعوة إلى التأمل والتدبر منهج الكشف عن نواميس الكون، وسنن الحضارة، وهو منهج شامل مرن لا يخضع لتقلبات الزمان ولا المكان، لأنه أداة حياد في البحث والتنقيب، ومن ثمة علا على المتغيرات النسبية، وظل ساري المفعول في العصور

١ – محمد متولي الشعراوي.

٢ – عبد الحميد كشك.

٣ – محمد قطب .

٤ –عبد الستار فتح الله.

٥ – وردت آيات كثيرة تدعو إلى الأخذ بالأحسن بدل الحسن مثل: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ العنكبوت، جزء من الآية ٤٦.

والبيئات كلها، ومن أجل معرفة هذا الغرض وما يماثله كانت دارسة السنن في مصادرها المعرفية وما يشتق منها، مثل القرآن وتفاسيره أو دراساته وفهم أدواته ولاسيما في خواتم آياته، حيث صيغ مثل لعلكم تعقلون، لعلكم تفلحون، لعلكم تذكرون، لعلكم تتفكرون وغيرها من الصيغ الموقظة لحاسة التدبر واكتشاف السنن وآثارها.

- **التفكر في القرآن الكريم**: إن السنن قدر من أقدار الله يمضي وفق إرادة الله في الوجود، وبهذا المعنى فالبحث عنها والتعرف عليها جزء من العقيدة، والانضباط بمقتضياتها يساوي التكليف الذي ينفي التواكل، ويؤكد حقيقة التوكّل، ولا يتحقق هذا إلا بوسائل منها : التفكر في القرآن، والتدبر في آياته، وما بثّ من حقائقها في الوجود، والتفكير فريضة إسلامية[١]، لما يترتب عليه من إبداع حضاري في ميادين الحياة كلها، وتحمّل الإنسان لمسؤوليته وأدائه لدوره، فكان العقل أساس تكريم الإنسان ومناط تكليفه ومسؤوليته .

ولذا طالما ذكر القرآن العقل في موضع التكريم والتعظيم، وعبّر عنه بألفاظ أخرى كالفكر والفؤاد في مواضع أخرى يتجلى من خلالها مدى أهمية التفكر في إدراك سنن الله، ولسيد قطب في تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ (يونس: ١٠١) رأي في النظر على أنه وسيلة تمد القلب والعقل بزاد من المشاعر والتأملات، وزاد من الاستجابات والتأثرات، وذلك كله في الطريق إلى امتلاء الكينونة البشرية بالإيقاعات الكونية الموحية بوجود الله وتدبيره أمر السماوات والأرض.

ومن تردد لفظ «انظروا» في القرآن الكريم يبدو أنه يحمل معنى أكثر من المعنى الذي عرّف به المفسرون تعريفا عابرا، حين اعترض سبيلهم، ولذا أرى أن لفظ «انظروا» في القرآن يستحق دراسة، تجلي شمولية معناه وعمقه

١- محمود عباس العقاد.

وتبيّن مقاصد ورود استخدامه في القرآن الكريم، وما ينفتح من خلاله على معنى التفكر لتفتح مغاليق أخرى من أسرار الكون، ومنها السنن التي تضبط مجرياته، ولاسيما حين التعرض إلى الجانب الفكري أو العقلي في القرآن لتطلق قدرات الإنسان مما يكبّلها من آراء. فالإسلام دين الفكر بأمر من القرآن، يدعو إلى استخدام العقل فيه وفي الكون الذي اعتقد بعضهم أنه يسير وفق فوضى العبثية، مما أدخل أمما ومن خلالها جزء من نخبة الأمة الإسلامية منطقة إيديولوجية أخرى، آثرت العبثية على المقصدية، مثلما آثر بعض من الأمة الإسلامية التواكل عن التوكل ولو من غير وعي.

ومن هنا أصبح تأسيس مناهج التفكير لصد هذه الأفكار، واقتحام جحورها ضرورة، حتى تصحو الأمة الإسلامية من نومها، وتنهض من كبوتها، سيما وأن بوادر ما أصبح يسمى بالنهضة الثانية ذات مشروع العالمية الإسلامية الثانية بدأت تلوح في الأفق، وهي أمل آخر قد يخرج الأمة الإسلامية من خلال اكتشاف السنن والتزامها نهجا في الحياة من منطقة التفكير السطحي إلى منطقة التفكير العميق الذي من المنطق أن يقرن بوسائل تحقيقه، التي منها الجدية والانضباط والوعي، الوسائل التي لن تكون إلا في برنامج مشروع سنن النهضة الثانية، وإلا تظل الدعوة إلى التفكر والتدبر مشلولة، تفتقد الفعالية بافتقادها وسائل تحقيقها، حيث لن يوصل إلى المقاصد إلا بواسطة الوسائل، ولن تنطلق الوسائل إلا من خلفية مرجعية منتمية إلى هوية الأمة مع انفتاحها على الآخر، لأن دعوة القرآن الكريم إلى التفكر والتدبر والتعقل والتبصر تنفرد بميادين لا يشركها فيها غيرها لأن العقل المسلم مازال لم يأخذ كتابه بقوة ليستأنف أداءه في التحضر الذاتي وترشيد حضارة الآخر، حيث ما انفك يعاني ضعف الاستجابة لتحدياته الذاتية، وهي نداء ضميره، ولتحديات الآخر وهجماته عليه .

ولذا صارت السنن بخصائصها من أمل نخبة في الفكر الإسلامي

مازالت تكدح منذ أمد من أجل مشروع التحضر والتزام مقتضياته العقدية والتعبدية والسلوكية والأخلاقية، الأمر الذي لن يتأتى إلا عن طريق الوعي العقدي الحضاري الملتزم نهج القرآن الكريم في التدبر والتفكر في آيات الأنفس والآفاق والوسطية، لتخرج الأمة من أوهام النهضة الحائرة والحالمة إلى أفكار مطمئنة وواقعية ذات فعالية لتجد طريقها إلى التجسيد الميداني بوعي مفردات الكون واستخدامها لغايات الحق، وهنا يفتح باب القراءتين: قراءة الكون وقراءة الكتاب.

- **الدراسات التفسيرية**: يطلق مصطلح التفسير على بيان معاني القرآن الكريم وشرح ألفاظه، وقد اختاره علماء القرآن من بين مرادفاته حتى صار لا يصحّ إطلاق غيره على شرح ألفاظ القرآن الكريم وبيان معانيه، وقد ينتهج التفسير أسلوب المأثور، فيحاول النقل عما قاله الذين سبقوا البحث الدرب ذاته، وإلا انتهج التفسير منطق أسلوب الرأي واستنطاق معاني الآيات التي يريدها من خلال مفرداتها، لما قد ألجأت إليه ضرورة تأويل آيات النص القرآني المراد من بين مطلقه لما تضمنته الآية الكريمة ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[1] حيث تدفع جملة كل شيء إلى البحث عن كل شيئ.

ولعل تفسير المنار فعل شيئا عندما تعرض إلى تفسير آيات السنن في القرآن الكريم تحت طلب ما اعترض سبيله من حاجات العصر، ومشكلات نهضة الأمة الإسلامية، ومن خلالها مشكلات الحضارة المعاصرة، فبحث أسباب تخلف أمم، وتحضر أخرى، وأشار إلى السنن من خلال معانيها كاعتباره الفسق عن أمر الله خروجا عن سننه، وهنا دخل تفسير المنار ميدان السنن من باب الواقع الحضاري، ولم يدخله من باب النص القرآني، مثلما فعلت دراسات قرآنية أخرى، وحينها اعتبر رشيد رضا

١- سورة النحل، جزء من الآية: ٨٩.

رحمه اللّه أنه من خير ما جاءت به مجلة العروة الوثقى الصادرة يومئذ عن الجامعة الإسلامية من جديد ثلاثة أمور: أحدها بيان سنن اللّه تعالى في الخلق ونظام الاجتماع البشري وأسباب ترقي الأمم وتدنيها وضعفها[١] حيث تبارت أفكار في مجلة العروة الوثقى[٢] في هذا الموضوع.

- **الدراسات الاستدلالية**: وهي التي تؤسس ذاتها خارج دائرة النص القرآني، وإن لم تنشأ خارج دائرة روحه، ثم تذهب تطلب دعم القرآن الكريم لها ومدها بما يخدم أغراضها، حيث قد يسعفها القرآن بحظ وافر من معانيه، فيبسط لها في العطاء.

ولا بأس أن تنشأ دراسات خارج النص القرآني، وتتلمس ذاتها فيه بالاستدلال على صحة أفكارها ومصداقية آرائها ووجهات نظرها، مثلما هي أبحاث في السنن حاولت استنطاق آياتها في القرآن الكريم من خلال كتب اللغة العربية، ثم استفتت كتب التفسير القديمة فيما ذهبت إليه، ولعل من نماذجها كتاب «سنن الله في المجتمع من خلال القرآن[٣] وكتاب «سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها»[٤]، وكتابات أخرى التزمت النهج ذاته، فلم تطلق لعقلها عنان الرأي، فظلت ملتزمة مادة النص القرآني وروحه تستفيد منه ومن قديم كتب تفسيره وحديثها.

- **الدراسات الاستلهامية**: وهي كثيرة، بل قد تكون إبداعات دراسات معارف القدامى كلها مستلهمة من القرآن الكريم، ولكن الذي يهم أكثر منها ما يرتبط بالسنن موضوع بحث هذه الدراسة، ومن أمثلته دراسة «حتى يغيروا ما بأنفسهم»[٥] التي جعلت محورها الأصل آية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا

١- محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ج١، ط٢، دار المعرفة، لبنان، ص١١.

٢- إصدار دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.

٣- محمد الصادق عرجون.

٤- محمد هيشور

٥- جودت سعيد

﴿بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]، وهي دراسة ربما اتسمت بسعة صدر أكثر من نظيراتها من الدراسات الاستدلالية الأخرى التي لم يسعفها النص إلى ما تريد مما قد يكون سبب انصرافها عن مواصلة سيرها نحو مقاصدها، ومثلها دراسة سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم[2] ودراسة هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا[3] وغيرها.

ومن هنا يظل خيط القرابة يربط بين نص الوحي والإبداع الحضاري كله في إطاره لما يحمله الإبداع من حسنات نص الوحي وقيمه ومبادئه، أما حين انقطع جزء من خيط القرابة بين نص الوحي وإبداع علماء الأمة الإسلامية ومفكريها وأدبائها ليصبح الإبداع خارج دائرة الوحي، حيث لا يستمد ذاته منها إلا قليلا وربما يستمد من تجارب الآخر أكثر مما يستمده من الوحي أو تراثه، فقد دخل الفكر الإسلامي ما ليس منه .

- **الحديث وشروحه**: اقتضت مساحة جرد لفظ السنن،جمع سنة، في الحديث الشريف وشروحه حيزا أوسع من الذي بين يدي هذه الدراسة[4]، مثلما يستغرق وقتا أطول وجهدا أكبر، ولذا فإن طرقه هنا لن يكون أكثر من الإشارة إليه، لاسيما أن ذكر لفظ السنن في صيغتيه الإفراد والجمع وردا بمعنى الحكم الشرعي فيما يقابل الفرض والواجب وليس بمعنى الطريقة والمنهج والقرار غير القابل للتخلف أو الاستقدام عن وعده وموعده وعن تحقيق غاياته وأغراضه.

إن موضع السنن في شروح الحديث يبقى مفتوحا لاكتفاء علماء الحديث من لفظ السنة بمعناه اللغوي ودلالته الفقهية، وإن انتهوا إلى مصطلحه الفكري فمازالت اهتماماتهم به شذرا، حيث يعني القانون المتحكم في

١- سورة الرعد، جزء من الآية: ١١.

٢ - سمنار، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، تقديم د/جمال الدين عطية، القاهرة، ١٩٩٠م.

٣ - محمد تمار: شركة زاعياش، الجزائر . ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.

٤ - محمد هيشور: مخطوط سنن الحديث في قيام الحضارات وسقوطها.

التغيير والإصلاح وتحويل ما بالنفس والمجتمع والحضارات.

ولذا ليس في كتب شرح الحديث كثير ما يؤيد معنى مصطلح السنة الذي ترغب هذه الدراسة في بيان مقصدها، ومن هنا، فمازال أمام البحث العلمي طريق طويل لاستنطاق كتب الحديث و الدفع باتجاه استخلاص المعنى الاصطلاحي للسنة وطبيعتها ودورها في النهضة والتخلف.

وأعتقد أن مثل شروح الحديث في هذا كمثل تفاسير القرآن الكريم الأولى التي لم تكن تريد البحث في السنن إلا من خلال معناه اللغوي بالإضافة إلى دلالته الفقهية، وقد ظلت على هذا إلى أن جاء الإمام محمد عبده صاحب المنار وتلميذه رشيد رضا فأعطى لفظ السنن معناه الاصطلاحي إضافة إلى معناه اللغوي والفقهي، ولذا لم ينبت مفهوم السنن بدلالته الفكرية خارج دراسة النص القرآني ولو اعتمد مصدرا ربما من باب إثبات مصداقية الأمر الذي مازال لم يحدث في شروح الحديث مثله، ولذا باتت تطالب بإلحاح بمنهج إصدار شرح المنار في الحديث الشريف على قياس تفسير المنار في القرآن الكريم وإلا سيبدأ درس السنن بمعنى القانون المتحكم من درس الفكر الإسلامي وهذا هو المرشح الأكثر حظا، ثم يأتي يلتمس ذاته في الحديث الشريف مثلما التمسها في القرآن الكريم ولو بدأ في هذا الآخر من القرآن ذاته، وعندئذ يصبح درس السنن في الحديث كدرسه في القرآن الكريم ولو بدا ما يميز بين كل منهما فإنه من طبيعة الأصلين العظيمين[1]، حيث درس الحديث الرواية والدراية بينما درس القرآن الدراية فقط، وإلى أن يتحقق هذا فإن مبحث هذه الدراسة العابر إلى ما سواه يكتفي بما يلفت الانتباه إلى هذا الموضوع إلى حين يقيد الله للأمر أهله.

- **التاريخ واستقراءاته**: إذا كان القرآن قد أملى من السنن ما أملى ودعا إلى اكتشاف أخرى، فإن التاريخ قرر من السنن ما قرر وحكم على من

١ - جمال البنا.

نهج سبيلها بالصواب وعلى من انحرف عنها بالخطأ، حين بيّن سنن قيام الحضارات وسنن سقوطها وتجددها وسنن تداولها، ثم دعا مفكرو التاريخ إلى استقراء سننه، ولذا فالتاريخ ليس خبرا هاما بقدر ما هو فلسفة ومناهج وقراءات، ومن هنا تأتي أهمية فلسفة التاريخ ومناهجه، ويظل التاريخ مجرد حافظة أحداث ووقائع، أو بريد نقل معارف إلى أن تحقق مناهجه فعاليته التي لها هي الأخرى آلياتها التي قد يكتشفها، ويتعرف عليها من يجوس خلال ديار التاريخ ويتتبع صيرورته الداخلية، حيث يحسّ تيارا ذاتيا يحمل سنن التحضر[١] من حيث ميلاد الإرادة والقابلية ومكتسبات التوارث والاستجابة للتحديات والرهان على تحقيق الأهداف والغايات.

أما حين يقرأ التاريخ من خارجه وينظر إليه من سطحه ويقيّم من واجهته، فإن الدارس يتعرف على ما يطفو من أثر التفاعل أو الغليان الداخلي، مثله مثل أجهزة جسم الكائن الحي، كجهاز الهضم، وجهاز التنفس والجهاز العصبي والأجهزة الأخرى التي حين تنشط أو تصاب بالمرض تبدو ملامحه على الوجه أو ظاهر الجسد، ومثل محركات دواليب المصانع والمعامل في عالم الأشياء والماديات التي قد تشتغل بالتوقيت أو على الدوام لتنتج أكثر، وتغزو السوق بكم أكبر ولعله أجود، ولكن تصاب بالتقادم والتآكل.

وإن في الإنتاج الفكري والإبداع الأدبي والاكتشاف العلمي والاختراع الصناعي التكنولوجي ما يشبه المثالين، حيث الإنسان تحركه عوامل ذاتية وأخرى وراثية تاريخية وبيئية نحو مآل السقوط الحضاري أو نحو مآل ازدهاره، فتبدو ملامحهما فيما يظهر من سلوكيات وأعمال. وبين سنن قيام الحضارات وسقوطها، تبدي القراءة التاريخية سنن العبور الحضاري، ويحدث التداول ذاته أو من خلال أحد مرادفاته كالاستبدال والتناوب والاستخلاف بين أمة وأخرى أو بين شعب وآخر.

---

١ - عبد المجيد النجار.

والذي أريد بيانه في سنن الحضارات أن السقوط الحضاري الذي قد يعبّر عنه بالانحدار الحضاري أو التدهور لأي شعب من الشعوب أو أمة من الأمم تتبعه قيام حضارة قيادية أخرى وفق منطق السنن الجبرية، وإن كانت تجري من خلال السنن العادية، لأن التاريخ لا يتوقف ولا ينتهي، فمآل الانحدار أو السقوط في استقراء التجربة التاريخية البشرية بحكم ضرورة السنن يتبعه ازدهار أمة أخرى أو شعب آخر في إطار البشرية العام أو في إطار أمة، ولن تنهي حضارة من الحضارات دورها في التاريخ حتى تتهيأ حضارة أخرى لتسلم القيادة، وكأن سنة الطبيعة تأبى الفراغ فتسيّر موكب الحضارة خطوة بخطوة، لأن سنن التداول الحضاري، بل حتى سنن التجدد الحضاري، تجري في الحياة مجرى الدم أو الماء في الكائن الحي، ولأن الإبداع البشري بل الفعل البشري لا يستطيع أن يعطي كل ما عنده دفعة واحدة مهما أوتي من قوة لأنه لا حد لنموه ولا حاجز لعلو سقفه، وكأن ما عند الإنسان من إبداع لا ينفذ مثلما لا ينفذ ما عند الله ولكن في إطار «وما أوتيتم من العلم إلا قيلا» حيث مازال الإنسان لم يستنفذ قدراته العقلية والعاطفية وحتى البدنية كلها، وأن الذي بين الكائن والممكن طريق طويل تتسع دائرته بين يدي الإنسان وأمامه، ثم كلما تمكن من ممكن بدا له ممكن آخر قد يكون أوسع أفقا من الذي قبله.

وأما فكرة «ليس في الإمكان أفضل مما كان»، فإنها تتنافى وسنن صيرورة الحضارة وسنن نمو الازدهار، وإنما الذي يتوقف هو التاريخ الجزئي للبشرية، حيث تقف حضارة شعب من الشعوب أو أمة من الأمم عند مرحلة من مراحل الرقي الحضاري، حيث البداية ولا نهاية تحكمه بمنطق سنن البشر وإن كان لكل بداية نهاية ولكل كتاب أجل، مع أن سنن مآل الازدهار الحضاري قد تستأنفه مرة أخرى بمقتضى حكم سنن التجدد الحضاري وهذا بحث له مقام آخر.

ومع أن سنن الحضارات لا تفاجئ المفكر المراقب والناقد المتتبع لقراراتها حين تتخذها لإسقاط حضارة وقيام أخرى، ولاسيما عند ذوي الحس المرهف المستقرأ من التجربة التاريخية، لأن بين الحضارة الذاهبة الآفلة والحضارة الآتية القادمة لاستئناف رسالتها، أو تجديد ذاتها، شيء من التصادم الصارخ الذي هو بمثابة القرار المعلن عنه بالاستقالة والاستيلاء، وإن كان الأمر يبدو في شكل انقلاب عسكري، حيث يبدو ضعف الإرادة ثم ضعف الإبداع المعرفي، والأداء السياسي والاقتصادي النخبوي والشعبي في الأمة أو الشعب المستقيل، بينما تبدو قوة الإرادة في الأمة أو الشعب المستولي، ثم تتسلل قوة الإرادة إلى قطاعات الحياة الأخرى، هذا ما تثبته تجربة نهاية تاريخ الأمة الإسلامية الفعلي، حين أعقبها استيلاء الغرب على زمام أمر البشرية، كما تبيّنه سنن نهاية تاريخ الاتحاد السوفييتي الفعلي المعاصر، الذي أعقبه النظام الدولي الجديد، الذي سرعان ما تعولم، ثم أتى عليه شيء من التدهور مازال يستفحل ويتواصل مما يعني أنه تجري عليه سنن مآل التداول الحضاري نحو غيره، ومن يواصل استقراء التاريخ يتواصل عطاؤه له من خلال تجاربه، مثلما سيعرف هذا بشيء من التفصيل عند دراسة سنن التداول الحضاري بين الأمم القديمة وشعوبها بتأريخ،لا بالتاريخ،من خبره بل من استقرائه.

- **التأريخ**: قد لا يكون فرق كبير بين التاريخ والتأريخ إلا من حيث أن لفظ التأريخ فيه ما يفيد استنطاق ما استبطن من خبر التاريخ وتدثر، لكن ما هو مقرر أن التاريخ يعني التدوين، والتأريخ يعني الاستنطاق والاستقراء، فكأن التاريخ تسجيل والتأريخ استقراء، والسنن تعرف وتكتشف من خلال منهج التأريخ، وإن دوّنها التاريخ، وحفظها للتأريخ وكأنها وظيفة يتعاونان عليها كل من منظوره، وإن شاركتهما وسائل أخرى من تجارب كمناهج التاريخ في تعليل صناعاته من خلال الاستقراء ذاته ومرادفاته.

- **الاستقراء** : أصبح يفهم من سياق استعمال مصطلح الاستقراء معنى المنهج الذي يعتمده الفكر التاريخي في اكتشاف سنن الحضارات الحيادية الثابتة المطردة في المجالات التاريخية، والتي تحكم الحياة والكون والأنفس والآفاق .

فاكتشاف السنن يعني التوصل إلى الدليل الذي يبيّن أن الحق يتأتى من استقراء التاريخ والواقع وآيات الأنفس والآفاق، ولذا أصبح الاستقراء منهجا يعزى إليه الإنجاز في تحقيق الإبداع الحضاري الذي لا ينطلق من فراغ كما قد يتوهم، وتشبه الموازنة في العلاقة بين التاريخ والتأريخ والاستقراء من خلفه أو إلى جانبه الموازنة بين الشريعة والفقه الذي هو ما يستنبط من نصوصها، ولعل هذا ما حبذ مصطلح الفقه الحضاري[1]، حيث لا يحقق التاريخ نتائجه، ولاسيما التربوية منها إلا بحسن التعامل مع أخباره بفلسفته أحسن فلسفة، واستقراء تأويلاته أحسن تأويل، وهذا مما يؤسس مسوغات مناهج قراءة التاريخ وفق خصائص السنن ومنطق التوازن وتلمس الوسطية بين الفرد والجماعة وبين القديم والمعاصر وبين والاتباع والإبداع والتقليد والتجديد، وقابلية كل من هذا وذاك للاستقراء.

- **استقراء التاريخ**: كثيرة هي الدراسات التي تتحدث عن التاريخ، وتحثّ على أهميته ولكن قليلا من يتحدث في أهمية حسن قراءاته، وتعليلات أحداثه، ومحاولات البحث في عوامل صناعتها، ومع أن القرآن الكريم كثيرا ما يلفت نظر الإنسان إلى أهمية تعليل التاريخ واستقرائه، لاكتشاف سننه قصد استنتاج تجارب الآخرين منه وأثرها في توجيه حياة الشعوب والأمم نحو التحضر، مثلما في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[2] ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾[3]

---

١ – بهاء الدين الأميري.

٢– سورة يوسف، جزء من الآية ١١١.

٣– سورة العنكبوت، جزء من الآية ٤٣.

فهدف القص،كما تقرره هذه الآية ومثيلاتها، العبرة وهي الحقيقة التي لم تستقرأ بقدر كاف في القرآن الكريم لتستخرج مقاصده وهي ذات أهمية في اكتشاف السنن من حياة الشعوب والأمم، لم تفصح عنها لعدم استنطاق فلسفة التاريخ وتفسيراته حق استنطاق ومثل التعامل مع مصطلح العبرة ومصطلح النظر المدعو لاستخدامه حين السير في الأرض، والذي هو الآخر مثله كمثل مصطلحات كثيرة تحملها خواتم آيات قرآنية، مثل «لعلكم تعقلون» «لعلكم تتقون»،«لعلكم تفلحون»، «لعلكم تتفكرون»، «لعلكم تذكرون»، «لعلكم تهتدون»،«لعلكم توقنون» وغيرها .

وأعتقد أن مقاصد القرآن الكريم[١] في قص القصص وضرب المثل وإيتاء الحكمة، وإن لم تفصح الدراسات التاريخية عن كثير من إجراءاتها العملية لاشتغالها بالخبر، وحرصها على تسجيله ونقله أكثر من حرصها على تحليله وتعليله، ومحاولة استقرائه، ومع ما ظهر من اهتمام حديث في مجال ما أصبح يسمى فلسفة التاريخ[٢]، أو التفسير الإسلامي للتاريخ[٣]، أو فقه التاريخ[٤]، إلا أن هذا الاهتمام الذي يتوكل عليه في اكتشاف السنن قد تكون مازالت له المنزلة الثانية في اهتمامات الفكر التاريخي مثلما لم تتوسع دائرة الاهتمام به .

ومع أن فلسفة التاريخ في جو الفكر الإسلامي الحديث تعلق على دراسات الفكر الحضاري آمالا في تحقيق مقاصد تربوية كاستهداف نهضة الأمة العربية الإسلامية وتجديد حضارتها وترشيد حضارة الآخر، حين يتضح أن التاريخ ليس مجرد سرد أحداث، وإنما طلب دراسة القصص، بمعنى قصه، ودراسة المثل، بمعنى ضربه، وفي لفظ القص والضرب تبدو معاني

١ - حسن البنا: مقاصد القرآن.

٢- أنظر الدكتور أحمد محمود صبحي: دار النهضة العربية.

٣- أنظر الدكتور عماد الدين خليل: دار العلم للملايين، بيروت.

٤- عبد الحليم عويس: دار الصحوة، القاهرة، ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م.

كبيرة، تحتاج إلى دراسات تستقرئها لتخرج مدلولاتها وحكمة صيغها في لفظ «القص والضرب» حتى تخرج الدراسات التاريخية من أساليب السرد والوصف إلى ما سواها، ولعلها هي من العوامل التي أقعدت الدرس التاريخي دون طرق مسائل السنن واكتشافها، وعطلت الاستفادة من التاريخ بقدر كاف، ولاسيما على المستوى استقراء تاريخ حضارات الأمم الغابرة، والاعتبار بها ومنها، واتخاذ تجاربها سبل تفقه في السنن .

ولعل علماء الحديث أصابوا الحقيقة أكثر من المؤرخين، حين تناولوا أخبار الماضي من خلال منهج الرواية الذي يؤدي وظيفة العنعنة، والربط بين حلقاتها ثم أدخلوا عليه منهج الجرح والتعديل، وهو منهج نقدي تعليلي رائد من دون منازع، لا يسلّم بالخبر ببداهة، ويتلقاه عن الآخر براءة.

أما منهج الدراية الذي اعتبره علماء الحديث علما، فقد أوكلت له مهمة التعامل مع الخبر بنية الشك أو التهمة حتى تثبت براءته، وهنا يدخل علماء الدراية الخبر التاريخي غرفة التحقيق والاستنطاق والاستقراء، وإن عادوا ليعدّلوا الخبر، ويسترجعوا له اعتبار ما قد فقده أثناء التحقيق، وهنا تبدو مسؤولية منهج الجرح والتعديل التي تظهر في معنى ما قد يطلق عليه النقد المسؤول الذي ينسخ الفكرة، ثم يقترح البديل عنها، فيأتي بمثلها أو بخير منها .

والسؤال الذي يسأل لماذا لم يستفد النقاد والمؤرخون من منهج المحدثين في الجرح والتعديل استفادة كافية؟ والتي لو تمت لاستنطق النص التاريخي ولأباح لمنهج الجرح والتعديل بما لا يباح به لغيره، لعدم اقتداره على استنطاقه واستقرائه، الوظيفة الموكولة المؤجلة إلى انتظار تأسيس علم السنن، وحينئذ تتحقق مقاصد كثيرة من دراسة تاريخ الأمة الإسلامية وتاريخ البشرية عامة وفلسفاته وتفسيراته، لاسيما وأن التاريخ من حين لآخر يدور دوراته، لتشبه الليلة البارحة واليوم الأمس، حيث تكرر الشعوب والأمم

أخطاء أسلافها لعدم الاعتبار بقدر كاف، ولعل هذا ما قصده القرآن في قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[1]، ومن معنى هذه الآية تعرف مقاصد القرآن الكريم، منها إرادة الله في بيان السنن وهدايته للذين من قبل، ومثل من قبل كمثل من بعد غير محددة البداية ولا النهاية، بل سرمدية أبدية.

والذي يهم هنا أكثر ويجب توكيده أنه مضت في الذين سبقوا سنن بمعنى طرق ومناهج هدوا إليها بتوجيه الوحي وبفضل العقل فعرفوا من خلالها الحق فأخذوا به حينا وانصرفوا عنه حينا آخر، ومن ثمة كان الإبداع الحضاري وتدهوره، ولعل هذا ما أدى إلى نشوء القول بالدورة التاريخية والتعاقب الحضاري، ومادامت البشرية والأمة الإسلامية ضمنها لم تستطع تجنب الأخطاء التاريخية التي أوقعت سلفها في سنن مآل السقوط الحضاري، فإن البشرية ليس لها دائما موقف صحيح في التعامل مع التاريخ، ولم تحسن دائما استقراءه لعدم التزامها سنن قيام الحضارات وتجددها، ولعدم تجنبها سقوطها وأخذها بتداولها بين الشعوب والأمم .

ولذا يظل الأمر موكولا إلى حسن استقراء التاريخ قراءة سليمة وفق منطق منهج الوسطية والتوازن وحسن الأخذ بالسنن حين اقتضاء الأخذ وحسن التجنب حين توافر دواعيه، وإلا جرى على الأمم الحاضرة ما جرى على الأمم السابقة ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[2].

فالآية الكريمة تضع أمام كفار قريش،ومن خلالهم البشرية كلها،خيارين مشروطين هما إما «إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف» وإما «وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين»، حيث تجري سنة الله في الآخرين مثلما جرت في

١- سورة النساء، الأية٢٦ .

٢- سورة الأنفال، الآية ٣٨.

الأولين، وهذا لا يعني أن قراءة تجارب السابقين من خلال السنن تعصم من الخطأ، وإنما القصد أنها تفيد في الصواب، ولذا بات التاريخ في حس بعض فلاسفته المعاصرين، ومفسريه من أهم وسائل إدراك سنن الله في الوجود، وتسخيرها لتحقيق مقاصد المشروع الحضاري المرتقب ولكن بشرط الاعتبار والإفادة من التجارب التاريخية.

- **الاعتبار**: قد يكون من معاني الاعتبار مقارنة الشيء بمثله، والموازنة بينهما من خلال تجربة التاريخ والواقع، ليعرف أن حكمه حكم ما سبقه وما حوله، لأن ما عمله الإنسان اللاحق يشبه ما عمله الذي سبقه، وبهذا تشابهت أعمال الأمم فتماثلت، فجرى على الخلف ما جرى على سلفه.

من هنا تبدأ وظيفة الاعتبار التربوية تؤدي عملها في بناء الترغيب والترهيب والتطور والازدهار والتحسين والتجميل، ليرى الإنسان نتائج أعماله فتقتدى سير الصالحين وتتجنب سير الآخرين وكلاهما جرى وفق سنن الهدى وسنن الضلال، لأن قصد الاعتبار إدراك السنن بصنفيها - سنن مآل السقوط الحضاري وسنن ازدهاره-، وكلا الصنفين فيهما عدل يسوي بين الحاضر وبين نظيريه الماضي والمستقبل، وهذا يقتضي القول إن أحكام السنن جارية في الأمور المتشابهة.

ومن هنا تبدو حكمة دراسة الأشباه والنظائر .لذا، فإذا أوكلت للتاريخ مهمة نقل الخبر فقد أوكلت لفلسته وظيفة الاعتبار، حتى لا يتلقى الباحث والقارئ الخبر مجردا جامدا، هذا ولعل الباحث تسعفه فلسفة التاريخ في دخول تجارب الآخرين الماضية أكثر مما تسعفه مادة التاريخ المجردة من كل مؤثرات بيئات يومئذ، لأن فلسفة التاريخ تُرِي الباحث كيف صنعت الأحداث التاريخية، وكيف أثّرت وتأثرت، مما يؤهله للحكم على صيرورة التاريخ من حيث عوامل استحداثها ومساراتها ومقاصدها ومآلاتها، وهذا ما يوسع مدركات الإنسان، ويشعره أنه أصبح أكثر خبرة، وأعمق فكرا، وأشد

اعتبارا، فيخرج من دائرة تجربته الذاتية إلى دائرة التجربة الجماعية الواسعة، ومن هنا فضرورة الاعتبار قائمة إلى الأبد، تؤدي وظيفتها إلى جانب وظائف وسائل التاريخ الأخرى وهي كثيرة.

- **الاتعاظ**: قد لا يبتعد معنى الوعظ كثيرا عن معنى الاعتبار، إلا أن الاعتبار قد يكون خطابه فكريا، قصده تنبيه العقل، وإن تجردت روحه من هذا الانتماء حينما يحمله لفظ العبرة بدل الاعتبار، أما لفظ الوعظ فإن ميدان خطابه العاطفة، فتكون مؤثراته وجدانية أكثر منها عقلية.

ومن منطلق الاعتبار والاتعاظ، تأسست الرؤية العقلية والعاطفية في قراءة التاريخ، حينما استعطفت وقائعه الباحث، فتوجهه نحو مقاصد الاستعطاف على الآخر وربما الانحياز له، أما حين يحاجه منطقها فإنها تقنعه بالسير نحو مقاصدها سيرا عقليا .

- **الفكر وأدواته**: البحث في أفكار السنن لا يدعي استحداث ذاته من عدم، وإنما سبق تناوله في تجربة الحضارة العربية الإسلامية وربما في غيرها كاستجابة لأمر القرآن الكريم بالتفكر والنظر في سير الأولين، مما كوّن لدى المفسرين البدايات الأولى للاهتمام بمحاولات اكتشاف السنن، ولو من خلال محاولة دراسة الأسباب ومسبباتها، والعلل ومعلولاتها، والعوامل ومعمولاتها.

ولعل في بحث السنن ومحاولات بناء نظرياتها ما يستدرك على اهتمامات قدماء علماء الحضارة العربية الإسلامية، ولو من باب الاستثناء من قاعدة ما ترك الأولون للآخرين ما يقولون، فالسنن في الفكر الإسلامي الحديث قد تكون واحدة من الاستثناءات التي تركها الأولون للآخرين، ولذا مازالت أبحاث السنن تستفتح بداياتها بالتعريف بالسنن، من حيث اللغة والمصطلح، مع أن دراسة السنن ينبغي أن يتعرض لها من باب ما لا يدرك كله لا يترك جله، لأن السنن كصخرة عظمى في بحر لجي يكسوها ماء لا يظهر منها إلا جزء يسير، أو مثلها كمثل سفينة تمخر عباب مياه بحر،

تطفو مرات، وتختفي أخرى، فالسنن تعيش بين مد وجزر من خلال نقص الاهتمام بها الذي يخرجها إلى حيز الوجود، ودائرة نور الشمس، ثم حين يتخلى عنها حتى تكاد تختفي وتنسى.

ولهذا حين يشتد الاهتمام بمفهوم السنن ويبدأ إدراك معانيه وأفكار نظرياته يمكن الحكم على دراسة السنن أنها دخلت مرحلة الوعي بضرورته في قيام الحضارات وتجددها وازدهارها وتداولها، هذه المصطلحات الحضارية تعبّر عن حالات تَحَوُّل في مستويات حياة الشعوب والأمم الحضارية لها سننها التي تطرد ولاتتخلف.

بل قد يكون في بحث السنن ما يفاجئ المهتم المعاصر بها، حينما يعرف أن من العلماء من اهتم بالسنن الخارقة، مثل الكرامات التي كان أكثرها استدراجات أكثر من اهتمامه بالسنن العادية التي تصنع تحولات الحضارات نحو مآل التراجع ثم السقوط أو نحو مآل القيام ثم الازدهار، حيث ذهب مفكرون يستدعون أحداث آراء تاريخية، ويحللون واقع الأمة من خلالها، عندما استخدمت أفكار فرق إسلامية كالأشاعرة والجبرية والخوارج والمعتزلة مرات أخرى من أجل توكيد مسائل، مثل أن اللّه هو الفاعل الحقيقي والإنسان فاعل مجازي، ومن هنا فليست النار هي التي تحرق وإنما اللّه هو الذي يحرق، وأن ما أصاب الأمة من شر لا خير بعده، وأن احتلال أقطار العالم الإسلامي قضاء وقدر من حسن الإيمان أن يواجه بالصبر على ابتلاءاته والاستغاثة باللّه ليفرج همومه حين يشاء وقد بذل ابن باديس جهدا عظيما في هذا الميدان لإقناع الشعب الجزائري أن الاحتلال الفرنسي ليس قضاء وقدراً وإنما هو ظلم يجب أن يقاوم.

وقد تزامن هذا مع دعوة داهمت الأمة الإسلامية ترى ضرورة غلق باب الاجتهاد هو الآخر، وفي جدلية القول هل ما يجري من أفعال اللّه أم من أفعال العباد؟ ومما تكدس من أقوال هذه المسائل وأفكارها انقدح نور فجر

جديد، ذهب يتلمس طريقه نحو الحضارة من أجل التحضر فوجد أنه في الأخذ بالسنن والالتزام بها لاستئناف الأمة الإسلامية دورها الحضاري الثاني، ومن هنا تأسست الدعوة إلى التزام السنن ضرورة للتحضر، ولكن المرحلة اقتضت تعريف السنن والحث على وعيها قبل دعوة الالتزام بها ليلا يدعى إلى الالتزام بمجهول.

ولذا مازال يشكل الاهتمام بدراسة السنن تيار الوعي بها، فراح مفكرون يتلمسون سبل الخروج من التردي من خلال السنن، حين اكتشفوها علما حديثا، لم يسبق التعرف عليه.

ويستطيع بحث الفكر توسيع الاهتمام بأدواته وجردها في قائمة منه، ولكن من طبيعة بدايات البحث أن تكتفي بالقليل ليعمّق اللاحق ما بدأه السابق ويوسع فيه لينشره على أوسع مساحة خريطة ممكنة، وقد تظل الدراسات الفكرية وصفية تحليلية، لا تقدم وتؤخر إن لم تفعّل آلياته وتكوّن أدواته والتي منها:

- **التفكر**: إذا كان الفكر مصدرا مطلقا، فإن التفكر استخدام ذو فعالية آلية من أجل الإبداع الحضاري للوصول إلى نتيجة وتحقيق هدف بل أهداف، ومن هنا كان التفكر أداة من أدوات الفكر، وجزءا من مادة اشتقاقه هدفه استخراج مصطلح السنن ومفهومه من مصادره المعرفية والتعرف على أداءاته والوعي به ليؤدي وظيفته.

هذه الوظيفة المنوطة بالفكر محلها العقل والذي لولاه ما استطاع الإنسان أداء وظيفة في الوجود، ولاسيما على مستوى الإبداع المعرفي الحضاري الذي منه اكتشاف سنن تحولات الشعوب والأمم نحو مستويات من الازدهار الحضاري الإيديولوجي والتكنولوجي بمقتضى سنن تسمى سنن الازدهار الحضاري، وفي نقطة انطلاق الإبداع الحضاري ذاتها تكتشف سنن أخرى تسير في الاتجاه المعاكس، حيث تقود الإنسان وفق

إرادته نحو مآل الانهيار الحضاري ثم التخلف، فالسنن تحكم الإنسان من خلال سلوكياته وأعماله نحو الغايتين في الاتجاهين المختلفين، حيث لكل أداء إنساني سنن تحمّله مسؤولية في الحياة ليستحق جزاءات وعقوبات سلوكياته وأعماله، وهذا ما تسعى هذه الدراسة إلى اكتشافه وتشخيصه، ثم تحسيس الإنسان به عند إصدار قراراته العملية السلوكية والفعلية، حتى لا يظن أنه يعمل في غفلة من مراقبة أحكام قضاء السنن المطردة العادلة التي لا تتخلف في إصدار أحكامها.

- **التذكر**: إن التذكر هو استدعاء ما فات الإنسان من أخبار ووقائع وذكريات لمقاصد يستهدفها، قد يكون فيها ما يحقق أغراضه الثقافية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية، ولكن هنا يستخدم التذكر من أجل استدعاء ما يستطيع الإنسان استدعاءه من تجارب حضارات الأمم، وأين أصابت، وأين أخفقت، ذلك لأن أعمال الإنسان بما لها وما عليها تحكمها سنن، وهذا هو غرض التذكر الأساس الذي من أجله استعمل أداة من أدوات الفكر، تستدعى من خلالها ذكريات الماضي لتفحص قصد التعرف على سنن نجاحات الشعوب والأمم، وسنن فشلها، وبمعنى آخر من أجل التعرف على سنن مآلات التحضر وازدهاراته، وسنن انهيار الحضارات وسقوطها وسنن تداولها.

- **التأمل**: يمكن القول إن التأمل مشتق من حروف الأمل وهو ما يتمنى الوصول إليه ولو من غير جد ولا كد، وإن حسب الفلاسفة التأمل من الاستخدامات العقلية، وأعدوه أداة من الأدوات التي يصل الإنسان من خلالها إلى تحقيق مقاصده، فإنه عندما تحوّر حروف مادته فيصبح التأمل أملا، فيدخل ضمن الخطاب العاطفي الذي محله ومنطلقه الوجدان، فتصبح أداة الأمل عاطفة تسير إلى جانب أداة التأمل العقلية فيما يشبه التسابق في السرعة والتفاوت في التأثر والتأثير، ومن هنا تختلف الأداتان من حيث المنطلق والأداء وإن اتفقنا في الحروف وفي المقاصد كل من بابه وبصفته.

والذي يهم أكثر من التأمل والأمل هو أداؤهما، لأن الأمل لم يعتمد أداة تستخدم لاكتشاف السنن باعتبار أنه استخدام عاطفي، والعاطفة ليس من وظائفها أداء وظائف العقل وإن استخدمت في الإبداع الأدبي، بل حين تلف العقل وتغلّف أداءه فإنها تعطّل نشاطه وتوقف صرامة أداء وظيفته، أما العقل حين ينازع العاطفة فإنه قد يفتك منها وظيفتها ويبطل من مفعولها، وقد تغالبه العاطفة، فيسيران في تواز بينهما فيتقاسمان وظيفة الإنسان العامة فيحتفظ كل منهما بجانب منها .

ومن هنا فإن الذي يعتمد أداة من أدوات الفكر ومصدرا من مصادر استقراء مفهوم السنن هو التأمل العقلي وليس الأمل العاطفي، وهنا يسأل سؤال قد يظل جوابه معلقا أو مفتوحا أمام أهله، هو أيهما أشد أثرا في أعمال الإنسان وسلوكياته، وأقوى أداء في حياته: العقل أم العاطفة؟ ومن جواب هذا السؤال يعرف أيهما أنيط به التكليف الحضاري الذي من مقتضياته اكتشاف السنن في مصادرها، هل هو التأمل أم الأمل؟ ومن الجواب يعرف أن اكتشاف السنن من مهام العقل ليكون التأمل أداة من أدواته، وحينئذ يعرف أن الأمل مجرد خواطر، قد لا تبرح مكانها، ولا تستطيع الخروج من ذاتها، وأن العقل وأدوات إنتاجه كالتأمل هو الأصل المعتمد لدى الإنسان في أكثر أجزاء وظيفته في الحياة، ومنها وظيفة التحضر، فهو المسؤول عن أعمال الإنسان وسلوكياته، بما لها وبما عليها، وبمقتضى أدائه يعاقب الإنسان و يجزى.

- **التدبر**: إن سنة الخروج من الأزمة هي تقوى الله، وهذا وعد حق من الله لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1] والتقوى من الإيمان، والنصر وعد من الله وفق أسباب سنن موجباته، حين الأخذ بها، وقد يرى آخرون المخرج من الأزمة في وسائل أخرى، كالاستعانة بآخرين من أهل

١- سورة الروم من الآية:٤٧.

السلطان أو المال أو الرأي للنقل من تجاربه في ميدان ما أو ميادين كثيرة.

ولعل الرؤية الأقوى في الخروج من الأزمة التي قد تكون أزمة حضارية، مثلما هي عليه الأمة الإسلامية، تكمن في استفزاز قدرة الإنسان الذاتية المعرفية والعقلية والعاطفية والبدنية وحسن تربيته على استخدامها، لأن اكتشاف المخرج يعني اكتشاف سننه، أي سنن خروج الإنسان من ضائقته حينما تكون الأزمة فردية نفسية أو اجتماعية أو اقتصادية، ثم قد تكون الضائقة أزمة أمة عامة، تكمن في فشل أداءات أفرادها، أو في أداءات جملة منهم لانهيار هممهم وعزائمهم.

ومادام قد يتفق على أن أزمة حضارة الأمة الإسلامية أزمة فكرية، بمعنى عجز العقل عن أداء وظيفته، وتدبر أمره، فإن المخرج في جواب أسئلة عرفت بأسئلة النهضة، ومنها كيف الخروج من الأزمة؟ وكيف تحلّ مشكلاتها؟ وبمعنى آخر هل من سبيل إلى اكتشاف سنن الخروج من أزمة الأمة الإسلامية الحضارية؟ ثم خروج البشرية من أزمتها هي الأخرى من خلال التزام سنن قد تسمى سنن الاستدراك الحضاري التي من المتفق عليه أنها تسكن عقل الإنسان وعاطفته، ثم تبث من خلالهما في سلوكياته فيبدو فيما يترجمه من أقوال إلى أعمال ثم من نظرية إلى تطبيق، ومن هنا كان التدبر أداة من أدوات الفكر في تعاملاته مع سنن الحضارات من حيثياتها كلها كالقيام والسقوط والتجدد والتداول وسواها من مقاصد فعل السنن في الحضارة والالتزام بمقتضياتها.

- **الكون ومفرداته**: لقد ذكر القرآن الكريم لفظ السنن في نحو ست عشرة آية ضمن عشر سور منه، ودعا إلى اكتشافها في الكون ومفرداته بما لا يقدر بعدد ولو من غير ذكرها بألفاظها أو بمرادفاتها والتدليل عليها في مواطنها تدليلا، غير أن بعض الباحثين تناولوا السنن في القرآن، وبحثوا في خصوصياتها، وجادلوا في تعريفاتها، وأعدوا دراسات من أجل تحقيق

غاياتها، ولكن لم يعبؤوا بالسنن في الكون ومفرداته بقدر كاف يؤهل دراسات إلى التحكم في مفهومها وأداءاته إلا قليلا، مع أن سنن الكون أكثر وأقوى من سنن القرآن، ومنها السنن الجبرية التي تعد محضن الاكتشاف العلمي واختراعاته حتى ولو شاع لفظ الناموس من بين مرادفات مصطلح السنن في هذا الميدان وكأنه ناب عنه في استعمالاته، ولذا فإن الذين درسوا الكون وبعض مفرداته كالفلكيين والفيزيائيين مارسوا السنن إجراءات عملية وحقائق تطبيقية لا دراسات نظرية معرفية ثقافية ولاسيما السنن الجبرية.

لقد ظهرت دراسات تدعو إلى قراءة الوجود من خلال الكتابين القرآن والكون، وليس هنا مجال تفصيل درس هذه القراءة، وإنما المجال مجال كيف ينبغي أن تبحث السنن في الكون، ويتعرف على أداءاتها فيه؟ ومن الإجابة على هذا السؤال تتجلى أجزاء من السنن الكونية، أو السنن في الكون ومفرداته التي منها يسأل سؤال آخر هو كيف تكتشف السنن في الكون ومفرداته؟ وما هي آليات التعرف عليها؟ وكيف تستزاد الاستفادة منها أكثر؟ لأنه قد لا يستحق البحث في نظرية السنن وما ينبغي أن تكون عليه؟ وما مقوماتها وما صفاتها بقدر ما يستحق أمر الاستفادة من السنن ممارسة وتطبيقا؟ ولاسيما الحضارة القائمة التي هي حضارة أشياء وماديات أكثر من كونها حضارة قيم ومبادئ .

ولعل مدخل البحث في حقيقة السنن الكونية أو السنن الجبرية الإشارة إلى طبيعة الكون ذاتها، وكيف نشأ؟ وكيف أنشئت مفرداته؟ وهل في الإجابة ما يهيئ البحث للغوص في السنن الكونية من أجل الوقوف عليها، والإمساك بها، وقد بث فيه بثا، ونسقت بين مفرداته تنسيقا منذ رفعت السماء ووضع الميزان وسبق الليل النهار ولم تدرك الشمس القمر، وإنما كل في فلك يسبح ويجري إلى أجل مسمى.

ولذا،فإذا كانت كل آية قرآنية قانونا أي سنة، فإن كل كائنات الكون،

أي مفرداته من الذرة إلى المجرة، تديرها سنة من سنن الوجود وتضبط أداء وظيفتها فلا تخرج عن مجراها، وهذا هو الذي فهمه علماء الحضارة العربية الإسلامية الأوائل، فأبدعوا واخترعوا واكتشفوا وفق منطق الإبداع في رحاب الإيمان وفي ظلال القرآن، أما علماء الحضارة الغربية فقد بدا لهم أن الكون ومفرداته غير مسخر، فأعلنوا الصراع مع الطبيعة، ورفعوا شعاراته وأدخلوا في القاموس اللغوي مصطلحات استهجنها الحس اللغوي العربي الإسلامي وعافها مثل جملة غضب الطبيعة، ومصادفات القدر وسخرية القدر وتعاسة الحظ ولو أن هؤلاء سلكوا مسالك السنن وطاوعوها في إبداعاتهم واختراعاتهم لكان خيرا لهم، لأن سنن الله في الكون والطبيعة والحياة غلابة لن يصارعها أحد إلا غلبته، ولكن ما حققوه من اختراع مادي نتج عن ما طاوعوها فيه وتوافقوا عليه من اعتماد السنن وسيلة فسايروا تيارها، لأن السنن بقدر ما تصيب في التعامل بقدر ما تعطيك إلا حين الاستدراج والابتلاء فإنه استثناء من دائرة قاعدة السنن العادية وربما الجبرية إلى دائرة قاعدة السنن الخارقة.

ومن هنا ينبغي دراسة الطبيعة والكون ومفرداته من خلال مفهوم السنن ولاسيما الجبري من منظور الرؤية الإسلامية، والبحث في خصوصيات السنن وكيفيات الأخذ بها بعد دراسة الظواهر الكونية، وكيف حدثت وتحدث؟ وكيف الاستفادة منها؟ حيث لم تحدث تلقائيا ولا عشوائيا بالصدفة كما يزعمون، وإنما تحدث وفق منطق قانون هو سنة من سنن الكون التي نتناولها ونسعى إلى التعرف عليها، مثل قانون الجاذبية الذي لم يرد مكتشفه إسحاق نيوتن التنظير له عن طريق التعريف به، وإنما طاوعه، فاستخدمه في أهم ميادين التكنولوجيا، مثل الطيران، بينما ربما ذهب آخرون من قبله من حضارات أخرى ينظرون للجاذبية، ويبحثون في جواب لسؤال فيها لماذا؟ بينما ذهب آخرون في جواب سؤالها كيف؟ فأضل أولئك السبيل واهتدى هؤلاء إليه اهتداء لم يسبقوا إليه من قبل، لأن سؤال

لماذا حدثت الجاذبية لم يوصل إلى حقيقة علمية عملية، بينما سؤال كيف؟ يبين كيفيات استخدام الجاذبية، وكيفيات الإفادة منها، وهنا افترقت الرؤية، حيث الأولى فلسفية نظرية ميتافيزيقية لا يبنى عليها عمل والثانية علمية بني عليها عمل واستثمار واستخدام، ومازالت العلاقة بين الرؤيتين تصيب وتخطئ فإن أخطأت إحداهما استدركت عليها الأخرى وكأنهما يتعاونان على خدمة الحقيقة من منظورين مختلفين، لأن الإجابة عن سؤال لماذا لها فضلها في ميدان آخر قد لا يقل عن فضل إجابة سؤال كيف الذي تكفلت الرؤية الثانية بالإجابة عنه فأتى نتائجه في قانون الجاذبية، ومثله وإن بدا ضياع جزء من الحقيقة بين الرؤيتين، وإن كان الذي ضاع من الرؤية النظرية الفلسفية أكثر من الذي ضاع من الرؤية العملية العلمية، ومن الضرورة بعد أن سار البحث خطوات وقطع مراحل، جاء بحث رؤية أخرى بمواصفات أخرى، قد تكون هي موضوع مفهوم السنن بمواصفاتها التي لا تنفصم عن الإيمان بالغيب الذي ربما أعرضت الرؤية الفلسفية عنه فانفصمت رؤى أخرى من منطلق الغيب حتى ربما أنكرت منشئ الكون ومجري مفرداته لأنه لم يكن ثمّ اهتمام بالسنن الخارقة، وهي حقيقة واسعة الانتشار ولاسيما بين أهل الإيمان بالغيب وقد أدت دورا كبيرا في التاريخ ومازالت مرشحة لتؤدي آخرا مثله أو أقوى منه.

وحتى القوانين العلمية كانت يوما من التاريخ غيبا قبل اكتشافها والتحكم في التعامل معها ومنها قانون الجاذبية قبل أن يطبق في تعاملاته بين الرؤية العلمية العملية، ومثله قوانين أخرى فلكية وفيزيائية وكيميائية، ومثل قانون الكهرباء بل قوانين الكهرباء التي مازالت تستخدمها الرؤية العملية العلمية في تسيير آلات المصانع، ووسائل المواصلات، والتسخين والتبريد والإنارة وغيرها، ثم اكتشفت قوانين أخرى، أو سنن في الطبيعة والكون، مثل قانون التعقيم الذي يستخدم في نظافة المأكولات والمشروبات والأدوات الطبية ولاسيما الجراحية للوقاية من شر الأمراض، ومن أجل تحسين مستوى

الصحة الذي مازال عطاؤه مستمرا يبدع فيه كل حين بقدر الاستفادة من خدمات سنن تسخير الكون ومفرداته فيما ينفع الإنسان ويضره حين انحراف سنن التسخير عن مسارها، لأن فيها القابلية لازدواجية أداء وظيفتها، بحكم منطق قاعدة سنن الوجود، حيث ليس هناك خير مطلق ولا شر مطلق وإنما نسبية الأشياء التي فصل القول فيها لصالح الإنسان، الذي سخرت له مفردات الكون وفق رغبة إرادته فاستخدمها كيف شاء وحيث شاء ومتى شاء، فالسنن مطلقة ولكن يخرج الإنسان عنها بين حين وآخر، ومن هنا اختلف تعامله مع مفردات الكون مع قابليتها التسخير له، فكان أن حقق من خلالها ما أسعده إلى جانب تحقيقه ما أشقاه وليس اللوم على السنن وإنما على تربية الإنسان وتصوره.

ومن هذا المنطلق، تتدخل الرؤية الإسلامية لتحسن تعامل الإنسان مع مفردات الكون وتوجه أداءاته نحو غايات إنسانية لضرورة الاستدراك ومن أجل تحقيق ما خلق الإنسان له، وهو ما ينبغي أن يبدع بمقتضاه لما نص عليه القرآن الكريم وأثبتته التجربة، لأن ما يعرف بمفردات الكون كالكواكب والنجوم والجبال والماء والشجر والدواب هي مفاتيح أبواب معارف علوم مما لا يحصى عددا ولو تعطلت فيها آلات الإبداع الحضاري العربي الإسلامي لأسباب منها: الاستغراق في البحث عن جواب سؤال لماذا؟ بدلا من البحث عن جواب كيف؟.

وأعتقد أن هذا انحراف أخرج آلة الإبداع الحضاري العربي الإسلامي عن خطه حين أنشأ جدلية الفلسفة اليونانية التي دخلت جو العقل الإسلامي أيام المأمون يوم ترجم الفلسفة اليونانية وأغدق على مترجميها من غير رقابة ولا ضوابط، فكانت هذه تجربة انفتاح خاطئ جرّ على الأمة الإسلامية فتنا ولقنها خطأ أدى إلى كارثة ما شفيت الأمة من أثرها إلى اليوم، وإن حاول مفكروها ردّ قطار حضارتها إلى سكته إلا أن الأمر ظل أكبر من جد جدهم واجتهاد اجتهادهم، لاسيما حين تولى الإجابة عن سؤال كيف

آخرون فأبدعوا فيه وطاوعوا سنن موضوعاته فساروا على خط سكة قطاره، فكان القطار غير الذي كان ينبغي أن يسير عليه علماء الأمة الإسلامية ومفكروها المحدثون، فدال الدور الحضاري إلى الآخر الذي كان بإمكان الأمة الإسلامية أن تستمر عليه أكثر من الذي استمرت فتحافظ على مدة قيادة العالم وقتا أطول، ولكن حدث الذي حدث منذ اليوم الذي دق فيه علماء الأمة الإسلامية أبواب علوم كثيرة من منظور حضارتهم، ولاسيما وقد أسس علماء الأمة الإسلامية يومئذ بدايات واعدة في أكثر العلوم التي عرفوها والتي أسست عليها من وقتئذ الحضارة الغربية معارفها المعاصرة، مثل علم الفلك الذي تأسست عليه علوم الفيزياء، والسحر الذي كان أساس علوم الكيمياء، وخبرة زراعة الأرض ومعرفة مكوناتها التي هي أساس علم الجيولوجيا، ثم بنيت عليه علوم أخرى كعلم البيئة مثل هندسة البساتين التي برزت فيها هندسة حضارة الأندلس،إلى آخر ما وقف علماء الأمة الإسلامية ومفكروها على أبوابه من علوم وتهيأت لهم لولا أن صرفتهم عن ولوجها صروف ذكر بعضها، وهي التي فتح مؤسسو الحضارة الغربية من خلالها أبواب العلم الأخرى بدءا من اكتشاف سنن التسخير التي أبدعوا من خلالها في صمت لئلا يتعلّم عنهم آخرون.

وظاهرة كتمان العلم واحتكاره في الفكر الغربي ظاهرة واضحة حذر منها رسول الله ﷺ، ولذا استخدموا السنن وعرفوا الإفادة منها من غير حديث كإفادتهم من مفردات الكون خير استفادة فاهتدوا بالنجم في ظلمات البر والبحر وعرفوا الخطوط البرية والبحرية والجوية فخطوا طرقا وهمية حقيقية للملاحة سلكتها السيارات والقطارات والسفن والطائرات، وكان كأن لكل عالم من علماء الحضارة العربية الإسلامية تلميذه أو تلاميذه في الحضارة الغربية ولكن أكثر هؤلاء التلاميذ عاقون حين أنكرت إيديولوجية الغرب الاستفادة من الحضارة العربية الإسلامية إلا قليلا منهم.

ويبدو أن جملة الأمر بالسير في الأرض للنظر ماذا في السماء من خلال القرآن الكريم لم يكن لها هي الأخرى حظ وافر من مفسري القرآن يجلي حقيقتها ويوسع معانيها، لأن المعنى الذي يحسّ منها يبدو أكبر مما قيل فيها، وهو ما قد تكشفه الدراسات القرآنية القادمة ولاسيما من خلال دراسات سنن الإعجاز، مما يؤهل جملة أو آية: «سيروا في الأرض» لتعقب آثار التاريخ وبحث بقايا حضارات الأمم ودراسة تجاربها، حيث تدخل دراسة الآثار ضمن دراسة التجارب، فينفتح بعضها على بعض فتتعانق الدراسات نحو معنى أكبر قد يؤسس علما يكون من مقاصده اكتشاف السنن استجابة لدعوة القرآن الكريم في أكثر من موضع مثل: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾[1] .

ويتضح من خلال هذه الآية الحرص على إلزام المسلمين السير في الأرض، واتخاذ تاريخ الأمم دروسا، حتى لا يقع اللاحق فيما وقع فيه السابق من أخطاء ويصيب حيث أصاب سلفه، ولعل هذا مقصد من مقاصد تكرار دعوة القرآن الكريم إلى السير في الأرض . ومع تعلق «السير» بالمكان و«النظر» بالآفاق إلا أنهما يهدفان إلى حقيقة واحدة، قد تكون هي الاستدلال على مضي السنن في تاريخ البشرية وفعاليتها في شعوبه وأممه.

ولذا، فالأمة العربية الإسلامية مطالبة أكثر من غيرها بالتزام مصطلح السنن ودلالته ومفهومه وتوجيهاته بقصد التبصر بأحوال الأمم التاريخية، والاعتبار بشؤونها وهمومها لتحقيق الحضارة واتقاء سقوطها واستشراف مستقبل مآل تداولها، وهو من أهم ما ينبغي أن يحققه السير في الأرض والنظر في الآفاق، ويبدو هذا هو الآخر مقصداً أساساً من أجله تكرر الأمر بالسير والنظر، ولكن رغم تكرار هذا الأمر والدعوة إلى التفكر

١-سورة غافر، الآية:٢١.

في ميادين أخرى، مازال العقل البشري،لاسيما الإسلامي منه،لم يفقه أمر الله بضرورة السير في الأرض، والنظر في الآفاق، ولذا توقفت فعالية العقل في الإبداع الحضاري وفقد من وظيفته كثيرا فتكررت بعض أخطائه، ووصلت البشرية إلى تراجع حضاري مخيف على مستوى القيم والمبادئ، بل أصبح التمدن التكنولوجي يهدد الحضارة التي صنعته، لأن الأمر بالسير في الأرض، والنظر في عواقب الأمم لم يحقق مقاصده الأخلاقية والتربوية، حيث بات مجرد قصص يقص ومثل يضرب وذكرى تذكر، ولا يشكل عقلا مدركا لقوانين الوجود ونواميس الكون وسنن الحضارات، والأصل في السير في الأرض أن يكون بصائر للناس، وينشئ فكرا يستمد منها معارفه وأساليبه في فهم الواقع، ليتأكد أنه وسيلة وأداة تكشف السنن وتستخدمها في التعامل مع الذات والآخر، تعاملا يحق الحق ويبطل الباطل في عرض الأفكار ومناهجها من خلال التاريخ والواقع وسواهما من مصادر السنن .

وهذا أمر لا يتحقق من مجرد الحديث عن السير في الأرض والنظر في الآفاق ودراستهما، وإنما من خلال التزامهما ثقافة وسلوكا، مثلما هي تجربة القدماء الذين عرفوا من خلال السير في الأرض تضاريس الخرائط الجغرافية العالمية، ونهجوا مسالك التجارة ذهابا وإيابا، التي عليها تأسست طرق البر والبحر التي ربطت العلاقات بين الدول منذ كانت إلى أن كان العصر الحديث، فسار عليها الأوروبيون، وبنوا عليها إبداعات أخرى من غير أن تحفظ حقوق المؤلف الإسلامي المكتشف الذي له فضل فتح الآفاق أمام الذين جاءوا من بعده ولو من غير ملته.

- **الآفاق وفضاءاته**: لفظ الآفاق من الأفق والفوق، وهو ما يعلو الإنسان من جو يسبح الطير والطيران فيه بمقتضى منطق السنن وكل في فلك يسبحون، مما قد عرف الإنسان بعضه، واستنتج قوانينه حين رأى الطير مسخرات في جوف السماء والريش في مهب الرياح، فيتساءل، وقد يسأل من

الذي يمسك الطير ألا تقع؟ ومن الذي يجري السحاب الثقال فيسوقها إلى بلد ميت فينزلها غيثا نافعا؟ يبدأ البحث في التعرف على السنن من هذه الأسئلة ومثلها، ويذهب لاكتشافها واكتشاف مقوماتها وخصوصياتها إلى أن يتأكد أن الآفاق مصدر من مصادر السنن فيه تكتشف وفيه يتعرف على كيفيات استخدامها وأداءات وظائفها.

ولذا كان الفكر البشري في حاجة إلى اكتشاف السنن في الآفاق وفي غيرها من مصادرها، ومازال في الحاجة نفسها أو أشد للقيام بأعباء الاستخلاف وتعمير الأرض ولا يتم ذلك إلا بالسعي لتكوين نخب فكرية إسلامية متخصصة في البحث عن السنن وتحديدها في مصادرها حتى تكون استهدافا ومنهاجا تربويا تنشأ عليه الأجيال .

- **اكتشاف السنن في الآفاق**: إن وعد الله البشر ليطلعهم على آياته في الآفاق والأنفس يمثل وعدا مفعولا وحتما مقضيا إذا توافرت أسباب تحققه «سنريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم» «حتى يتبين لهم أنه الحق»، مع استصحاب ما قاله المفسرون في معنى الآفاق من أنه ما ظهر من نواحي الفلك وأطراف الأرض، وكذلك آفاق السماء ونواحيها[1] والأفق هو النامية من الأرض المتميزة عن غيرها والناحية من قبة السماء[2].

ولم ترد الآية في صيغة الماضي ولا صيغة تحتمل الزمن الحاضر فقط، ولم تأت في صيغة «أريناهم» أو «نريهم آياتنا»، ولكن جاءت الآية في صيغة «سنريهم» ولذا كلما تليت هذه الآية انفتح أفق جديد ينبئ بآيات جديدة في الكون، فظل وعد الله مستمرا كلما تطلع الإنسان إلى اكتشافات جديدة في عالم الآفاق مثلما عرف الإنسان أن الأرض التي كان يظن أنها مركز الكون ما هي إلا ذرة صغيرة تابعة للشمس، وعرف أن الشمس كرة صغيرة منها في الكون مئات الملايين، فعرف من طبيعة الأرض ومن طبيعة الشمس وشيء

١- ابن منظور لسان العرب.

٢- الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج٢٥، ص١٨.

من مادة هذا الكون الذي يعثو فيه فسادا مرات وأخرى يعمره، وعرف أن أساس بناء هذا الكون الذرة وأنه كرة أو كالكرة يدور حول نفسه وحول الشمس، وأدرك شيئا من جيولوجية قاراته ومحيطاته ووحدة نواميسه التي تربط كواكبه.

ولعله قد ذكر لفظ الآفاق: «سنريهم آياتنا في الآفاق» بقصد بيان التطابق بين وعد الله وعمل البشر وبين الإيمان والعلم، وكأن مجال معرفة آيات الله ومنها حكمة السنن هو الآفاق من خلال صدق آياتها العلمية كعلم الفلك وعلم الفيزياء وسواهما مما ترصد به آيات الله في الآفاق، وحتى ولو تقادم علم الفلك كتقادم الفلسفة فهو أبو العلوم الطبيعية مثلما الفلسفة هي أم أفكار العلوم الإنسانية، حيث تولدت عنه علوم أخرى سارت تؤدي وظيفته لعل أبرزها علم الفيزياء الذي بات مصدرا من مصادر السنن يدل على مدى توسع الآفاق واتساعها واشتمالها على أسرار حقائق علمية مازال لم يطلع عليها الإنسان باعتباره مزودا بآلة البحث في أرجاء الآفاق وهي آلة العقل، واكتشاف الجديد واستقبال المزيد من وعود الله وليس عند حد آيات الآفاق بل يتعداها إلى آيات الأنفس ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[١].

لقد عرف الإنسان أسرارا كثيرة من الكون، ومازال يواصل سبر أغوارها،وإلى جانب معرفة ما عرف من آيات الله في الآفاق مازال يشتغل في توازن من أجل معرفة ما بالأنفس واستقبال وعد الله في مجالها، ومن دون الاستغراق في البحث في معنى النفس وما يرادفها كالروح التي هي من أمر الله فإن الإنسان مازال ذلك المجهول[٢] ولو كان لدى بعضهم الإنسان ذلك المعلوم[٣].

١- سورة فصلت، جزء من الآية: ٥٣.

٢- ألكسيس كاريل: تعريب شفيق أسعد فريد، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٨٣م.

٣- عادل العوا: منشورات عويدات، بيروت، ١٩٨٢.

وهكذا،ومثلما اطلع الإنسان بالعلم بتوجيه الإيمان على أسرار كثيرة في الآفاق فكذلك نفذ إلى عالم النفس ولم تكن فتوح العلم والمعرفة في أغوار النفس بأقل منها في جسم الكون، فقد عرف الجسم البشري وتركيباته ووظائفه وأمراضه وأسرار عمله وحركته ما يكشف عن خوارق لا يصنعها إلا اللّه عز وجل، وما عرف عن النفس البشرية لا يبلغ ما عرف عن الجسم، وبتوصل الإنسان إلى اكتشافات في مجال النفس عرف أنها تسير وفق سنن رياضية ثابتة تدخل تركيبها ونشأتها ونموها وانفعالاتها وسلوكياتها والخطوط المتقابلة فيها.

أما طريق رؤية السنن في الآفاق وفي الأنفس فتنقل إلى طرق اكتشاف السنن لكي يتوصل الإنسان إلى ملاحظتها في مجالي الآفاق والأنفس فيتحقق له وعد اللّه «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم»، ولكي يستفيد من تسخير ما بين يديه المتمثل في عالم الآفاق وعالم الأنفس ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١]. ولذا على الإنسان أن يستفيد من القابليات التي أودعها اللّه فيه وفي من حوله، و هي قدرة العقل باعتباره مركز الثقل في الكائن البشري، وقدرة العاطفة،ومثلها قدرة الفطرة والغريزة لدى الحيوان، ولذلك اعتبر الفكر الإسلامي تأملات العقل وتدبراته أهم وسائل رؤية السنن في الآفاق وفي الأنفس ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[٢].

فالإنسان وحده مؤهل لرؤية آيات الأفاق والأنفس لما زوده اللّه به من استعدادات وكفايات تمكنه من معرفة كنه هذا العالم وهذا الوجود، وأهم ما أهل به الإنسان لهذه المهمة العقل الذي تميز به عما سواه، هذا

١- سورة الجاثية، الآية: ١٣.

٢- سورة يونس، الآية: ١٠١.

العقل الذي فقد جزءا من وظيفته في الأمة الإسلامية فأصبح يعاني البطالة والسكتة الفكرية مما دعا إلى إعادة تشكيله[1] وتفعيله مرة أخرى ليستأنف أداءه، ويظل تأمل العقل أداة اختراق عالم الآفاق وعالم الأنفس لمعرفة أسرارهما، وتسخيرهما لخدمة أغراض الإنسان كتحقيق أهداف التداول والاستخلاف، حيث لا يمكن للإنسان معرفة ما في السماوات والأرض إلا عن طريق التأمل والتفكير في آيات الله بدعوة من القرآن ومن خارجه، وما البعثات الكشفية التي تجوب أنحاء العالم تبحث في الحفريات والآثار والطين المتحجرة عن أصل الخلقة إلا منهجية علمية رائدة تعطي للإنسان القدرة على كشف خفايا الكون والنفس وتجارب الإنسان منذ كان، وبعد هذا يتضح أن مجالي الآفاق والأنفس ليكمّل أحدهما الآخر، ولكن يظل سؤال «كيف؟» قائما؟

وأهم النتائج المستخلصة: إن آيات الآفاق والأنفس شاهدا عدل على وحدانية الله عز وجل وأن ما يبدع ويخترع فيهما هو من وفاء الله بوعده حتى ولو عجز الإنسان عن أن يشهد هذه الآيات، وميزة هذين الشاهدين أنهما نزيهان غير متهمين بالتحيز والهوى، وللمجادل أن يصادر آيات القرآن الكريم ولكن ليس له أن يصادر آيات الآفاق والأنفس، وقد صار دليل الإسلام دليل علم إنساني عملي وليس دليل طائفة معينة دون سواها. وإن آيات الآفاق والأنفس مسخرة من الله لبني البشر تسخيرا ممكنا غير أن اكتشاف أسرارها موكول للعقل ومن مهامه، حيث إن تسخير عالم الآفاق قد يكون أسهل من تسخير عالم الأنفس إلا أن العلم الحقيقي هو العلم المتعلق بالإنسان، وإن قدرة العلم على اختراق عالمي الآفاق والنفس مازالت تواصل أداءها منذ القدم إلى الأبد، وكل يوم شاهد جديد يأتي بجديد، وإن العلاقة بين الآفاق والأنفس مرتبطة حيث تسمع فطرة النفس البشرية لصوت الكون

١ - صيغة واردة في كتاب للدكتور عماد الدين خليل بعنوان «حول إعادة تشكيل العقل السليم» كتاب الأمة.

عن طريق الإيقاعات المبرهنة على وجود الله وتأييده للبشر، وما علاقة العداء بين العلم والإيمان إلا علاقة كنسية مفتعلة.

والمطلوب أن نجعل من آيات الآفاق والأنفس منهجا راسخ البنيان في صفحات آيات القرآن الكريم ليتحقق وعد الله في تجاوز الفساد في الأرض وسفك الدماء، والاهتداء إلى سبيل السلام.

الفصل الثالث

البحث عن مفهوم السنن ووعي مقوماته

- **البحث عن مفهوم السنن**: إن البحث عن الأفكار والأخبار في مواقعها وبين مرادفاتها كالبحث عن المعادن في مناجمها بين أشباهها، الأمر الذي قد يستدعي حفر أنفاق وهدم صخور، مثلما يستغرق البحث وقتا قد يطول ويقتضي تعبا شديدا لنيل المنى المبتغى في عالم المادة أو المعنى، وإن البحث عن مفهوم السنن بين مرادفاته بعد العثور على مصطلحه لم يخرج عن هذه القاعدة من يوم بدأ الحس ينمو بوجوده، ولاسيما أنه بحث غير مسبوق وإن مهّدت لاكتشافه إرهاصات مثلما تمهّد لغيره دلت عليه دعت إلى الاعتراف به بعد بلورة شيء من مفهومه، مثلما سبقته مبشرات أخبرت بقدومه والتي على إثرها بدأ الاهتمام به، ومن سنن الطبيعة ألا يكون إنشاء المعارف والعلوم وميلادها بين عشية وضحاها وإنما لابد أن يأخذ وقتا قد يطول، ومن طبيعة هذه المعارف الوليدة والعلوم الناشئة أن تعرف مسمياتها قبل أسمائها ومضموناتها قبل مصطلحاتها، وكأن العلم لا يكون حتى يكون اسمه.

ومصطلح السنن لم يستثن من هذه القاعدة، ولذا فقد دندن الباحثون حوله بعد أن اهتم بتحسسه فريق منهم ولاسيما حول اسمه ومصطلحه ولو من خلال أسماء أخرى مثل الدعوة إلى التزام منطق الإيديولوجية وضرورة مطابقة القول العمل والمثال الواقع، ومن خلال هذا غدا يتجلى مفهوم السنن أكثر في ألفاظ جمل أخرى مثل قوانين الطبيعة.

وإن أول اهتمام بالسنن كان في الفكر الذي وجد فيه ذاته في القرآن الكريم فيما سمي آيات السنن على صيغ آيات الأحكام، وإن كانت ليست هي مفهوم السنن في ذاته وإنما في عنوانه، ولذا كان اهتمام المفسرين بمفهوم السنن في جانبه الفكري أسبق من غيرهم لما اعترض سبيلهم لفظ السنة والسنن في القرآن، أما الفقهاء فلم يحمّلوه مضمونا وإنما استخدموه اسما لحكم شرعي له منزلة بين منازل الأحكام الشرعية، أما المؤرخون فلم يكن

مفهوم السنن إلا موضوعا من موضوعات بحوثهم ولفظه ومصدر خبر من مصادرهم، ولذا فهو عندهم عنوان بحث وليس إطار مفهوم، وقد ظل الأمر كذلك عندهم إلى أن كان الفكر التاريخي الذي صار يسمى فلسفة التاريخ وتفسيره حين ظهر تعليل الأخبار التاريخية واشتدّ الاهتمام بتحليلها.

ومن هنا بدأ التعرف على علم السنن والتعريف به وذهب ينمو ويتبلور المضمون من خلال لفظه إلى أن اكتشف كثير منه ووعي به فراح البحث يتطلع إلى قواعده ويبحث عن مصادره ومقاصد دراسته، حتى صار مصطلح السنن عنوان جملة بحوث ودراسات على مستوى من الأهمية والاهتمام بعدما حقق الحس بمفهومه والبحث عنه من خلال مصطلحه ومرادفاته من أهدافه كثيرا.

ومن طبيعة البحث ووسائله أن يبدأ موضوعات معارفه وعلومه بعد الحس بوجودها ولا يقصدها قصدا مباشرا إلا حين تتضح ملامحها فتتضح أفكارها، ولذا تقع البحوث الأولى الطلائعية المبدعة في العلوم والمعارف في أخطاء، و قد يصحح الأمر بعد حين قد يطول فترتب أولوياته الأمثل فالأمثل إلى أن يستوي العلم على سوقه فيخرج شطأه، وهنا تبدأ البحوث تنظر للعلم وتؤسس له ولقواعده فيسلك سبيله بين السبل ويأخذ مقعده بين المقاعد ويواصل مساره بما صار له من تلاميذ بل أساتذة ينظرون له ويدعون إليه، ولم يخرج الحس بمفهوم السنن عن هذه القاعدة وإنما سلك حيثياتها حتى وصل إلى ما وصل إليه، ومازال يواصل شرح ذاته من خلال مصطلحه ومرادفاته.

وأعتقد أن الحديث في قضايا كالموضوعية والعلمية والمنهجية والالتزام والحياد وما على شاكلتها مما كثر الحديث فيه يوما ما هو بحث عن معنى السنن ومفهومه لأن هذه القضايا من صفات السنن، والحديث في صفات الشيء وذكره بها يعني الحديث ولو غير مباشر عن لشيء وذكرا له، ولذا

من ضرورة التوضيح عرض شيء خلال معانيه وربما مرادفاته هذا ليكون القارئ الناشئ والمبتدئ في ثقافة السنن على بينة من أمره، ومنها:

الالتزام: لقد حرص دعاة الالتزام على التفريق بينه وبين الالزام، فذهبوا إلى أن الالزام هو قهر الآخر على الأخذ بأمر ما كإبداء رأي أو اتخاذ موقف، أما الالتزام فإنه اقتناع نابع من داخل الإنسان نتيجة مبررات ثقافية أو تربوية أو ظروف بيئة وتقاليد ولا سلطان للآخر عليه، ولكن السؤال الذي كان يطرح حين كان الحديث في الالتزام الشديد والذي مازال جزء منه إلى اليوم ولو من الوجهة التاريخية هو بماذا نلتزم؟ وبماذا نلزم؟.

أعتقد أن الذين دعوا إلى الالتزام كانوا يقصدون الالتزام الإيديولوجي بفكر ما ولو من منظور الاقتناع الذي يقتضي الحجة والبرهان ليتحقق اقتناع الآخر بما اقتنع به الشخص الداعي، حيث الإقناع من أدواته وأساليبه المنطق والتجربة التي هي آلية من آليات العلم ومقوم من مقومات بناء مفهوم السنن، وهذا ما يعني البحث عن السنن والعمل في إطار مفهومه من خلال منْطَقة الأفكار وعلمية طرحها التي هي سمة من سمات السنة التي كانت عونا على إبراز مفهوم السنن وإظهاره ولو من دون قصد وعن غير وعي مثلما مازالت تؤدي الدور ذاته.

العلم: ما من لفظ صار مصطلحا إلا وله تاريخ نشأته ومستقر ميلاده وجذور اشتقاقه اللغوي، ولذا فإن مصطلح العلم قد يجر الباحث فيه إلى مصطلح العلمية ولكن يتميز عنه من كون العلمية تصور الشيء في الذهن على حقيقته، حيث تنعدم الأهواء فيه وتذهب التأويلات عنه، وهذا هو الآخر في ذاته من التزامات مفهوم السنن ودلالاته الفكرية، ومن هنا كان العلم بحكم أنه أقدم اكتشافا من السنن وأكثر توسعا وانتشارا منها عونا على اكتشاف مفهوم السنن ومساعدا في الوصول إلى دلالته الفكرية.

المنهج: قد لا تسمح تراكمية الحديث في المنهج للباحث في مصطلحه التخلص منه بيسر ولو استطاع استلال ما يخدم أغراضه كالذي تريده هذه الدراسة في علاقة المنهج بالسنن وكيف كان عونا على إدراك مفهوم السنن للوصول إلى جوهر حقيقته، حيث المنهج مجموعة المبادئ والإجراءات لإقامة تصور شيء وتحديد العلاقة بين أجزائه وأطرافه مثل تحديد العلاقة بين الذاتية والموضوعية والثابت والمتحول، بينما تعتمد السنن هي الأخرى إجراء قد يكون مما يتخذه المنهج، وهنا يلتقي المنهج ومفهوم السنن في قاسم مشترك، واحد وبحكم أن المنهج هو أقدم استخداما لقدم ظهوره عن السنن فقد كان عونا لها على اكتشاف مفهومها، وهذا لا يعني غلق قائمة ما كان عونا على اكتشاف السنن ومفهومها من مصطلحات صارت ألفاظها أعلاما في الفكر الحديث مثل الذي ذكر وإنما هناك ألفاظ أخرى كالحياد وإلى جواره ألفاظ تعتبر معايير أحكام على صحيح المعرفة أو على خطئها كالقياس والحجة البالغة.

الموضوعية: ليس من اليسر الاتفاق على معنى مصطلح كثر استخدامه في العصر مثل الموضوعية ولكن قد يتفق على المعنى المشترك في دلالته بين مستخدميه، ولذا فإن الذي قد يفصل في الأمر ولو نسبيا قاموس اللفظ اللغوي مثلما يعرف الشيء بضده، وعليه فإن مصطلح الموضوعية يعني التزام الشيء على ما هو عليه من دون تدخل هوى أو أنانية مقاصد ذاتية التي هي نقيض الموضوعية حتى لا يحدد الذهن معنى الشيء وتصوره وإنما يستخدمه بدلالته الحق المحددة في قاموس اللغة، وهذا ما يدعو له مفهوم السنن فاتكأ البحث فيه على مفهوم الموضوعية من غير برمجة ووعي به، وقد يكون مما يزكي الموضوعية في مفهوم السنن أنها تدرك بالحس وتخضع للتجربة في مجالي الفكر والعلم وهما ميدان السنن العادية والجبرية، وقد تفقد الموضوعية شيئا من خصوصيتها في ميدان السنن الخارقة.

- **البحث عن مفهوم السنن من خلال مرادفاته:** لقد استخدم البحث عن مصطلح السنن ومفهومه جملة ألفاظ ومصطلحات قبل اكتشافه، بل مازال يستخدم أخرى من مرادفاته وإن كادت تذوب بين يديه وتنسحب من ساحة ميدانه من أمامه مثل مصطلح الناموس والقانون لعدم اقتدارها على منافسته، حيث لم يبق في ساحة الاستخدام ومجالاته ومن مرادفاته إلا قليل مما قد لا يتجاوز ٣٠٪ مما يستخدمه مصطلح السنن، ولذا صار سلطان مرادفاته وقد صارت إلى جانبه ضعيفة وكادت تنزوي في ركن زهيد من التاريخ، وإن كان مصطلح القانون مازال يستخدم شيء منه بمعنى السنن في مجالات العلوم الطبيعية والتكنولوجية، مثل عنوان كتاب قوانين الله وليست قوانين الطبيعة[١] الذي يبدو قد ألّف في جو تداعيات استخدامه في غير محله في الحس الإسلامي، ومثل عنوان الإسلام وقوانين الوجود[٢] ويبدو واضحا أن مصطلح القوانين استخدم هنا بمعنى السنن وإن كان حتى استخدامه فيما هو فيه وله لا يخرجه عن معناه الحقيقي ودلالة مفهومه.

ومن قبل هذا كدحت مؤلفات في المسار ذاته وفي إطار الميدان نفسه تريد بيان ما يريد مفهوم السنن بيانه والتعريف به، فكانت قريبة من القصد وكاد يشملها مضمون مفهوم السنن لولا أنها انتهجت نهج الوعظ أكثر من نهج الفكر واعتمدت النقل أكثر من التعليل والتحليل، المنطق الذي يعتمده مفهوم السنن ويعتبره من مقوماته، مثل كتاب سنن هلاك الأمم وسنة الله في القوم المجرمين والمنحرفين[٣] والذي استخدم مصطلح السنن فيما يستخدم فيه ولكن منظوره الأخلاقي المحيل للأسباب إلى عالم الغيب وإخراجها من دائرة التعليل وعدم إخضاعها لمعايير نقد المنطق كاد يستحوذ على محتواه الفكري الذي لا يحمّل الإنسان مسؤولية ما يحدث في الحياة من

١- د/ محمود سراج الدين عفيفي: ط٢، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٩م .

٢- د/ محمد جمال الدين الفندي: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢م .

٣- الشيخ عبد الله التليدي: دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

قيام الحضارات وسقوطها وتداولها تحميلا مباشرا.

- **البحث عن مفهوم السنن من خلال لفظه**: لقد ظل لفظ السنن دهرا يكتفي بمعنى القاموس العربي وهو الطريقة، مثله كمثل ألفاظ أخرى ربما لم يطرق خاطر ذهن لغوي أنه سيكون لها معنى اصطلاحي تكون به عنوان فكر علم ذd نقاش شديد واهتمام كبير يترشح ليكون مخرج أزمة حضارية وأسلوب نهضة تبحث عن وسائل تحقيق أهدافها.

ولذا فإن الاهتداء إلى مفهوم ما قد يجمع عليه من خلال لفظه ليس سهلا، لأن السنن تأبى الاكتشاف المباشر والوقوف على الشيء من دون بحث سابق قد يطول، مثلما ترفض حدوثه من دون إرهاص[١] وتوقع[٢] له، ولذا ظل لفظ السنن يصرف الأذهان إلى معناه الشرعي ولا يصرفها إلى أي معنى آخر كالذي صار يتناوله الفكر الإسلامي به إلا قليلا، والذي مجاله غير مجال المعنى الشرعي الفقهي إلا في اللغة التي هي مجال مشترك بين دلالات الألفاظ وبين مفهوماتها، ومنها مفهومه الفكري الذي بين يدي هذه الدراسة، وقد صار له من الشهرة ما يقارب مفهومه الشرعي، مما يطمئن البحث إلى أن مفهوم السنن قد هدي إليه من خلال لفظه مثلما هدي إليه من خلال مرادفاته أو أكثر.

نشأة مفهوم السنن ودراسته: إن أول مصدر عرف فيه لفظ السنن وبحث عن مفهومه فيه القرآن الكريم، حيث اكتشف من ما صار يسمى آيات السنن ومنها امتدت الدراسات تبحث عن مفهومها باعتبار القرآن الكريم المصدر الأول والكون المصدر الثاني بعد الحديث النبوي، حيث هما الكتابان المقروء والمنطوق أو المتكلم والصامت، ثم اشتق منهما. والأصل أن ينتسب إليهما

١- إن الإرهاص في اللغة يعني مقدمة الشيء، وعلامة الإيذان باقترابه، وإن ضاق مفهوم الإرهاص عندما ألصق بالمبشرات الخوارق لبعثات الأنبياء والرسل، ولذا كثر استخدام لفظ الإرهاص في مقدمات كتب السيرة النبوية.

٢- التوقع بمعنى الترقب لمؤشرات حاضرة تدل على المتوقع كعلامات له.

كالتفسير والتاريخ وعلم النفس البشرية وعلم الفلك والفيزياء وسواه، ومن هنا كانت دراسات السنن لا ترغب في الإحاطة والإلمام بها بقدر ما ترغب في إدراك مفهوم السنن ومقاصده والبحث عن كيفيات الإفادة منه والتحكم في مساره وتطوراته.

وعلى هذا فإن آيات السنن هي منطلق موضوع السنن، أما سنن الآيات فهي موضوع المنطلق، وهذه الدراسة لا تسعى إلى بحث آيات السنن المتعلقة بمصطلح الموضوع الذي يبدو قد أشبع وانتهي من بحثه لمحدوديته، وإنما تريد بحث مضمون السنن لتؤسس مفهومها بين سنن الآيات المتعلقة بموضوع المصطلح الذي لن ينتهي البحث منه ولن تغلق دائرة مجاله كانتهاء دائرة آيات السنن التي ما كانت لتكون إلا دليلا عليه ليعرف بها مفهومه ومضمونه ولذا انتهت وظيفة آيات السنن من هذه الناحية ومازالت سنن الآيات غير قابلة للعد والحصر والإتمام والاكتمال.

مقاصد دراسة السنن: أعتقد أنه لابد أن تجري محاولة تحديد مقاصد الأفكار والنظريات والمناهج وفق منطق منهجي لتنتفي التلقائية وما يجري مجراها، الدور الذي تؤديه فيما، يبدوا، وظيفة السنن حيث يضبط عملها منطق تحقق المشروط إذا تحقق شرطه، ويتمّ العمل إذا توافرت عوامله، وتنجز الأسباب لإنجاز مسبباتها والنتائج وفق تلقائية إذا أسست مقدماتها عبر أولوية الأداء إذا توافرت فعاليته وإلا ظل الأمر جامدا مشلولا لا يتحقق من مقاصده شيء، ومن هذا المنظور أوكل لفكر السنن تحقيق مقاصد منها:

- **بلورة مفهوم السنن** :قد يكون من الصعب الاهتداء إلى اكتشاف الأفكار والمبادئ وتقويم العلوم وسواها إن لم يرتب منطق اكتشافها وتحدد آلياته، ولعل هذا هو الذي حال دون اكتشاف السنن منذ وقت مبكر، مثلما حال دون اكتشاف غيرها من علوم أخرى، وقد بثت في الوجود منذ كان وجرت أحداثه وفقها، ومع اكتشافها مازال لم يحس بها أكثر الباحثين من حولهم، وحتى في

مواد دراسات اختصاصاتهم الفكرية والعلمية، مما عطّل اكتشاف حقائق أخرى بنيت على أساس اكتشاف السنن لعل أكبرها عدم يقين أناس أن الكون من صنع الله وإدارته، ولم يعرف أن الحقيقة كلها من الله وإليه، وأن القرآن كلام الله والكون فعله حيث لا تعارض بين قول الله وفعله، ولذا ينبغي ألا تعارض أفعال العباد أقوالهم وسلوكياتهم تصوراتهم وإلا لن يتحقق شيء من هذا إلا بعد تبلور مفهوم السنن وتبين ملامحه أكثر بمقتضى وسائل كإحصاء أكبر عدد من سنن الوجود ومفرداته من الأشياء والأفكار.

- **إعداد منهج إحصاء السنن**: والقصد عد أكبر قدر ممكن من سنن الوجود في ميادينه كالنفس والمجتمع والكون والتاريخ والفكر والحضارة، والكشف عنها على أنها حقائق من الحياة جاء بعضها تحت اسم آخر مثل كلمات الله، وهي كلمات غير قابلة للنفاذ ولا الإحصاء والحصر والعد حتى ولو كان الشجر أقلام عدّها، والبحر مداد كتاباتها: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1]، ولا يمكن أن يكون المقصود بكلمات الله في الآية الوحي المنزل، والمراد القرآن الكريم، لأن كلماته محصورة محدودة، والكلمات المشار إليها ليست محدودة، ولكن مع أن السنن بمعنى كلمة الله غير قابلة للعد إلا أن هذا لا يعني عدم عد أكبر قدر ممكن ومحاولة حصر كل في ميدانه، لتكون علما له قواعده ومناهجه في ثقافة الإنسان.

- **تكوين ثقافة السنن**: إن المعرفة بالسنن ينبغي أن تكون جزءا هاما من الثقافة، ولاسيما لدى أهل الفكر وليتصرف بمقتضاها عن تلقائية وعفوية من غير تركيز الاستحضار العقلي، مما قد يوقع صاحبه في التصنع والتكلف، وحينئذ تنتفي طواعية ثقافة السنن في فكر الإنسان وإرادته، فتتساقط من برنامج أقواله وأفعاله وتخرج من سلوكياته، وأعتقد أن هذا

١-سورة لقمان، الآية٢٧.

فيه قابلية التحقق مثلما تحقق نظريات أخرى كنظرية الصراع التي لهجها الفكر الاشتراكي دهرا إلى أن ضعفت ثقافته وكادت تنقرض بعد انهيار معسكر الشيوعية، ومثلها ثقافة التواكل بدل التوكل التي هيمنت على جزء من خريطة العالم الإسلامي فأصبغته بصبغة الخنوع وأقعدته عن فعالية الأداء الحضاري في فكره وسلوكه وأفعاله، ومثل هذا فهم مسألة القضاء والقدر الخاطئ الذي كبّل المسلمين هو الآخر دهراً فصبروا على الظلم صبرا في غير موضعه هو الصبر على الاحتلال الأجنبي، لأنه في حسبانهم من القضاء والقدر، فتعطّل باب الجهاد، وكان ينبغي أن يقابل القدر بقدر مثله أو أقوى منه، ومثله التزام التقليد الذي من أسوأ مساوئه غلق باب الاجتهادالذي أوقف الاكتشاف والإبداع والاختراع الحضاري العام في ميدانه .

وأعتقد أن فهوما خاطئة كثيرة ترتبت على ضعف ثقافة السنن وعدم التكوين عليها ومنها فهم دور العوامل والأسباب التي أوعز إنشاؤها إلى قوة غيبية وليس إلى أعمال الإنسان فأهمل مسؤوليته تجاه ما يحدث مما أدى إلى إخفاقاته لعدم قدرته على مواجهة مشكلات الحياة مواجهة واقعية لا تنتهج الفلسفة التبريرية ونظرية مؤامرة الآخر على الذات الإسلامية، وأعتقد أنه لو سادت ثقافة السنن ومورست في أفكار الإنسان وسلوكياته لتجلت أشياء كثيرة، ولوعيت حقائق غائبة عن تصور الإنسان تميز بين الخطأ والصواب، إلى آخر ما هو من وظائف السنن ودورها في الحياة، كالتخطيط لهندسة الأفكار والآراء والبرمجة بالدليل والبرهان ومنطق الإقناع بالحجة.

- **وضع برنامج دراسة السنن:** ينعت العصر الحديث بأنه عصر التخطيط والبرمجة وحسن النظام والإدارة، وأن الشعوب والأمم تزداد تقدما وازدهارا كلما تحكمت في هذه الوسائل التي تضعف أداءها الحضاري في

مختلف مستوياته الإدارية والسياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية فيفقد التحكم في وسائل البرمجة التي ينبغي أن تكون من الثقافة التربوية.

التربية على اكتشاف مفهوم السنن ووسائله: الاكتشاف يعني إخراج المجهول إلى دائرة المعلوم ومن الظلمات إلى النور لاستخدامه في تحقيق مقاصد، لأنه ما من شيء إلا وله قصد يريد تحقيق هدفه أو أهدافه ولو تفاوت وضع المجهول والحاجة إليه، مثلما بات اكتشاف الجانب النظري أيسر من الجانب التطبيقي ومثله اكتشاف الهدف من غير وسائل التزام تحقيقه والتربية على الإيمان بضرورة تنفيذه.

ولذا أصبح البحث في الوسائل من أهم الأبحاث التي ينبغي أن تولى اهتماما كبيرا ليلا تكدس الدراسات النظرية وتضعف تطبيقاتها فتتضخم أحلام المقاصد دون تأسيس وسائل تحقيق أهدافها، وهذا ما يدعو إلى الاهتمام بإنشاء وسائل الاكتشاف، وآليات التحقيق، وأدوات التطبيق، وإلا يظل إبداع الأفكار حقائق جامدة، ونظريات مشلولة، تفتقد فعاليتها وأثرها في الحياة، لفقدها وسائل تحقيقها مما أدى إلى اختلال التوازن بين النظرية والتطبيق وبين الأهداف والوسائل لاختلال التوازن بين الأقوال والأفعال والتصورات والسلوكيات.

ولذا ينبغي التأسيس لدراسة الوسائل والأدوات والآليات في مستوى التنظير لبناء المناهج والنظريات، وقد تكون بداية بحث وسائل اكتشاف السنن المبثوتة في الوجود، مثلها كمثل المعادن في باطن الأرض، خلقت منذ الأزل ولكن ظل الإنسان يمر عليها بالغدو والآصال ولم يكتشفها إلا بعد حين يوم توافرت وسائل اكتشافها.

ومع أن الإنسان منذ القدم اجتهد في قراءة الوجود ومفرداته وحاول فك رموزه وحل ألغازه، لكنه لم يحقق مقاصده كلها لعدم توافر وسائل تحقيق ما لم يحقق وفق منطق الحاجة أم الاختراع سنة من سنن قيام الحضارة

الأولى، ومن يومئذ مازال يرتب أولياته، حيث يسعى ليوفر لذاته الأهم حتى ولو رضي بالمهم والهام حين تفتر عزيمته وتلين إرادته، ولذا مازال يشحذ فعاليته في الحياة من خلال الجد والاجتهاد ليواصل إبداعه نحو مبدأ تدرج منطق الأولويات وإن كان يقف من حين لآخر حائرا لاضطرابه في تقدير أولويات حاجة برنامج حياته الجماعي مثل الفردي، ويتردد بين ماذا يأخذ وماذا يذر، وحين يقرر الأخذ يتردد في كيف يأخذ، إلى أن يهتدي إلى سنن أمره، ومن المتفق عليه أن الإنسان مهما أوتي من علم لا يستطيع اكتشاف شيء في الوجود وتسخيره إلا إذا توافرت له أسباب اكتشافه، وتأخر اكتشاف السنن كان لتأخر اكتشاف عواملها.

ودعوة القرآن الكريم إلى التفكر والسير في الأرض والنظر[1] في السماء واستقراء التاريخ منذ أمد تكرر التنبيه إلى مفهوم السنن المبثوث فيه وكأنه يتحدث بلسان حاله عنها ويريد أن يفصح عنها فيدعو غيره لاكتشافها والعمل من خلالها، ولكن ماذا عسى يغني الأمر شيئا إن لم تستخدم آليات الاكتشاف، وما الفائدة من النظرية إن لم تستخدم آليات تطبيقها؟ وما الجدوى من وسائل النقل إن لم تشغل آليات محركاتها لتحقيق مقاصدها؟ فالنظريات المعرفية مثلها كمثل وسائل النقل مثل القطارات والحافلات التي لن تنقل حمولتها وتوصل ركابها إلى مقاصدهم إلا إذا توافرت أسباب تحريكها كالوقود والزيوت والسائق، وتفاوت فعالية الأفكار في وسائل تحقيق مقاصدها مثلما تتفاوت فعالية وسائل النقل من حيث السرعة والراحة والضمانات.

ولعل من هذا المثال تتضح حقيقة السنن باعتبارها وسائل في مواقع وغايات في مواقع أخرى وفي الحالتين مطلوب اكتشافها والاهتداء من خلالها إلى تحقيق مقاصد وهي جزء من الأفكار النظرية، ولن تأخذ آلياتها فعالية تحقيقها إلا إذا أسست وسائل طرقها واكتشافها في مجالاتها، ثم

١- فاطمة اسماعيل محمد اسماعيل: القرآن والنظر العقلي، ط١، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤١٣هـ ١٩٩٣م، ص ٦٦.

أساليب اعتمادها والأخذ بها في تعاملات الإنسان مع مفردات الوجود وكائنات الحياة التي بثت فيها السنن بثا، ودعا القرآن إلى التدبر فيه وفيما حوله واستقراء التاريخ والسير في الأرض وغيرها من وسائل طرق السنن واكتشافها لاعتمادها مناهج من أجل التحضر وفق ما هيأ الله للإنسان منذ استخلفه سيد المخلوقات التي أخضعها لإرادته ولأداء مهمة في الحياة بشروط هي وسائل اكتشاف السنن كالتفكير والتدبر والتأمل وسواها من الأدوات الأخرى التي لولاها ما عمل الإنسان شيئا وما حقق من رغباته إلا نزر من الحياة الذي قد يضطرب هو الآخر في تحقيقه ولا يعرف سبيلا إلى إنجازه.

ومن هنا كان إلحاح القرآن الكريم على التفكر والتدبر والتأمل والدعوة إلى النظر إلى ما في السماوات والأرض وإلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت، وكل ما أنجزه العلماء والمفكرون والمربون وغيرهم من بناة الحضارة لم ينجزوه إلا استجابة لرغبات الإنسان وحاجاته بعد التأمل والتفكر، وعلى هذا الأساس كان العقل مستودع مكنونات الإنسان وأكبر آلة استخدام منوط التكليف به، وبقدر انقداح العقل وذكائه تزدهر الحضارة وبقدر انطفاء نوره وتبلد أدائه تتوقف آليات الإبداع الحضاري واختراعاته ثم تتدهور الحضارات وتؤول إلى سقوطها ولو بعد حين، وهذا مما يدعو إلى ضرورة الاهتمام بمفهوم السنن ولاسيما من خلال لفظه ووعيه ووعي مرادفاته.

وعي مفهوم السنن: لقد تأخر وعي مفهوم السنن لتأخر اكتشافه والتعرف عليه أو أكثر، وقد صار غني عن البيان أن أذكر أن أول من اكتشف السنن ووعى دورها في الحضارات عبد الرحمن بن خلدون ولكن تلا زمانه الركود، فغفل عنها المفكرون، حتى طواها النسيان ولو ظل المفسرون يذكرونها في مؤلفاتهم ذكرا لغويا حين تعترض سبيلهم من غير أن تستوقفهم بقدر

ما استوقفتهم مسائل أخرى كالمسائل الفقهية والنحوية التي أطنبوا في بعضها أيما إطناب، واستمر هذا دهرا إلى أن كان العصر الحديث فقيّض الله من رجاله في ميدان الفكر وغيرهم ما قيض، فكان منهم مالك بن نبي المفكر الجزائري الشهير فأحيى البحث في السنن وجدد الاهتمام بها مرة أخرى بعد أن ظلت نسيا منسيا، ثم أخذ هذا الاهتمام عنه آخرون من تلاميذه مثل جودت سعيد، ومن ثمّ مازالت أبحاث السنن تستقطب المزيد من الاهتمام والدراسات لتعميق الوعي بها، وإدراك ضرورتها في الحياة من أجل تحقيق مشروع الأمة الإسلامية الحضاري والاستدراك على الحضارات الأخرى من خلاله ليكون كناد لا ينتسب إليه إلا ببطاقة عضوية وفق شروط، وحتى يكون هذا لابد من تأسيس مناهج التفكير من خلال اتجاهاته وتياراته ولاسيما المعاصرة منها وضبط وسائل تفكيرها وسبل إنتاج أفكارها وفق قواعد المنطق والبرهان والاستدلال والحجة والعلة والمعلول والشرط والمشروط والسبب والمسبب وغيرها من مقومات السنن في الفكر الإسلامي الحديث الذي ينبغي أن يُتَعَلَّم.

إدراج السنن في مناهج التعليم: لقد صار من موضة الفكر الإسلامي وصيحات ثقافته المعاصرة المطالبة بإدراج كل ما يراه هاما في برامج التعليم ومقرراته وإخراجه إلى وسائل الإعلام والاتصال ليتعلمه من يرغب فيه ويأخذ بأحسنه، وكأن هذا تفطن إلى أهمية التعليم الاستراتيجية وإلى أثر الإعلام في البلاغ لتتبنى الأجيال من خلال الوسيلتين على المدى البعيد والقريب ثقافتها من أوثق المصادر وأكثر مصداقية، ومن هنا كان من مقاصد دراسة السنن برمجتها ببرمجة موضوعاتها ضمن إطار الاهتمامات الفكرية النهضوية.

تحديد الخطأ والصواب: إن تحديد الخطأ والصواب يعني تحديد المسؤولية وتحمّل تبعاتها وتداعياتها من غير أن يستيقنونها مثلما حدث

لأقوام تاريخية، ويبدو أن ذلك مما أدى إلى أسئلة مثل سؤال عنوان كتاب: من المسؤول عن تخلف المسلمين؟[1] وسؤال عنوان كتاب: لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟[2] إلى أن كانت كتب جمعت كثيرا من أسئلة مفكري النهضة العربية الإسلامية الحديثة مثل كتاب: أسئلة النهضة العربية[3]، ومازالت تتواصل إثارة الأسئلة هنا وهناك تمسّ الحقيقة ولو بتفاوت، ومن مقاصدها تحديد الخطأ والصواب ليتحمّل كل مسؤوليته من منطلق: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[4] و﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[5] ولعل هذا الآخر أدى إلى التأليف في المسؤولية مثل كتاب: المسؤولية[6]، ولكن كل هذه المؤلفات وغيرها لم تحقق المطلوب لأسباب منها عدم انضباطها بضوابط المسؤولية وعدم توافر شروط تحمّلها في الذين أوتوها أو تولوها.

- **تقييم التجارب والخبرات**: تكاد التجربة تكون مصدراً من مصادر الفكر الإسلامي في أصول شريعته كالكتاب والسنة وإجماع علماء الأمة الإسلامية، لأنها مصدر عطاء معرفي متميز يخرج من بين الخطأ والصواب كخروج اللبن من بين الدم والرفث صائغا للشاربين، لأن التجربة ما يهدى إليه من طيب قول أو عمل ويتجنب من خلاله سوء القول والفعل، وعلى هذا تأسست أهمية التجربة وتأكد دورها، فكانت من أهم اهتمامات برنامج السنن، ومع تداخل مفهومي التجربة والخبرة إلا أنهما يصبان في مصب واحد وإن ذكر مصطلح الخبرة وأمر بسؤال أصحابه: ﴿فَسْـَٔلْ

١-د/ محمد سعيد رمضان البوطي
٢-الأمير شكيب أرسلان
٣-د/ كمال عبد اللطيف
٤-سورة ألأعراف، الآية٠٦.
٥-سورة الحجر، الآية ٩٢.
٦-محمد أمين المصري

بِهِۦ خَبِيرًا ﴾[١] و﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾[٢] ولم يذكر مصطلح التجربة في القرآن بمثل هذه الصيغة صيغة الأمر مع الاهتمام الشديد به واعتماده كثيرا.

ولقد استثمر الأخذ بالتجارب والخبرات في التطبيق أكثر من التنظير للأخذ بها في ميدان الفكر والفلسفة، ولعل من هنا صارت الدول المتخلفة تستقدم خبراء الدول الأخرى في ميدان التسيير والإدارة والاكتشاف والبناء عبر المؤسسات والشركات كمقوم أساس من أجل إنجاح برامج مشروعاتها.

- **مقومات مفهوم السنن:** قد يكون اشتقاق مصطلح مقومات جمع مقوّم من الفعل قام يقوم ومنه نحتت واشتقت مصطلحاته الأخرى كالإقامة، ومن اللفظ ذاته اشتق مصطلح القوامة بمعنى الوسطية والاعتدال[٣] الذي جاء وصفا لعباد الرحمن كالذي ورد في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾[٤] وإن اشتدّ جدال في ورود لفظ القوامة في ميدان مسؤولية علاقة الرجل والمرأة حيث استدل باللفظ من قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾[٥].

ويبدو أن لفظ الاستقامة هو الآخر ليس بعيدا عن معنى القوامة، حيث تردد استعمال لفظه في القرآن الكريم: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٦] ومن خلال هذا يسترشد إلى أن مصطلح مقومات من اشتقاقات الفعل قام إذا اعتبرنا الفعل الماضي هو الأصل، فكان المشتق

١-سورة الفرقان، الآية ٥٩.

٢-سورة فاطر، الآية ١٤ .

٣لأبي طاهر بن يعقوب الفيروزابادي: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، دار الفكر، بيروت، ص٣٠٥.

٤سورة الفرقان، الآية ٦٧ .

٥سورة النساء، جزء من الآية ٣٤ .

٦- سورة الزخرف، الآية ٤٣ .

مقوم جمع مقومات وهو ما يؤسس الشيء عليه في المبنى والمعنى، ومادام لكل بناء مادي ومعنوي مقوماته فإن السنن لم تخرج عن هذه القاعدة، ولذا من مقوماتها :

- **المنطق**: إن لفظ المنطق مشتق من النطق، ولكن يبدو أن دلالة المصطلح أنست الباحث والقارئ المعنى اللغوي وغيبته دلالة المصطلح فأصبح يتعامل معه من دون النظر إلى معناه اللغوي، وقد تكون دلالة المصطلح تعني جملة القواعد التي بنيت عليها العلوم والمعارف لتقدم للعقل محججة ومدللة ليقبلها فأصبح المنطق يؤدي وظيفته من خلالها، وبما أن السنن بمفهوم ما يرادف القانون هي الأخرى تسعى لتكون لها القابلية العقلية لدى الإنسان، فقد كان المنطق من مقوماتها ولما تقتضيه من ترابط بين الفعل والفاعل والمفعول، ولما تلزم به النهايات من اقتضاء بداياتها، والنتائج من إعداد مقدماتها.

ولكن قد يتعطل أداء المنطق في منظور الإنسان العقلي وتنحل أحكامه وتتبعثر حيثيات أبجدياته حين تخرج السنن من حكم العادي إلى الخارق فيما يسمى بالمعجزة أو الكرامة والتوفيق والحظ وما سواه من موضوعات الخوارق، وهي حقائق لا يحكمها المنطق الإنساني العادي وإن قبلها العقل باعتبار أن العجز عن الإدراك إدراك، وهو عالم آخر محكوم بمقتضيات سنن أخرى لأن المشيئة الربانية لم تترك شاردة ولا واردة سائبة حيث لكل حكمه ضمن دائرة المشيئة الربانية المطلقة مثلما لكل سبب مسبب ولكل حدث حديث.

- **السببية**: يبدو أن السبب غير مدروس بقدر كاف إلا في الفقه وأصوله عندما تعرض الفقهاء له، فعرّفوا أنه ما لا يحدث من تلقاء ذاته لأن الذي ينشئ المسببات ينشئ أسبابها وهو الله الذي يجعل للأسباب أسبابا مثلما جعل الإنسان إنسانا وجعل الحيوان حيوانا وأي شيء شيئا في إطار ذاته

وصفاته، بمعنى أن الأسباب لا تحمل صفاتها ولا تؤثر بها بذاتها وإنما تؤثر بأثر آخر من خارجها.

وهذه نظرة إيمانية فلسفية تعليلية يدخل جوهر حقيقتها في إطار معنى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[1] وهذا في سياق ما يصيب الإنسان من خير وشر، وهذا تفسير يتوافق ونظرية مفهوم السنن حيث هي الأخرى أقسام: سنن جبرية حتمية وسنن عادية اختيارية وأخرى سنن خارقة، فالأولى لا خيار للإنسان من السير في مجراها وتطبيق أحكامها عليه، أما الثانية فله فيها الخيرة من أمره لأنها جملة خيارات تؤدي وظائفها وفق مقتضيات مشيئة الإنسان واختياره، ومن هنا ترتبت المسببات على أسبابها ترتيبا منطقيا ضروريا، بمعنى أن الأسباب إن لم يكن لها فاعل فلن يكون لها مفعولا أي أثرا ودورا، بل لن تنبعث الأسباب إلا بمسببات أي بفعل فاعل والذي الأصل أن يكون الإنسان ولكن في إطار المشيئة الربانية.

وأعتقد أن من أفضل ما تعرف فيه مقومات السنن السببية مثل الشرطية، ولعل سنن قصة التمكين لدى ذي القرنين في الأرض الذي أوتي من كل شيء سببا: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ

١ـ سورة النساء، جزء من الآية ٧٨ .

بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا
﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ
ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا
﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا
بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴾[1] ... يبدو أن هذه الآيات تستحق دراسة بل ربما دراسات لتستخرج فوائد الأسباب والمسببات في عالم المستقبل.

ولكن هذه الدراسة التي بين يدي السنن تقصد بيان ما حققه ذو القرنين من أهداف ثلاثة لإتيانه أسبابها وأسباب كل شيء وجملة «وآتيناه من كل شيء سببا» تفيد المطلق أي مجالات عالم الأسباب كلها كانت في قبضته بين يديه وإن عمل ذو القرنين من خلال ثلاثة منها فقط هي: أسباب بلوغ مغرب الشمس وأسباب بلوغ مطلعها وأسباب بلوغ ما بين السدين، واشترط على القوم الإعانة بقوة، مع الإيمان أن مصدر إتيان الأسباب هو الله ومسؤولية الإنسان الإتباع ثم الإبداع.

إذاً فالأسباب سنن مؤدية، مثلما تقص قصص ذي القرنين عندما مكّن الله له في الأرض وأتاه من كل شيء سببا، فاتبع سببا بلغ من خلاله مغرب الشمس، ثم اتبع سببا آخر أبلغه مطلع الشمس، ثم اتبع سببا حقق به ردم ما بين السدين، ومن هذا تبدو أهمية الأخذ بالأسباب وهي ملتزم من ملتزمات مفهوم السنن ومقوّم من مقوماتها والتي لن تتحقق غاية من الغايات إلا بتوافرها، ولكن لماذا أغفلت الدراسات بل تفاسير القرآن الكريم آليات الأسباب كمناهج في البعث الحضاري وتجديداته، واكتفت بتناولها من جانبها الفلسفي أكثر من غيره وإلى جانبه السبب في الفقه، فأمر يدعو إلى التساؤل ويبدو أنه يدخل ضمن إطار فكر التخلف الحضاري الذي ساد

١سورة الكهف، الآيات: ٨٤....٩٩ .

أمما فصارت تفكر فيما لا يبنى عليه عمل بعدما كانت لا تأبه بفضول الفكر وإنما تحرص على ما يحقق غايات التحضر ويدفع مشروعاته إلى الأمام والتقدم والازدهار.

الشرطية: مع ما بين مفهوم الشروط والأسباب من تداخل، إلا أن الشرط أمر يتوقف عليه وجود حكم يلزم من عدمه عدم الحكم، ولا يلزم وجوده وجود الحكم، فالوضوء من شروط صحة الصلاة، ولكن قد يتوضأ مؤمن بل إنسان ما فلا يصلي، أما السبب فإنه يلزم من وجوده وجود الحكم، إلا إذا وجد مانع[1]، بمعنى إذا كان وقت الصلاة وجب أداؤها، وهذا ما يفصح عن طبيعة التداخل بين السبب والشرط، فكأن الشرط سبب مع وقف التنفيذ، والسبب شرط مع التنفيذ، ولذا عمّقت الفلسفة درس الشرط والسبب لحساب الفقه، وإن أدخلتهما بؤرة اهتمام جدل التعريف أكثر من واقعية العمل.

ويبدو أن دراسات علوم معرفية، كالنحو والفقه رغبت بذاتها في تناول الفلسفة لها، فجمعت مادتها من النظرية والتطبيق، وكانت وسائل لغاياتها وغايات في ذاتها، وأن منطق الشرطية وتطبيق حكم الشرط تصنعه أدواته فيما بين فعل الشرط وجوابه، وأمثلة ما تقتضيه أداة الشرط كثيرة في الأسلوب العربي، ولاسيما في النص القرآني التي تعني من الناحية المنطقية إلزام تحقق جواب الشرط لتحقق فعله، كالذي في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾[2] و﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾[3].

١-محمد أبو زهرة: أصول الفقه، ص٤٧.

٢- سورة الطلاق، الآية ٢ .

٣- سورة الطلاق، الآية ٤. ٥.

ولكن يبدو أن الفكر الإسلامي غفل في موقع آخر عن حقيقة أخرى هي الوعود[1] المشروطة مثلما يتضح من آيات كثيرة ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾[2] و﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[3]، ولقد كانت هذه الآية بشرى لمجاهد جزائري مطارد ليلا أثناء حرب التحرير في الجبل فرأى قائلا في منامه يتلو عليه هذه الآية فقام يبشّر رفقاءه أن استقلال الجزائر صار قاب قوسين أو أدنى، ثم ما لبث إلا قليلا حتى استقلت الجزائر فتحققت رؤياه.

ومن دون الإطالة في تفسير هذه الآيات وشرح مفرداتها والنزول إلى ميادين تطبيقاتها وتفسيرات الدهر لها، يتبيّن أن الذي يربط بين فعل الشرط وجوابه وعد صادق كالعقد الوثيق بين فعل الشرط وجوابه، بمعنى إذا تحقق فعل الشرط لزاما يتحقق مشروطه، والوعد في القرآن الكريم موضوع واسع من صميم السنن وروحها، هو الآخر يرد في صيغة العقد، أي واعد وموعود، كالفاعل والمفعول، ولن يكون الموعود إلا إذا كان فعل الوعد، مثلما لن يكون مفعول إلا بعد توافر فعل الفاعل، وصيغ هذه الحقيقة كثيرة، قد يلتمسها الباحث، ويتتبعها في آيات أخرى.

وأعتقد أن حرص دراسات السنن على التزام الواقعية والعملية سيصرف تناول الفلسفة عن دراسات علوم ومعارف كثيرة لمبالغتها في الفضول، مما أدخلها منطقة لهو الحديث الذي قد يكون بمعنى السفسطائية التي معيار نقدها الفلسفي منطق الواقعية، حيث القول من دون عمل والنظرية من دون تطبيق وهو ما تنتفي فيه مسؤوليية أعمال الإنسان على أقواله وأفكاره دون أن تستغني عن جدلية مبررات الفلسفة، ومن منطق هذه الحقيقة

---

١ – الوعد في القرآن بحث مذكرة تخرج، إشراف الدكتور محمد هيشور.

٢ – سورة العنكبوت، الآية ٦٩

٣ – سورة الأنبياء، الاية ١٠٥ .

وما يناظرها يكدح لتأسيس نظرية مصطلح السنن ومفهومه وبناء مقوماته وتحديد وسائله ومقاصده ومجالات بحوثه.

وهذا مما يفتح العلاقة بين مفهوم السنن ومقوماته كالمنطق الذي تربطه به الضرورة المنهجية مثل الذي بين المقدمات ونتائجها، وبين العلل ومعلولاتها من غير حتمية، ومثل الذي يؤلف بين أركان التشبيه من مشبه ومشبه به، وأداة التشبيه ووجه الشبه، وكالذي في باب القياس في الفقه من إلحاق أمر مجهول غير منصوص على حكمه بأمر آخر معلوم منصوص على حكمه، لاشتراكهما في علة الحكم من باب الخضوع لحكم التماثل بين الأمور، للتساوي في العلة، إلى آخر ما بين الأشباه والنظائر، وإلى ما يتحاكم إليه في معيار المسائل ومنطقه بالإحالة عليه.

- **العلمية**: لقد سبق طرق العلمية في مبحث سابق من وجهة أخرى هو العلم غير هذه التي تبيّن مضمون العلمية ولاسيما من منظور الرؤية الإسلامية، ومنها أن العلم ما نفع الإنسان وأسهم في سعادته بحظ وافر بأسلوبه وإجراءات أدائه التي تخضعه لأحكام التجربة فتثبت حقائقه صوابا سواء في عالم المادة أو المعنى أو تثبت أخطاءه التي ربما أوهمت من كان يراه حقا وصوابا، وهذا مقصد من مقاصد مفهوم السنن وجزء من بنائه الذي يجري وجهة نظره من خلال مقوماته ليتبيّن الصواب من الخطأ والحق من الوهم حيث ترجمة الشيء وتحويله من موقع إلى آخر هو ما يراد منه فيظهره على حقيقته هذه أو تلك.

آليات ترجمة مفهوم السنن إلى الواقع: يبدو أن معنى الترجمة لفظ قد ضاق معناه لدى بعضهم حتى صار يعني تحويل كتاب أو مقال أو وثيقة من لغة إلى أخرى فقط، ولكن لفظ الترجمة ومصطلحه أكبر من هذا ويتوسع ليستوعب تحول الشيء كله من ... وإلى ... فيدخل ضمنه تحول الأقوال إلى أفعال والنظرية إلى تطبيق، وكل ما يقصد تحويله ومن وضع إلى آخر

مرغوب فيه مثله أو دونه أو خيرا منه إن على مستوى المكان أو الزمان أو التقدم الحضاري وازدهاراته، ولذا فإن تحويل مفهوم السنن من ثقافة فكرة إلى عمل وتنفيذ هو ترجمة له، ولكن ما هي أدوات ترجمة مفهوم السنن؟ لأنه ما من شيء يرغب في تحويل إلا وله أدوات تحويله ونقله تعتمد وسائل ترجمة وآليات تحقيق مثل ترجمة مفهوم السنن.

- **محاولة تقويم**: يبدو أن تدوين السنن علم ينبغي أن يكون كتدوين العلوم الأخرى مثل علوم القرآن والحديث والفقه والتوحيد، حيث علم السنن من أهم العلوم وأنفعها لإحالة القرآن عليها في مواضيع كثيرة منه لئلا يحتج على أن تدوين السنن بدعة وكل بدعة ظلالة وكل ظلالة صاحبها في النار لعدم توين رسول الله ﷺ والذين معه العلوم، وإن كان مما لاشك فيه أن الصحابة رضوان الله عليهم اهتدوا إلى السنن وهدوا من خلالها إلى غيرها في إبداع الحضارة هديا جميلا لعلمهم بكثير من مراد الله من ذكرها في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف، وظل الأمر على ذلك يطفو حينا ويخبو حينا آخر إلى أن تشكل تيار الاهتمام بالسنن في العصر الحديث بعد عبد الرحمن بن خلدون وإن نشأ على مستوى الفكر والكتابات فقد بدأ يدخل دائرة العلم والأكاديميات، وإن كان المهتم الأول بالسنن ودراستها بعد القرآن الكريم عبد الرحمن بن خلدون فإن الفضل في تجديد الاهتمام بالسنن في العصر الحديث يرجع إلى مالك بن نبي رحمه الله[1] ولاسيما في مجال الفكر، وإن لم يفرد لمفهوم السنن كتابا أو حتى يخصه ببحث، وذلك دأب كثير من رواد بواكر الاكتشافات الأولى، أما على مستوى التفسير فاهتمام محمد عبده الأول واهتمام سيد قطب الثاني وعنهما تأسس في التفسير اهتمام الآخرين بالسنن، وإن مثل سيد قطب إلى محمد عبده كمثل مالك بن نبي لابن خلدون، حيث بهم أسس اهتمام السنن لما وفروه من مادة معرفية زرعت أفكار السنن في الفكر الإسلامي زرعا وعنهم أخذها آخرون،

---

١ - توفي سنة ١٩٧٣م.

ومادام منطق السنن ذاته لا ينفي فضل الأولين على الآخرين فقد انتهت أستاذية السنن إلى مالك بن نبي ومن خلاله إلى تلاميذه.

ومن ثمّ أمكن تقويم دراسة الاهتمام بمفهوم السنن ونقده، ومن شأن معارف الأفكار الجديدة ومفاهيمها أن تنشأ أفكار في كتابات روادها ومقالاتهم الصحفية حتى إذا عرفها الباحثون دخلت دائرة الأكاديمية والبحث العلمي الذي يؤسس لها، ويوضح ملامحها، ويبني مقوماتها، وهذه في ذاتها سنّة من سنن ميلاد الأفكار ونشأة مفاهيمها وانتشارها ووعيها.

وأحسب أن السنن وأكثر أفكارها ونظرياتها مازالت في مرحلة النشأة والتأسيس، وإن دخل جزء منها مرحلة التعريف والانتشار، ومن ثمة بدأ يتشكل تيارها وينمو حيث استقطب كتّابا ومفكرين أعدّوا فيه بحوثا، ولعل من أبرز المفكرين المحدثين الذين يشكلون تيار البحث في فقه سنن الوجود، وينظرون له من أجل المشروع الحضاري، ويعتبرونه عامل تقويم محاولات النهضة الحديثة، وضبط حركاها الثقافي والاجتماعي، وسيرها الحضاري.

- **مالك بن نبي**: أعتقد أنه المعلم الأول بين المحدثين في دراسة مشكلات الحضارة وسنن قيامها وسقوطها وتداولها بين الأمم، حيث هو رائد نظرائه من معاصريه والذين سيأتون من بعده في ميدان الفكر الحضاري الحديث لما أخذه عنه آخرون وتأثروا به، فمثله كمثل عبد الرحمن بن خلدون في سلف الأمة القريب، وإن تمايزا من حيث أن ابن خلدون انتشر فكره في العالم الإسلامي وفي الغرب فتتلمذ على أفكاره أصحاب ملل أخرى، أما ابن نبي فمازال فكره يزحف على خريطة العالمين، ولكن أكثر تلاميذه من الإسلاميين، بينما ابن خلدون تبنت أفكاره إيديولوجيات كثيرة، فأخضعته لتأويلاتها، وقرأته من وجهات نظرها كالاشتراكية والقومية وغيرها، والموازنة بين ابن خلدون وابن نبي بحث شيق[1] يستحق اهتماما أكبر يفسح

١- مثلما ذهب الكاتب الطيب بن إبراهيم فيما صدر عن دار المدني الجزائر .

لأفكارهما في المجلس، ويبقى لابن خلدون فضل السبق في اكتشاف سنن الحضارات في القرآن والكون، ولابن نبي فضل إعادة الاكتشاف، مع إضافة جديد في إطار تطورات العصر التي قد يكون من أكبر ما يحمد لها أنها وفرت وسائل نشر آراء وأفكار نظريات العلماء واجتهاداتهم.

ولذا تتلمذ تلاميذ مالك بن نبي على أفكاره على مستوى خريطة العالم والذين مازالوا يواصلون رسالته ويزرعون أفكاره، وعن تلاميذه تتلمذ آخرون مازالوا هم الآخرون ينتشرون عبر خريطة العالم ولاسيما العالم الإسلامي في تفاوت بينهم من حيث استيعاب فكره في سنن الحضارات وسواها، ومن حيث الحماسة لفكره، والوفاء لصاحبه، وبخاصة الذين تتلمذوا عليه مباشرة والذين مازالوا يكنون له كامل الاحترام[١]، وقد شارك هؤلاء في توجيه ما أعد في فكر مالك بن نبي من رسائل جامعية ولاسيما من خلال الرواية الشفوية[٢].

- **جودت سعيد**: وهو مفكر سوري من تلاميذ مالك بن نبي، ومالك وتلاميذه يمثلون مدرسة لها قسماتها الفكرية المتميزة، ومقولاتها المتفردة في صياغة أفكارها في شكل قوانين أو سنن اجتماعية، باعتبار أنَّ العقل الإنساني محكوم بمجموعة من المعادلات أو السنن المطردة، ورغم أهمية هذه المدرسة وعمق طرحها إلا أنها ظلت من المدارس التي لم تنل حظا كبيرا من الاهتمام مع الحاجة الشديدة إليها لاعتبارات قد تأتي في مقدمتها فشل تجارب محاولات النهضة الحديثة مما أخرج مصطلح النهضة الحديثة الثانية إلى حيز الوجود.

ويبدو أن سعيد جودت من أكثر الذين آمنوا بفكر مالك بن نبي فتأثروا به

---

١ - مثل محمد فنيش المفكر الليبي الخبير في صندوق النقد الدولي المستوعب لروح أفكار مالك بن نبي فيما يبدو أكثر من غيره، أنظر جريدة الخبر الجزائرية .

٢ - وقد حاورت بعضهم في الجزائر وخارجها أيام إعداد رسالة في فكره وحوله فأنقذت من خلال الحوار أفكارا كثيرة له لعل لولا هذه الحوارات لضاعت إلى الأبد ولماتت بموت أصحابها.

فعمقوا جوانب منه، وشرحوا كثيرا من نظرياته ضمن سلسلة كتب له تحت عنوان «سنن تغيير النفس والمجتمع» إلى جانب عبد الصبور شاهين الذي أعتقد أن فكر مالك بن نبي يمتد بقوة في فكره، ويتداعى على سلوكيات مواقفه الفكرية ولو من غير إقرار أو وعي منه إلا ما يفلت من قبضة الأنا ومراقبتها حين الاقتضاء، فيركزّ حديثه على سلبيات مالك بن نبي ويبدو قدحه أكثر من مدحه له[1]، ولكن الحقيقة تفرض ذاتها وتبديها لأولي النهى، ومع أنّ عبد الصبور شاهين مثله كمثل سواه من المفكرين الذين اتخذوا من أساتذتهم مواقف ربما مخالفة لهم في الرأي، فلا ضير في هذا مادامت العبرة بالمضمون لا بالشكل كما هي بالفعل لا بالقول وأن الناس ليسوا نسخا طبق الأصل لبعضهم البعض.

ويظل عبد الصبور شاهين من الذين حملوا الفكر الإسلامي الحديث باهتمام شديد وفعالية حماسية أشد، وإن إبداء رأي في مالك بن نبي من واحد من كبار مفكري العصر الحديث ولغوييه ومصدر مقرّب منه مثل عبد الصبور شاهين له اعتباره في نقد مالك بن نبي وتقويم فكره، وإن كان فضله لا ينكر على مالك بن نبي لما ترجمه له من كتاباته، بل حتى حفظ بعض سيرة يومياته وسلوكياتها التي أفاد بها الباحثين في فكر مالك بن نبي بما يعينهم على فهمه، مما لم يعبأ به التدوين الرسمي لحياة المفكرين[2]، ولاسيما الذين فاتهم شرف معاصرة مالك بن نبي والتلمذة المباشرة بين يديه.

ويبدو أن عمر كامل مسقاوي الذي كان له حظ أمانة توصية مالك بن نبي لم يقدم لفكره خدمة كبرى إلا من باب الاهتمام بمؤلفاته، ولذا لا يعرف له فضل كبير في شرح أفكاره كالذي عرف لعبد الصبور شاهين في الترجمة إلى جانب استيعابه لفكره وتفاعله معه ونضحه به .

---

١ - أدركت هذا في حوار معه في دار العلوم بجامعة القاهرة عام ١٩٨٥م .

٢ - إبراهيم البعثي: شخصيات إسلامية معاصرة، ج٢، دار الشعب، القاهرة، ص١٩٠ وما بعدها.

وبحكم الوصية، فقد عرف عن عمر مسقاوي لمالك بن نبي أنه حفظ عناوين كتبه، وتواريخ صدورها وما تعرضت له، يحفظ أفكاره بالقدر ذاته، وإن جرّت عليه هذه الوصية مشكلات كثيرة، تصدى لها من خلال مهنته في المحاماة، ولعله لهذا السبب آثر مالك بن نبي عمر مسقاوي من دون سواه من تلاميذه، ولعل الوصية هي التي رشحته ليكون مقصد دارسي فكر مالك بن نبي، فعرّف به حين صار مرجعية فيه، وعرف به حين اقترن اسمه باسمه، وفهم روح فكره، مثله في هذا وذاك كمثل عبد الصبور شاهين دون غيرهما ممن عاصروا مالك بن نبي، واحتكوا به، أما الذين تعرّفوا على مالك بن نبي من خلال كتاباته وتلاميذه فثقافتهم فيه لها نكهة أخرى، قد تمايز ثقافة معاصريه بالإيجاب والسلب، مما قد يكون له موطن آخر من الموازنة إن شاء الله .

- **عماد الدين خليل**: المؤرخ والأديب والمفكر الذي أفاد من فكر مالك بن نبي مثل غيره من معاصريه إفادة جليلة إلا أن توسع اهتماماته ولاسيما تحليلاته التاريخية وإبداعاته الأدبية مما قد يكون حال بينه وبين التعمّق في فكر مالك بن نبي أكثر، وكأنه لم يقدم الإفادة منه ضمن برنامج سلم أولويات اهتماماته، إلى جانب أن دراساته الأكاديمية التي قد تؤثر اعتماد المصادر أكثر من امتداداتها، جعلته يتخطى تحليلات مالك بن نبي الفكرية واهتماماته بسنن مشكلات الحضارة إلى الاهتمام المباشر بابن خلدون المفكر الأب أو المعلم الأول للفكر الحضاري والعمراني[1]، ومنه مسألة السنن الذي استمد هو الآخر شخصيته العلمية، ومفردات معارفها من القرآن الكريم، وهذا عرف أسسه التلاميذ الذين يتخطون أساتذتهم إلى أساتذتهم كعلاقة الأحفاد حين تتوثق بالأجداد أكثر ولو من خلال الآباء حتى ربما يتجاوز بعضهم أساتذة الأساتذة ولاسيما في العرف الإسلامي إلى المصدر الأول القرآن الكريم والسنة النبوية وإن ظل بعضهم ذرية بعضها

---

١ - عماد الدين خليل: ابن خلدون إسلاميا، ط٢، دار المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥م .

من بعض، وإن كان هذا لا يعفي عماد الدين خليل من الإفادة من مالك بن نبي ومثله ولاسيما فكرة السنن، لما تمليه عليه اهتماماته بمشكلات الحضارة ونهضة الأمة العربية الإسلامية وبخاصة من الوجهة التاريخية، وفلسفتها المعاصرة، حيث تؤدي أفكار مالك بن نبي أثرها الشديد في صنع حدث النهضة الحضاري إلى جوار آخرين من الذين كانوا معه ومن قبله ومن بعده.

- **عبد الحليم عويس**: لقد كان احترام عبد الحليم عويس لمالك بن نبي احتراما شديدا، فأنزله منزلة رآه أهلا لها، حتى رصد أفكاره وتحركاتها على الخريطة العالمية، وعدّه أبرز معلم يضيئ هذا المنعطف الخطير من تاريخ الأمة، حيث يمثل الطريق الصحيح، لفقهه أركاناً أساسية في القرآن، ومنها فقه تجربة التاريخ وسنن الحضارات، وعدّ فضله كبيرا في الفكر الإسلامي الحديث، مما كوّن له تلاميذ، هم الآن أساتذة لهم تلاميذهم.

ولا ترغب هذه الدراسة في تتبع أثر أفكار مالك بن نبي في الحياة المعاصرة، وكيف زرعت من خلال كتاباته وتلاميذه وما عدّ فيه وحوله من دراسات على مستوى خريطة العالم، ولاسيما الخريطة الإسلامية منه، وقد أصبح له ذكر في كل مقام ولسان صدق في الآخرين، حيث آراؤه شواهد ومواقفه شهادات ووجهات نظره استدلالات لدى مفكرين فيما يذهبون إليه فيعززون بها آراءهم ووجهات نظرهم في تميز الطرح بين الخطأ والصواب.

وأعتقد أن عبد الحليم عويس قد اعتبر مالك بن نبي مدخلاً من مداخل البحث في الفكر الإسلامي، وأسباب تأخر أمم، وتقدم أخرى، ومفتاح بحث في نهضة الشعوب، حيث من أفكاره ظهرت كتب ودراسات تشرحها وتزيد. وبموت مالك بن نبي شغر مقعد كبير في الفكر الإسلامي، وقد كان يبصر ما وراء عالم الأشياء، ويردّ الجزئيات إلى قوانينها، ويعطي لمعنى الحضارة أعماقه الضاربة في التاريخ والفكر والبيئة والإنسان وآفاق الزمان القادم،

وإذا كان لمالك بن نبي تلاميذ فإن لأفكاره بيئات أنتجتها وأنضجت فكره[١] وأقطاراً احتضنتها[٢]، فعرف له تلاميذ كانوا كزملاء له، ولذا فإن أبرز تلاميذه في الجزائر عمار طالبي وعبد اللطيف عبادة ورشيد بن عيسى وآخرين على شاكلتهم، وفي مناطق أخرى مثل إيران احتذى حذوه علي شريعتي في كتاباته التي بلغت نحو مائة وعشرين كتابا وبخاصة كتابه العودة إلى الذات[٣].

ويشهد عبد الحليم عويس لمالك بن نبي أن له فضلاً كبيراً في عرض مشكلات الحضارة والبحث عن حلولها، وبخاصة في ربط المسلم بالسنن من خلال كتاباته مثل «شروط النهضة» و «بين الرشاد والتيه» التي بها بدأ العقل المسلم يقتحم عالم السنن التاريخية والاجتماعية، لتفسير أزمة الأمة الحضارية، حتى أصبح يرتّب ذاته، ويعرف أولوياته ويتوثب نحو مقومات التقدم الحضاري أكثر.

ولو اعتبرت مسألة تتبع أثر المفكرين بعضهم في بعض من أولويات الاهتمام لكان مالك بن نبي أولى الناس اهتماما بها ولبلغ منزلة عالية ومرحلة متقدمة من الأثر في الآخرين، وإن كان هذا من برنامج النقد، وطبيعة التقويم، إلا أن المسألة لم تأخذ حظها في الميدان، ولم يربط ما بين عظماء محدثي الأمة الإسلامية وقدمائها، حيث الذي بين مالك بن نبي وعبد الرحمن بن خلدون ولاسيما في موضوع السنن كالذي بين رشيد رضا ومحمد عبده في التفسير، وكالذي بين سيد قطب ومصطفى صادق الرافعي في الأدب وكالذي بين توائم آخرين مثل الذي بين عبد الحميد بن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي شقيقي النهضة في الجزائر ومعدّي ثورتها وإن ولد عبد الحميد بن باديس قبل البشير الإبراهيمي، فهؤلاء وسواهم من

---

١ – بيئة الجزائر وأوروبا فرنسا بخاصة.

٢ – المشرق العربي وبخاصة سوريا ولبنان ومصر إلى أن عمّ فكره

٣ – علي شريعتي: ترجمة إبراهيم دسوقي شتا وحسين علي شعيب، دار الزهراء للإعلام، القاهرة..

الذين على دربهم كانوا كأنهم أخذوا بتوجيهات مصلحي الأمة الإسلامية قديمهم وحديثهم من الذين امتدوا فيهم فنفذوا ما أخذوه عنهم وطوروه وأضافوا إليه حتى كاد يبلغ البنيان مجده وتكتمل أدواره، وجاء من بعدهم من يضيف على الإضافة ويزيد على الزيادة، وإن كان الزمان يشحّ في الجود بعظماء التاريخ وكبار رواد النهضات ومازال الغيث ينهمر إلى أن تهتز الأرض وتنبت من كل زوج بهيج.

- **آخرون**: ومن سنن الله ألا يتوقف عطاء البشرية عن إنجاب قادة النهضات من العلماء والمفكرين المصلحين والمربين وسواهم، ولكن من السنن ذاتها ندرة المعادن الغالية وذوي الهمم العالية، وبناءا على هذا فلن تغلق قائمة الانضمام إلى تلاميذ مالك بن نبي، مثلما لن تغلق قائمة الانضمام إلى نظرائه من المفكرين والأدباء والعلماء الآخرين، ولن تقف أفكاره على حدود مستويات من الخريطة العالمية في الانتشار الأفقي والعمودي إنما ستجتازها من غير تأشيرات من أحد، لأن مصداقية واقعيتها، وصلاحية فعاليتها هي التي تكتب لها الانتشار، وكأنها تفرضها على الآخرين لما توفر لها من مقومات العالمية، مثلها كمثل أفكار آخرين لعلماء وأدباء كثر، مازال ينضم إلى قافلة تلاميذهم تلاميذ جدد كل حين من كل عصر على طريق إعداد الرسائل الجامعية الأكاديمية وعلى طرق أخرى إعلامية وغير إعلامية.

حيث ينضم إلى فكر مالك بن نبي مثل سواه من أهل الفضل والريادة من كل خلف عدوله[1] ، وإن كان الأمر يحتاج إلى توجيه من ذوي القدرات المعرفية إلى الأهم من أفكار مالك بن نبي مثل فكرة السنن، ثم إلى المهم، ثم إلى ما دون ذلك، ولكن غياب التخطيط والبرمجة كثيرا ما يفوّت فرص التعرف على الأهم من بين المهم ثم إلى ما دونهما .ولاسيما أن التحكم

١- إشارة إلى حديث النبي ﷺ «إنما يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين» رواه البيهقي .

في مناهج آليات خريطة البحث العلمي في العالم الإسلامي مازال لم يبلغ مستواه المرجو، ولو حصل هذا لاتخذت قرارات إجرائية تجعل السنن ضمن مقررات برامج تعليمية ولاسيما على مستوى الجامعة، وبخاصة مواد العلوم الاجتماعية، مثل علم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ والفلسفة .

ثم إن محاولة إعادة النظر في أطروحات النهضة العربية الإسلامية الحديثة التي تقصد التعرف على ما لها وما عليها في إطار ما أصبح يسمى أسئلة النهضة، ينبغي أن يؤسس على قواعد سنن الحضارة في إطار محاولات ما أصبح يبدع تحت مصطلح النهضة الثانية، بعد ما كاد يفشل مشروع النهضة الحديثة الأولى، التي ربما بدأت تؤسس على إيجابياتها ونجاحاتها النهضة الحديثة الثانية، مثلما أصبح يطرح مصطلح الاستقلال الثاني على مستوى الأقطار، ويلمّ مكوناته التي منها توكيد هوية الانتماء العقدي والحضاري للقطر، واعتماده على ذاته، واحترامه حس مواطنيه الشعبي .

ويبدو أن محاولات تقويم مشروع نهضة الأمة العربية الإسلامية الحضاري يستحق اهتماما أكبر، وتخطيطا أدق وأشمل، يكون منه تخصيص فرق بحث للإجابة على أهم أسئلة النهضة التي تندس فيها أهم أسباب الفشل، والتي منها تعدد منطلقاتها التي بدأت من إيديولوجيات الآخر الحلول المستوردة، فكان منها من انطلق من الفكرة القومية، ومنها من انطلق من الفكرة الاشتراكية، ومنها من انطلق من الفكرة الليبرالية، ومن حاول التوفيق أو التلفيق بين جملة من الإيديولوجيات في الإطار الوطني في الوقت الذي غابت فيه مقومات أساس من منطلقات نهضة الأمة الإسلامية الحضارية، ومنها الانطلاق من العقيدة الإسلامية، ومقتضياتها التربوية التكوينية، وشمولية طرحها الثقافي والعلمي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي، المهمة التي تكلفت بها نخبة من شعوب الأمة الإسلامية، والتي أصبحت

تخضع لها الأنظمة الرسمية تحت إلحاح الداخل، ومطرقة شعار الإصلاح الخارجية مثل تجربة تركيا وماليزيا، ومازال يتداعى من توالد ذاتي لتجارب أخرى غير مستنسخ بعضها عن بعض في أقطار العالم الإسلامي ولاسيما بعد ما صار يعرف الربيع العربي .

ومن هنا بدأت تؤسس ملامح النهضة الثانية التي ينبغي أن تشرك طاقات الأمة كلها وتوظفها من أجل تحقيق مشروعها الحضاري في طبعته الثانية، وإن مازال لم تتضح جل ملامحه، ومصطلحات استعماله، كالتي تبنتها الحركة الإسلامية في أدبياتها، مثل الصحوة والاتجاه الإسلامي، ولكن حتى مصطلح الإصلاح الذي قد يكون عنواناً على مسمى النهضة الثانية ليس غريبا على أدبيات الحركة الإسلامية، بل من صميم استعمالاتها، ولاسيما التاريخية الحديثة منها، وإن المجال مفتوحا على احتمالات أخرى قد تكون مفاجآت فاتت ملامحها رصد المراقب والناقد الحضاري .

وأعتقد أن مما ينبغي أن تحصن النهضة الثانية به اعتمادها النخبة وجمهرة أفكارها، النخبة التي ينبغي أن تتقاسم وظائف مشروع نهضة الأمة الحضاري بينها، حيث ينتفي تداخل صلاحيات المسؤوليات على مستوياتها السياسية والاقتصادية والعلمية والأدبية والفكرية، والتي ينبغي أن تحظى فيها مسألة السنن بفريق بحث يقوّم من المسار الحضاري للأمة الإسلامية من خلال أحكامها على فشل تجارب، ونجاح أخرى .

ويبدو ليس نهجا جديدا في تجربة الأمة العربية الإسلامية حين تخصّ فرقة أو طائفة أو أمة، فتوكل لها مسؤولية القيام بمهمة إنجاز التنفيذ من خلال قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1] ولقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ

١- سورة التوبة، الآية ١٢٢ .

﴿وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[1]

يفهم من الآيتين ضرورة التوجيه نحو الاختصاص الذي هو تحديد مسؤوليات، كأنها تصبح فرض عين حين الاقتضاء ضمانا لعدم التسيب والإهمال، مثلما هو أمر الطائفة التي أوكلت لها مسؤولية النفير، للتفقه في الدين من أجل إنذار قومها للحذر الذي تفيده صيغته العموم، لأنه جاء نكرة مما يبقيه مفتوحا على احتمالات المكروهات كلها .

أما الآية الثانية فنصت على تكليف أمة من الأمم لمسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما مجالان واسعان يحتاجان إلى فقه عريض ودقيق وتحمل مسؤولية كبيرة، قد ترقى إلى مسؤولية الوزارة التي قد يكون عنوانها وزارة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أما مصطلح أمة فإنه قد يكون بمعنى الأمة الحقيقي، وقد يكون كناية على جماعة تشبه الفريق.

هذا وإنّ السنن ماضية في أداء دورها الحضاري بين الأمم عن طريق التداول والتبادل، وأنه ما سقطت حضارة إلا وقامت أخرى وأنه ما تولّى قوم إلا واستبدلوا بغيرهم ثم لا يكونوا أمثلهم فيما كانوا فيه من تخصص علمي أو فكري أو سياسي إن على مستوى الأفراد أو الشعوب والأمم. وهذا ما يجعل موضوع التداول الحضاري موضوعاً جديراً بالبحث والدراسة ضمن مفهوم السننق الذي تشرحه المباحث القادمة.

١- سورة آل عمران، الآية ١٠٤.

الفصل الرابع

السنن العادية
وإبداع الفكر الحضاري

- **السنة العادية**: هي السنن الجارية في واقع الناس، وبهذا الاعتبار، كانت السنن العادية أوسع مجالا وأشمل واقعا مثلما هي في متناول الجميع، وكل إنسان مسؤول عن نفسه مسؤولية الإبداع الحضاري من موقع وظيفته ومهمته.

والعادية من العادي، وهو المألوف المعتاد الذي لا جديد فيه، ولا يكون الشيء هكذا إلا إذا تقادم وصار يتكرر بين حين وآخر. وبما أن هذا القسم العادي أو الجاري من السنن يطرد ويتكرر سمي عاديا، وفي استخدام آخر سمي الجاري لجريانه في حياة الناس كل حين، وإن كانت السنن الجبرية الحتمية هي الأخرى تتكرر إلا أن قسما من السنن الخارقة غير قابل للتكرار كالمعجزة التي انتهت في مفهوم العقيدة الإسلامية اللغوي والاصطلاحي، وإن مازال يتكرر مثلها كالكرامة والمعونة والتوفيق في إطار مفهوم السنن من جهة، والتصور الإسلامي البعيد عن شوائب الخرافة والشرك من جهة ثانية.

وأعتقد أنه لو صنفت أقسام السنن وفق مفهوم منطق كل صنف، ثم أخذ كل قسم حظه من مفهوم القسمة العام لما بقي شيء خارج دائرته، لأن الوجود كله ضمن قبضة أحكام السنن وسيطرتها حتى حين تتفرع السنن إلى أجزائها وجزئياتها لاقتدار مشرّع السنن على وضع سنة لكل جزء بل سنة لكل جزئية منه، حيث السنن كالرسم التشكيلي التلقائي الذي يبدع صورا تبدو جميلة أو تقرأ من البعض على أنها جميلة كيفما قرئت، ولذا فإن هذه النظرة تجزم أنه لا فوضى ولا عشوائية في حدث الحياة ومسار التاريخ، ومن ثمة لا صدفة في حركة من حركة مفردات الوجود وإنما محكومة كلها بقانون تؤدي من خلاله وظيفتها التي أوكلت لها، وكأن أقسام السنن وأجزاء مفهوماتها تتعاون من أجل الصالح النفسي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي للإبداع الحضاري واختراعاته.

- **بين أقسام السنن**: مادام هناك قاسم مشترك بين مفهوم السنن،

فإن لكل قسم منه ما يتميز به عن غيره وينفرد به عما سواه من حيث مفهومه الخاص وأداء منهجه في تحقيق غايات وظيفته من منطق خصوصية كل قسم، فالسنن العادية ميدانها الفكر الحضاري الذي يبدع الإنسان من خلاله إبداعاته كلها، ولذا فالمجال الذي تحكمه السنن العادية مجال واسع للفكر وإبداعه العام فيه من خلال اكتشاف سننه في ثناياه ومسؤوليته فيه وفق منطق أداء السبب وتحكماته ومستوجبات الشرط. ولذا سميت بالسنن العادية والجارية واستولت على مساحة واسعة من سلوك الإنسان وأعماله وإبداع نشاطاته الفكرية والعلمية والعلمية.

أما السنن الجبرية أو الحتمية فيتضح مفهومها من مصطلح لفظها الذي تبدو من خلاله مسؤولية الإنسان فيها ضعيفة بل تكاد تعدم لولا أمانة المسؤولية العامة التي تحمّلها بمقتضى مسؤوليته الخاصة عن تصرفاته وما ينتج عنها، ولذا قد يكون من حسن طالع حظ الإنسان باعتباره سيد الكائنات أن مساحة السنن الجبرية ضيقة بالموازنة مع مساحة السنن العادية لضيق ميدانها في عالم المادة فيما يطلق عليه قوانين الطبيعة أو قوانين الأشياء، حيث ميدان السنن الجبرية الأساس العام مثلما ميدان السنن العادية الفكر الحضاري العام، وإن بدا شق فيما بين العادي والجاري وآخر فيما بين الجبري والحتمي، حيث الحتمية هي ما لا دخل للإنسان فيه كزمان ميلاده ومكانه وهيأته وطبيعة مزاجه كالهدوء والتوتر، أما شطر الجبرية فهو ما يبدع الإنسان من خلاله في عالم المادة فهو آلة الإبداع العلمي الحضاري في الوقت الذي يبدع قسم السنن العادي الإبداع الفكري الحضاري، ولعل أوضح مثال يبين الفرق أن الإنسان مسؤول في السنن الجبرية وله اختياراته مثل المسؤولية ذاتها أو زيادة في السنن العادية، حيث تنتفي مسؤوليته في السنن الحتمية ومثلها السنن الخارقة.

أما السنن الخارقة فتبدو هي الأضيق دائرة والأقل مساحة وكأنها الاستثناء من دائرة السنن العادية ثم الجبرية لتعلقها بعالم الغيب الذي تكاد تنتفي فيه مسؤولية الإنسان ويتعطل أداء عقله، وإلا فماذا عسى الإنسان أن يقول في مفردات الغيب كالمعجزة والكرامة والحظ وقضايا أخرى منه كاد يتوقف اجتهاد العقل فيها وعندئذ انتفت مسؤوليته فيها.

- **بين السنن العادية والسنن الأخرى**: إن تقسيم السنن وتصنيفها لا يعني انفصام بعضها عن البعض الآخر، أو أن كل قسم منها يؤدي وظيفته بمعزل عن الآخر إلا حين الاقتضاء...، إن أقسام السنن الأخرى تؤدي الغرض العام، لأن هناك مفهوما عاماً يجمع بين مفهومات كل قسم وإن اقتضاءات منهجية تحكم الدراسة هي التي عزلت هذه الأقسام عن بعضها البعض الآخر، ذلك من أجل التوضيح وتحديد ميادين اشتغال كل قسم وبيان ما ينفرد به عما سواه، مثلما يبدو أداء السنن العادية في ميدان سلوك الإنسان وأعماله بينما تؤدي السنن الجبرية وظائفها في ميدان المادة كالطب والتكنولوجية لا في ميدان المعنى والفكر ميدان السنن العادية ولا فيما هو خارق للعادة من سلوك الإنسان وأعماله وتصرفاته في المادة أو الروح.

- **بين السنن العادية والجبرية**: إن ميدان السنن العادية مفصول عن ميدان السنن الجبرية، فالأول ميدانه الفكر والتصرف والفعل، والثاني ميدانه فعل المادة والطبيعة، وإذا كانت السنن العادية هي الأصل فإن السنن الجبرية هي ما أدى وظيفته من خلال العقل مسؤول الإبداع والاختراع، حيث الإنسان سيد الوجود المتحكم في أدائه إلا ما كان من أداء السنن الحتمية والسنن الخارقة فإنه خارج نطاق قدرته وتحكماته، ولذا كانت السنن الخارقة استثناء من دائرة السنن العادية،وكان أداؤها هو الآخر استثناء من أداء السنن العادية المتحكم فيه، حيث لا يعبر قضايا الحضارة كالتداول

والتجديد الحضاري إلا من خلال أدائه وتحكماته في أداء السنن الجبرية ومحاولة فهم أداء السنن الخارقة وكيف يصبح ما هو من المعجزة إعجازا قابلاً للفهم والتحكم. ومثله مفردات السنن الخارقة الأخرى كالتوفيق والبركة والحظ وما إلى ذلك.

- **بين السنن العادية والخارقة**: يبدو أن تصور الفكر الإسلامي يؤثر السنن العادية على السنن الخارقة لأنها الأصل الواضح في سلوك الإنسان وأعماله ولاسيما فيما لا يتحول من السنن الخارقة إلى سنن عادية، مثلما أنكر القرآن الكريم على العرب حين طلبوا من رسول الله ﷺ أن يكون الخارق عاديا، وحاولوا الخروج من خلاله عن قانون الطبيعة وسنته الجبرية فيما حكى الله عنهم يوم قالوا له: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[1]، فهنا طلب من الإنسان، ولو كان رسولا، ما لا طاقة له به مما هو خارج قدرته من خلال مسؤولية تحكمه في وظائف السنن العادية.

- **السنن العادية والإبداع الفكري**: قد يجزم كل من يفقه مفهوم السنن العام ويدرك دلالة مصطلحه ويعي ضرورته أنه لا يبدع فكر ولا أدب ولا فن إلا من خلال إدراك سنن الإبداع فيه، ولذا فإن الإبداع ومثله الاكتشاف والاختراع يعني اكتشاف السنن من خلال السنن الجبرية أو الجارية في ميدانه، ومن غير هذا الاكتشاف يظل ميدان الإبداع حقلا مجهولا لا يستوعب إلا إذا توافرت شروط إدراكه وفهمه، ولا يدخل ميدانه

---

١ - سورة الإسراء، الآيات: ٩٠. ....٩٣.

إلا إذا دخل من بابه مما يعني أن السنن مفاتيح كل مغلق وأنوار كل مظلم، وعندئذ تتحقق للاكتشاف أهدافه في ميدان الحضارة العام وفروعه الفكرية والعلمية على حسب مفردات الحضارة في شطريها الإيديولوجي والتكنولوجي.

ولو دامت استقامة تصور فكر الإنسان على الطريقة واستقام عمله عليها حتى دون فترات الأنبياء والرسل، ولم تصبه لوثات من داخله أو تداهمه عاديات من خارجه لتواصل ازدهار الإبداع تواصلا أفقيا وعموديا، ولكن سنن السقوط الحضاري من سنن المشيئة الربانية بالمرصاد ولو بمقتضى تصرف الإنسان ومسؤوليته مثلما أثبتت تجارب التاريخ كتجربة الفكر الإسلامي يوم غزته تيارات فلسفة اليونان أيام المأمون[1] فاستنبتت فيه تيارات الاختراق كتيار فكر المرجئة والخوارج واتكاليات بعض التوجهات الصوفية. ثم عاودته في العصر الحديث أخرى كالشيوعية والعلمانية من خارجه وأخرى من ذاته أنكرت الإبداع باسم أن كل بدعة ضلالة وكل ضلالة صاحبها في النار، الفكرة التي مدّت ظلالها على فكر الإنسان فأثرت على إبداعه ولو من دون وعي .

ويبدو أنه قد صار من خلال هذا إمكان تبيّن علاقة أفكار نظريات مناهج الحياة وتياراتها مع الاستقامة على خط السنن العادية ولاسيما الجاري منها.

وهنا يتدخل الفكر ،وهو حظ العقل من إبداع الإنسان، ليضخ فعاليته في غيره، ولذا كان الفكر في كل شيء أو لكل شيء فكره، حيث عرف الفكر الاقتصادي والفكر السياسي والفكر الأدبي حتى فكر الفكر[2] ولو كان الفكر الفلسفي أولى لأنه الأصل، والفكر الفلسفي هو الآخر حظ العقل

---

١ – توفي سنة ٢١٨هـ.

٢ – على قياس تاريخ التاريخ كتاب لعلي الأدهم، سلسلة كتابك، إصدار دار المعارف، القاهرة.

الأقوى مادام قائما على المنطق والحجة والبرهان والدليل وهي آليات الفكر الأساس، وفي الوقت ذاته هي مقومات مفهوم السنن ومستلزماته التي تعرض هذه الدراسة من خلالها من المنطلق التاريخي نحو المستقبل وما يؤول إليه أمر الحاضر من خلال مؤشرات تدلل على ما هو آت، حيث يستوعب فكر مفهوم السنن أبعاد الزمان للاطلاع على الماضي والتحقق من تحليل مجريات الحاضر تحليلا صحيحا والتطلع إلى المستقبل من خلال ما يبدو من مؤشراته في الواقع.

- **الإبداع بين الفكر الإسلامي والفكر الآخر**: إن الفكر الآخر لا يخرج عن دائرة السنن ولاسيما السنن الجبرية، ولذا استحقت دراسته طرق علاقة ما بين السنن والفكر الآخر بقصد الوصول إلى أنه لولا اكتشاف سنن إبداع أفكار المعارف واختراع حقائق العلوم ما كان شيء من الحضارة، لأنه إذا كان الفكر الإسلامي،ومن خلاله الإبداع الحضاري العام، منسجما مع استقامة السنن الربانية، فإن الفكر الآخر لا يستطيع الإبداع إلا من خلالها ولو فيما توافق والفكر الإسلامي وانسجم في استقامته مع منهج السنن، مثلما يبدو من علاقة مفهوم السنن والصراع في فكر الآخر.

- **السنن والصراع**: ظهرت فكرة الصراع في المجتمعات حين اشتداد الظلم وفقد وسائل علاجه الإيديولوجية فاشتدت مقاومته فكان الصراع. والفكر الإسلامي لا ينكر ظاهرة الصراع حين الانحراف عن الاستقامة على خط منهج السنن ومنطق مفهومها وإنما الذي ينكره ضرورته في الحياة واعتباره وسيلة في قيام الحضارات وأساسياته في مسار حركة التاريخ وصيرورته، لأن الذي ناب عنه الصراع هو دور الإيمان الذي يحيل الحياة إلى وحدة متكاملة بالتودد والتحاب والتعاون: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1]،

---

١ - سورة البقرة، الآية ١٣٧.

فمعنى «في شقاق» :أي في مناوأة ومعاندة[1] بما يشبه معنى الصراع.

والذين لا يعرفون سنن الله في الحياة ولا يدركون منطق مفهومها يعمدون إلى تفسير الأحداث التاريخية والظواهر الاجتماعية بأهوائهم وعواطفهم فتختلف الأهواء، وتتضارب الآراء، حتى تقوم عقيدة الحق الذي لا جدال فيه فينتهى إليه، ويُصحح، بمقتضاه، ما حسبته الأهواء صحيحا ويخطئ ما حسبته صحيحا، فيلتزم الاعتدال في التصور والسلوك،وتعتمد أسباب الظواهر وعلل الأشياء وأساليبها في قضايا الفكر والتاريخ والاجتماع.

ولذا ليس غريبا عن الذين يجهلون سنن الأنفس والآفاق أن يحركوا العداء والبغضاء بين الناس، ويتبنوا الصراع والاقتتال وسيلة من أجل نوايا ومقاصد، ومنهجا في دراسة حركة التاريخ، لأن دعاة الصراع يرون أن النوازع الذاتية هي الأصل، ويجب تقويتها في النفس والمجتمع لتقوى فعالية النشاط في الأمة من خلال اشتداد آليات الصراع لشدة الإيمان به وسيلة من أجل أهداف.

والحق أن نظرة الصراع عامل تفكك، يذهب بقوة الأمة، ويزرع فيها الروح الفردية، والنزعة الأنانية والعرقية، والتكتلات المتباغضة والمتعادية، فتتبدد الأرواح، وتتباعد النفوس، وتتسع الهوة بين فئات الأمة الواحدة، وهنا تختلف الآراء ويكون المجتمع طرائق قددا، وعلى الباحث والمؤرخ أن يسائل تجارب التاريخ الحضاري : ماذا قدم الصراع؟ وماذا أنجز في التاريخ؟ وعما إذا أقام حضارات وصنع أمما وربى شعوبا؟ وجواب هذه الأسئلة يبين تخبط الذين سلكوا الصراع وسيلة في الفتن والاقتتال من السياسيين والمفكرين والقادة، فأسسوا ديكتاتوريات بدل ديمقراطيات، وما كان هذا إلا لفقد الاعتدال سنة الاستقامة والتوازن لتسير الحياة عليه سيرا طبيعيا وصحيحا

---

١ – تفسير الكشاف للإمام الزمخشري، ج١، ط٢، دار المصحف، القاهرة، تحقيق محمد مرسي عامر، ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م، ص٩٦.

وفق منطق الوسطية وعدل الاعتدال ودقة التوازن وزينة الانسجام.

ولذا يبدو تصور الماديين الصراع ثنائية الحياة تصورا خاطئا، وذلك حين يرون ضرورة وجوبه لسير التاريخ ولاستقامة الحياة .وهل يسعد الناس إذا كان العداء أساس الحياة والتصارع سر استمراريتها؟ وبخاصة حين يكون بين المتناقضات المكملة بعضها بعضا، كالذي بين المرأة والرجل.

- **بين الصراع والتدافع**: وبعد الذي ذكر يبدو أن هذا الأمر يستحق توضيحا يرفع الالتباس بين مفهومي التدافع والصراع،فالتدافع شرع لدفع الظلم وإحقاق الحق ورد العدوان، بينما نتج الصراع عن انسداد الآفاق واشتداد الظلم وتبييت الحقد والانتقام بين الخصوم، ولذا أكثر من تبنى الصراع وسيلة ما سمي بالطبقة البروريتارية الشعبية التي ناهضت البورجوازية في الغرب ثم تداعت على الشرق، فكانت تجربة لعلها احتلت المرتبة الثانية في أوروبا في الجرم بعد ما فعلته الكنيسة في العلماء خلال القرون الوسطى، ولذا استدعي مصطلح التدافع من القرآن الكريم ليحل محل الصراع ولكن على منهج آخر وبفلسفة أخرى تتبنى ما تحدث به القرآن الكريم وما استخرجه مفسروه من هذه الآية:﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1]، أي لولا أن الله يدفع بعض الناس ببعض، ويكف بهم بأسهم، لغلب المفسدون، وفسدت الأرض بعبث الكفار، ونزل السخط، فاستؤصل أهل الأرض[2].

وتبرز هذه الآية حقيقة هامة من حقائق الحياة وما تموج به في تدافع وزحام إلى غايات وأهداف، ولولا التدافع لتعطلت الحياة وسادها الكسل

---

١ - سورة البقرة، الآية ٢٥١.

٢ - تفسير الكشاف للإمام الزمخشري، ج١، ط٢، دار المصحف، القاهرة، تحقيق محمد مرسي عامر، ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م، ص١٤٤ .

ولتعفنت الأخلاق، ولكن حكمة التدافع استجاشة ما في الأنفس والآفاق والقوى الكامنة على أساس من التنافس، لإحقاق الحق، وإبطال الباطل، حتى تظهر الفئة الصالحة لتقوّم الانحراف، وتقود البشرية[١] نحو الخير. قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[٢].

وتنفي هذه الآية وهما قد يعتقده البعض، وهو أن هذه الأماكن المقدسة عند جميع أهل الأديان قد يشفع لها عند أهل الباطل تقديسها فلا يصيبها مكروه، والواقع أنه لا يحميها إلا الله بدفع الناس بعضهم ببعض، فالباطل لا يرد إلا بالقوة، وهذه قاعدة كلية، وسنة ثابتة لا تتبدل ما كان الإنسان على انحرافه[٣]، إذن فالتدافع تعبير ومصطلح قرآني أساسه المحبة والمودة والحق .

والصراع تعبير فلسفي جدلي مادي ذو محتوى عدائي انتقامي، ومثل الصالحين وغيرهم كمثل الحق والباطل، ومن سنة الله في الوجود غلبة الحق الباطل: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾[٤]، حيث يجري التعبير في صورة حسية، وكأن الحق قذيفة في يد أهله، ترمى على الباطل فتدمغه، أي تزهقه[٥]، وفي الحياة أنواع ومستويات من التدافع: تدافع على مستوى الفرد النفسي بين التقوى والفجور، وبين النزعات الروحية، والشهوات المادية، وتدافع على مستوى الأمة أو المجتمع بين العدل والظلم، وبين أهل الحق وأهل البغي، وتدافع على

١ –سيد قطب : في ظلال القرآن، م١، ص٢٧٠ .

٢ – سور الحج، الآية ٤٠.

٣ – سيد قطب : في ظلال القرآن، م٤، ص٢٤٢٥ .

٤ – سورة الأنبياء، الآية ١٨.

٥ – سيد قطب : في ظلال القرآن، م٤، ص٢٣٧٢ .

مستوى الدنيا كلها بين الإيمان والإلحاد والإسلام والكفر.

- **الإبداع بين الصراع والتدافع**: لقد سجل تداعي الصراع في ميادين الحياة كلها، حتى اعتقد أنه وسيلة من وسائل الإبداع الحضاري قاطبة، فلا يكاد يفكر إلا من خلاله لافتراضهم العداوة والبغضاء في من حولهم من أشياء الحياة مادياتها ومعنوياتها.

وأعتقد أن فكرة الصراع ليست جديدة بل قديمة قدم الوجود الإنساني الفكري الفلسفي الحضاري، حيث عرفها اليونان، وذهب فلاسفته إلى وجود صراع بين الإنسان والآلهة التي باتت تحسده على كل تطور وتحدّ نحو كسب القوة، وعرفت الفكرة في الأدب اليوناني وفنونه الذي كانت فيه النهاية تراجيدية حين انهزام الإنسان أمام الآلهة.

وأعتقد أن طرح فكرة الصراع في ميدان المعرفة تعبير عن خلل في الرؤية واضطراب في التصور، يحدث حين تضيع سبل السنن أمام الباحث وتفقد معالمها، مثلما تملي فكرة الصراع على فكر الباحث ذاتها بأثر رجعي سابق، وهنا تدخلت السنن من خلال فكرة التدافع لتسوية أوضاع الفكر في الرؤى والتصورات لحل مشكلات الصراع في الفكر، حيث افتعال أوهام الفكر اليوناني في صراع الإنسان مع الآلهة الذي تحوّل إلى الفكر الغربي فصار وهما آخر سمي الصراع مع الطبيعة الذي زرع في ميادين المعرفة كلها، فكانت محاولات الإنسان إثبات ذاته بالتمرد على الآلهة، والإفلات من قبضة القدر، والخروج من دائرته، مثلما يحاول في العصر الحديث مغالبة الطبيعة وقهرها، وما يحققه من نتائج في هذا الميدان يعلن أنها انتصارات على الطبيعة ويغيب عنه أنه لولا سنن التسخير ما أبدع الإنسان شيئا وما حقق انتصارا، مثلما لن يستطيع الإنسان الغربي تحقيق مشيئته إلا ضمن دائرة مشيئة اللّه المطلقة، لأن قدراته لن تخرج عن قدرة اللّه، ويستطيع الإنسان الغربي اختبار قوته وقدراته أمام السنن الجبرية،

كتحديد شكله أو لونه ووقت ميلاده ووقت موته ليعرف أهو على الصواب أم على الخطأ.

ومن هنا فلا ينبغي على الإنسان أن يكدح فيما لا طاقة له به حيث العجز عن الإدراك إدراك، ويبدو أن هذه الحقيقة مازالت مشخصة في حس الإنسان منذ القدم حيث فوق كل ذي علم عليم. وقياسا عليه، فإنه فوق كل ذي قوة قوي وفوق كل ذي قدرة قدير، ومن هنا ليس أمام الإنسان سوى البحث عن السنن واكتشافها ليسلكها مناهج من أجل تحقيق غاياته الخيرة، وحينئذ يكون الإنسان، ولاسيما المفكر منه، قد عرف قدره فالتزم حدوده ولا يكون كالذي عبّر عنه الشاعر في صورة تطفح بالسخرية:

كناطح صخرة يوما ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

ويبدو أن الذي بالإمكان كان منه ما كان وسيكون آخر عبر سنن التدرج والتطور والتؤدة، والذي ليس بالإمكان سيظل طموحا من فضول الإنسان.

وأعتقد أنه ليس من السهل على الفكر الإنساني، ومنه الفكر الإسلامي، تطهير ذاته من قضايا أفكار كثيرة مثل فكرة الصراع إلا من خلال هيمنة قدرات حضارة تؤمن بمناهج أخرى واقتراح صياغة جديدة وفق أساليبها ورؤى الوجود ومفرداته، مع تحديد ميادين التدافع دفاعا عن مقومات الوجود حتى لا تفسد الأرض وتهدم صوامع وبيع ومساجد.

ومن هذا المنطلق ينبغي أن تطرح فكرة الصراع والتدافع في الفكر البشري ومجالات فلسفاته وفنونه وآدابه لإبراز القيم الإنسانية في صور إشراقات جميلة، لا لتغتالها في ظلمات قاتمة، وكأن الإنسان يريد أن ينفرد بحكم الوجود وإدارته وفق مشيئته، فيحل محل خالقه ومدبره ومقدّر أقواته وأرزاقه فيما يسمى التأله.

- **قراءة المستقبل بين الصراع والتدافع:** فالصراع يعني المغالبة التي تنتهي بالضرورة إلى طرف دون آخر، وإن تضررت كل الأطراف المتصارعة ونال بعضها من البعض بأسا وفتكا وظلما، ومن هنا تترشح الأطراف لتحكم إدارة المستقبل، ولكن لن يفوز به ويحكمه إلا الطرف القوي بل الأقوى، ولذا يريد أن يعرف مآل الصراع وأن يقرأ مؤشراته وملامحه في الآفاق، لأن سنن الوجود لا تحابي ولا تنحاز لأحد مهما كان انتماؤه أو فضله على الإنسانية، وكأنها تتبنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1] فالتقوى، بمفهومها الفكري الحضاري، معيار من معايير التحكم في المستقبل وشرط من شروط إدارته لأنه لون من ألوان القوة في الحق لا في اليد والبدن مثل العدل والصلاح وخشية الله في عدم تطبيق مقتضيات السير والنظر والقراءة المنشودة في الكون والقرآن. وأعتقد أنه مادام يؤول أمر المستقبل للقوي بعد الأقوى فإنه سيؤول إلى الصراع من خلال قوة اليد مثلما تمثله تجارب دول في العصر الحديث آل إليها الأمر، وسيؤول إلى التدافع من خلال قوة القيم والمبادئ، مثلما مثله وتمثله دول أخرى بل ستمثله في المستقبل.

ومن غير رسم صورة بين الصراع والتدافع أو بين التدافع والصراع، بمعنى بين من يستخدم وسائل قوة المادة وبين من يستخدم وسائل قوة الحق والروح والمعنى، ومادام الأمر سيؤول في الحالتين من خلال الغلبة فإن السؤال الذي يطرح: أيهما الأقوى المادة أم المعنى؟ ومن الجواب يتضح أنه في كل طرف قوة وضعفا، والأمر محكوم بمدى التزام أحكام السنن، ولكن مادام مآل الصراع والتدافع مرهونا تحققه بغلبة القوة، فإنها ستحكم لأحد الطرفين عبر إجراءات سنن قيادة موكب البشرية الحضاري.

والحاصل أن المستقبل الحضاري إذا آل من خلال قوة بشرية ما عن طريق الصراع فلتوفره على نسبة من التدافع تضمن استمرار القيادة على

---

١ -سورة الحجرات، جزء من الآية ١٣.

يد من دال إليه الأمر ولو إلى حين، ليظل الدال الحضاري مرهونا لمن يوفر له الأفضل فينسحب من يد المفضول إلى الفاضل ومن يد الصالح إلى الأصلح ومن يد القوي إلى الأقوى، إلى أن تنقلب المعادلة فيكون المفضول هو الأفضل والصالح هو الأصلح والقوي هو الأقوى، وإلى أن يتحقق ذلك فإن قوة الطرف الفائز هي المهيمنة لأفضلها ولأصلحها ولأقواها للموازنة والمقارنة بين الطرفين، وهذا من طبيعة السنن وأحكامها النافذة.

إذن يمكن أن يؤول أمر المستقبل الحضاري بقوة ما من خلال الصراع الذي الأصل فيه ألا يكون ولكنه كائن استثنائي بحكم ما فيه من صفات التدافع وهي القوة، وإن انسلخ عن أخلاقيات قيمها ومبادئها، ولكن تظل قوة من دال إليه أمر المستقبل الحضاري سارية المفعول إلى أن تنسخ بخير منها، حيث السنن كل يوم تحفز قويا لغد في إعداد مستمر ليتبوأ مقعد المجد الحضاري الأفضل إلى حين يتوافر الأفضل منه.

- **السنن والحتمية**: إن الحتمية في نظر منظريها هي الحقيقة الزاحفة نحو غايتها من دون تردد ولا تعطّل حتى تصل غايتها، وقد شاع استعمال مصطلح الحتمية وقصد به الإلزامية .ولا يؤمن الفكر الإسلامي بالحتمية إلا من حيث إرادة الله ومشيئته التي لا مردّ لها، ولا يمكن أن تتدخل عوامل تحول من دون تحققها، ولذا فاستعمال الحتمية من المنظور الإسلامي هي من باب المشاركة اللفظية[1]، مثلما ينسب إلى الله تعالى ما لا يليق بصفاته الكريمة، كالذي في قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[2]

ولعل الفكر الاشتراكي المتصلب الذي آمن بالأممية الاشتراكية ضرورة

---

١ -يوسف القرضاوي : الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا، دار الرسالة، بيروت، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م، ص٠٥ سلسلة حتمية الحل الإسلامي رقم ١ .

٢ ـ سورة الأنفال، الآية ٣٠.

هو الذي دفع الآخرين إلى الكتابة تحت مصطلح الحتمية جملة من كتب، ولكن حقيقة الحتمية أمرا لا مرد له وكأنه قضاء وقدر مغالاة، لأن التحاكم إلى الواقع يثبت أن ما كان من الحتمية في نظر بعضهم قد تراجع وصار بخسا يخسأ تلفظه لاكتشافه سوأته ولفقده صلاحيات فكره ومبررات استمرار التعامل به .

ولذا يبدو أن الفكر الإسلامي الصحيح بل الأصح هو الذي فقه السنن وعلم أنها تعطي بقدر الالتزام بها والتي حقلها التجربة التاريخية المرتبطة بها، وقد جاءت في صيغ تعابيرها حيث دعي الإنسان إلى تأملها بل إلى اكتشافها في حقل الماضي وفيما حوله، ولذلك فإن كل الدعوات ستحاكم في التاريخ من خلال تجاربها حينما تحال عليه فيؤكد حقائقها وينفي أوهامها، ويفرز أنواعا من السنن تتعلق بميادينها.

ويبدو أن الذي خدش نزاهة الفكر الغربي وطعن فيه وأكثر الاستدراك عليه، ولاسيما من قبل الفكر الإسلامي، هو حين عرض نفسه البديل الأوحد غير القابل للنقد والرد والتعددية،، مثلما ادعى العلمية التي سعى إلى تطبيقها في جانبه المعنوي، فحاول إخضاع منطق العلوم الإنسانية لتجارب العلوم الطبيعية الفيزيائية والكيميائية وما على شاكلتها، وهنا أخرج مصطلح الحتمية وأريد تطبيقه على مرونة العلوم الإنسانية مع قابلية أفكارها للأخذ والرد وخصوصية المناطق والعقائد، وهذا من يوم تعالت أصوات تدعو إلى علمية الفكر الإنساني حتى دعي إلى علمية الأدب ووجدانه.

ومن هذا الباب دخلت فكرة الحتمية دائرة النقد فاشتدّ وطأه عليها حين كذّبت تحقق وقائع توافر شروط حدوثها، ولكنها تخلفت، فأعجزت المؤمنين بالحتمية عن الجواب عما كان حتمي الحدوث في نظرهم، ولكن انتفى وتعطل وقوعه لتدخل عوامل لم تكن في حسبانهم، مما يعني أن

هناك أمرا عطّل الحدوث وأوقف الوقوع، وهذا ما يطرح سؤالا على السنن في كيفية تعاملها مع الحتمية، وهي تؤمن ببعض وتكفر ببعض وإن تمايزت عنها من حيث إيمان السنن بالخوارق، وهي ما جاوز قدرة الإنسان وخرج عن مألوف السنن العادية - الطبيعية[1] - التي هي ضمن دائرة قدرة طاقة إدراك الإنسان وإن حكمت الخوارق سنن أخرى حين دخلت دائرتها، وهي ما يعرف بالسنن الخارقة التي هي جزء من عالم الغيب الذي لا يُرَى وإن آمنت به السنن، ولم تعترف به الحتمية إلا حين تبدو لها نتائجه في الظواهر العلمية والطبيعية والإنسانية التي حاولت إخضاعها هي الأخرى لإرادة عواملها وشروطها، وسعت إلى إعدام مبدأ الحرية والخيار، مثلما أعدمتهما الجبرية والقدرية من قبل، وإن حاولت الحتمية تبرير ذاتها وتعليل حدوثها،وادعت أنها ضمن إرادة الإنسان وواقعية أعماله، ولذا استخدمت الحتمية في الإيمان بنتائج أعمال الإنسان وسلوكياته، بينما علل مبدأ الجبرية والقدرية فشل أعمال الإنسان وسلوكياته بتدخل عوامل غيبية تحكمت فيه.

ومن خلال هذه المقارنة يمكن التوصل إلى أن الجبرية والحتمية كلاهما وقع في خطأ غيّب الحقيقة في مصطلحهما ومضمونهما، وهنا يتدخل مفهوم السنن ليوضح أن الجبرية والحتمية ليستا قدرا لا مردّ له، وحتى القدر تعامل معه الفكر الإسلامي بالإيمان به، حيث تجادل الجبرية إرادة الحرية والخيار، وتجادل الحتمية في الخوارق، وهي نوازل الغيب وطوارئه التي قد لا تعرف لها أسباب إلا بالمنظور الإيماني، لأن الإنسان مهما أوتي من قوة إرادة حرة فهو في رعاية القدرة الربانية الغيبية ومشيئتها، وهذا هو مفهوم السنن وفقهه حين يتعامل مع ظواهر الحياة، ولذا ليست مآلات الحضارة حتمية كالسقوط والتداول والمزيد في التطور والازدهار لأمة من الأمم أو لشعب من الشعوب ولو إلى حين. وبالمفهوم الإيماني الدقيق، ليست

---

١ -المعجم الفلسفي، ص٧٩ .

التحولات الحضارية قضاء وقدرا أو مبنيا للمجهول ولا مردّ لمشيئته،وإنما هي أمر حق يمكن التعامل معه وفق مقتضياته، حيث تصرف سنن بسنن أخرى كرد قدر بقدر.

وكان ينبغي أن تستقبل على هذا الأساس أفكار التيارات الإيديولوجية والاتجاهات الفكرية فلا يحكم لها بالحتمية ولا بما يخالفها إلا حين تجري أحداثها في الواقع وتدخل مخبر تجاربه بين يدي البشر، وإلا سيأتي حين من الدهر يكذب الذين ادعوا حتمية تحقق مناهج وأفكار مثلما حدث لأصحاب الفكر الاشتراكي وما ادعوه من حتمية نتائجه .

- **قراءة المستقبل من خلال الحتمية**: لو قدّر لقوة ما تسللت من خلال الحتمية نحو المستقبل، فإنه لن يتحقق لها مرادها إلا فيما للحتمية قابلية التطبيق فيه مثل ميدان العلوم الطبيعة والتكنولوجية القائمة على حتمية تحقق النتيجة بعد تحقق مقدمتها، وتحقق السبب لتحقق مسبباته إن لم يتدخل طارئ خارق يصرف الأمر عن مساره أو يوقفه عند حد ما من حدوده أو مستوى ما من مستوياته.

ولعل نجاح الحضارات في ميادين دون أخرى مثل نجاح الحضارة اليونانية في الفلسفة والحضارة الغربية في التعامل مع الطبيعة والتحكم في الآليات التكنولوجية فيه من الحتمية وفيه من استثناءات تحققها، وقد ظل منطق العلوم الإنسانية يتمتع بالمرونة كدليل على عدم تحقق الحتمية بمنطق مطلق، وكدليل على ما فشلت فيه لعدم قابلية تنفيذها حتى ولو ادعى فكر الحضارة الغربية الإيمان الكلي بها، فإنه يعجز عن تنفيذها في مجال العلوم الإنسانية مثلما تحرمه أنانيته في حتمية العدل مع غيره في حقوق الإنسان، وتدفعه إلى الانحياز إلى نفسه والتحزب لها وإيثار مصلحته على مصلحة غيره.

وهذا يعني أنه لا مفر من حكم قبضة السنن ومفهومها وأنها حقيقة غير

متسامحة ومطردة في شمولية عامة غير قابلة للطعن في قراراتها، بل لابد لأي انحراف عنها من عقوبة نافذة ولو لم تظهر إلا بعد حين، في وقت ربما ظن بعضهم أنه أفلت من حكم السنن.

وهنا تبدو حقيقة كبرى مستنتجة تظهر الشعوب بل الأمم كأنها غير قادرة بمفردها على تحمل أمانة مسؤولية التداول الحضاري العام بشموليته التربوية والأخلاقية والفكرية والاقتصادية والسياسية والعلمية التكنولوجية وغيرها، ولعل هذا ما أظهر إنتاج الأمم والشعوب فيما يشبه التخصص الحضاري، ولذا سيكون مآل التداول الحضاري القادم في جزء من الحضارة كأنه استدراك أو إلحاق بالحضارة الغربية ما ضاع منها أو فرطت فيه ولو من دون وعي به، وهذه من طبيعة ما تؤول إليه مسؤولية التداول بين الشعوب والأمم من غير أن تستوفي شروطها لتتوافق وسنن التداول الحضاري جميعها، وأعتقد أن هذا حدث في تجربة تداول الحضارات بين الأمم التاريخية مثل تجربة الحضارة العربية الإسلامية التي ألمّت بموضوعات الإبداع الحضاري عامة[١] لاهتدائها بالوحي والتزامها بخصوصية شموليته تحت رعاية قول الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾[٢]، وقوله سبحانه: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[٣] وتحت مراقبة قوله تعالى والتحذير من مخالفته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[٤].

ويبدو أنه لعدم قدرة الأمم على التزام أحكام السنن كلها ولضعفها في الأخذ بشمولية الحضارة جميعها،جاءت دعوة الإسلام إلى التضامن العالمي ومثله مما يحقق أغراضه كالتكامل الإنساني ونشأة المؤسسات من

١- محمد هيشور: سبق الأمة الإسلامية الحضاري .

٢- سورة الأنعام، جزء من الآية ٣٨.

٣ - سورة النحل، الآية٨٩.

٤- سورة الصف، الآية ٠٢. ٠٣.

أجل تحقيق أغراض هذه المبادرات في ظلال الأخوة الإنسانية والتعارف الحضاري.

- **السنن والصدفة**: ما من شيء يعطف على غيره إلا وله علاقة به سواء كانت علاقة توافق وانسجام، ومن ثمة تعاون وتكامل، أم علاقة تنافر ونشاز، ومن ثمة اختلاف وتضاد، وفي الحالتين يتبادل الطرفان التأثير والتأثر بينهما كل بما فيه من صفاته، سيما وأن تأثير الطرف الأقوى أقوى، ومن العلاقة بين الطرفين أو الأطراف تعقد المقارنة والموازنة، فإذا كان دارسو السنن ومنظروها يرون أنه لا شيء حي متحرك لذاته أو بذاته في عفوية وتلقائية وإنما كل متحرك تحركه أسباب وتدفعه عوامل لمقاصد وأهداف ذاتية أو خارجية تدفعه إلى تحقيق غايات ابتغاها أو ابتغيت منه أو له، وهنا يسأل سؤال: أين الصدفة؟

لقد ضاع منطق الحقائق من كثير من الناس والباحثين والفلاسفة حين أوعزوا فعل الأشياء بل خلقها إلى الصدفة، ولم يعرفوا فاعل فعل إلا فاعل الصدفة التي أحلوها ،ربما من حيث لا يدرون، محل كل فاعل، وهنا يتدخل فكر السنن ليؤكد أنه ما من حركة أو سكنة في الوجود إلا وذات مقصد يستهدف تحقيق غاية ما، ويقدم للإنسان فائدة ما، قد يسهم بها أو من خلالها في بناء ما .

ويبدو، وفق منطق ضرورة البرهان، ضرورة استصحاب فكر السنن وفكر الصدف إذا جاز اسمه فكرا، والبحث من خلالهما معا في الكون والحياة لإثبات أيهما أقوم قيلا وأيهما أقوى منطقا وأصدق برهانا وأيهما أشد تأثيرا وفعالية في وضع أحداث الحياة والتحكم في مسيراتها وتطوير إبداعاتها.

- **الصدفة والإبداع الحضاري**: إن أقوى ما يتحاكم إليه الفكر العقل، ولذا ينبغي أن يسأل العقل هل الكون، وما به من نجوم وكواكب وتقلبات جوية من رعد وبرق وريح وأمطار وظل وحرور، تحكمه قوانين، وهو مدفوع

بعوامل يبتغى من ورائها غايات كما يرى الفكر السنني؟ أم كل هذا وجد وجودا عفويا تلقائيا تحرك بالصدفة وهدأ بها؟، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لم تضرب يوما الكواكب والنجوم والأمطار والرياح وتحتجّ عن أعمالها وتسكن عن حركاتها أو تتحرك في غير موقعها ولغير ما أريد منها أو تتخلف عن مواعيدها أو تتقدم عنها؟.

وأعتقد أن أهل مناقشة هذه الأسئلة والإجابة عنها هم علماء الفلك والفيزياء أكثر من غيرهم، وقد صار تخصصهم تخصصات، من باب ﴿ فَسْئَلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾[1] ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾[2] وفي الوقت نفسه الإحالة على مضامين النص القرآني حتى بالنسبة للذين لا يؤمنون به ولا يعرفونه إلا نصا لغويا، وتمّ تعرف الحقيقة أكثر.

وأعتقد أنه إذا كانت كائنات الكون ذات نظام عجيب وأسرار أعجب في أداء وظائفها لصالح الإنسان ولصالح كل كائن حي ومن تقدير أقدر ومنطق عقلي أوفر قابل للفهم والدراسة لاستزادة الفائدة، فإن أفكار الحضارة ومبادئها وقيمها وكل ما يؤدي دورا فيها هي الأخرى ليست فوضوية تلقائية عشوائية بين يدي السنن، ولو أثبتت الموازنة بين سنن الكون والطبيعة وسنن المجتمع والحضارة أن سنن الكون الجبرية مادة أشد صرامة وأكثر انضباطا حيث لم تترك للإنسان فرصا كبيرة للتمرد عليها والانفلات من قبضتها بالقدر الذي ربما استطاع الإنسان التمرد به والخروج عن السنن في الفكر والحضارة، ولكن صرامة سنن الحضارة وقوتها تكمن في دقة العقوبات، حيث إنه ما من حدث في الحياة،من تقلبات نفسية واجتماعية وتحولات اقتصادية وسياسية وتسجيلات تاريخية،إلا وهي على عين السنن تراقبها كيف حدثت وكيف تواصلت أحداثها وتتابعت مآلاتها وما ستسفر عنه وتنتهي إليه في خفض دول وحكومات وشعوب وأمم ورفع أخرى، وفي

١- سورة الفرقان، جزء من الآية ٥٩.

٢- سورة فاطر، جزء من الآية ١٤.

حط حضارات وقيام أخرى منذ كان الإنسان وكانت الحضارة، ولذا هل من المنطق الإيمان أنه منذ كانت السماوات والأرض وخلق الجن والإنس والكون والحياة كلها تتحرك صدفة خبط عشواء؟ أم تتحرك وفق سنّة مطردة محكمة؟

ومن الحكمة أن تكون صلة بين ما أملاه الوحي واكتشفه العلم من يوم أن أظهر أسرارا عجيبة وتحدث الوحي عن أنباء غريبة، ودل على آيات عظيمة في الآفاق والأنفس، لو تأملها الإنسان لوصل إلى نتائج كبيرة في الاعتقاد والعلم، وفي المجتمع والحضارة.

والصدفة إحساس غير قابل للتعليل لانعدام أسبابه وعوامله، والحق أن الكون بني على قواعد ونظم، فلم يترك أمر تكوينه، ومجرى الأحداث فيه للمصادفة أو الأهواء، وتعرف هذه القواعد والنظم بالقوانين الطبيعية، أو السنن الربانية التي لا تتغير ولا تتبدل، وما أمر السنن في نظام الكون والحضارة إلا كأمر القوانين في نظام الدول والحكومات، بل أدق وأعدل .

ومن سنن الكون الربانية قانون الجاذبية التي تعمل دائبة على تجميع أشتات الأجرام المادية المتقاربة في صعيد واحد، ولولا قوة هذا القانون لسقطت الكائنات في محيط الفضاء الأعظم، ولتشتت مفرداته، وتبعثرت جزئياته، ولاستحالت الحياة على الأرض، وكقانون الغازات التي تملأ الفضاء، وقانون التسخين الذاتي، والخسوف والكسوف[١]، والله تعالى يقول: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾[٢] وكل التغيرات الجارية تحدث ليلا ونهارا وفق سنة ثابتة عادلة.

والثّابت من الناحية التاريخية أن ظهور أية حضارة لم يكن تلقائيا، بل كانت له أسباب وعوامل، هذه الأسباب هي ما نقصده بالسنن. ولكي يهدي

١ – محمود أمين العالم: فلسفة المصادفة، مكتبة الدراسات الفلسفية، دار المعارف، مصر، ١٩٧٠، ص٢٢.

٢ – سورة الرحمن، الآية ٢٩ .

اللّه البشر إلى سننه في الحياة أرسل رسلا يتولون هذه المهمة، بالتبليغ والإرشاد والتبشير والإنذار، ومن العبث ألا يحاسب إنسان أودعه اللّه في هذا الكون، وأتاه العقل، وعلمه الحكم، ودعاه إلى التدبر لاكتشاف قوانين الكون ووسائل إعمالها وتنفيذها، ومنحه الحواس التي كثيرا ما يعطلها الإنسان أثناء فترات ضلاله وانحرافه عن الصواب، ومن هنا جاءت تكاليف الشرع للإنسان البالغ العاقل السوي. فهل يعقل أن يجري كل هذا بالصدفة والفوضى دون حدوث تصادم بين مفردات الكون.

- **قراءة المستقبل من خلال الصدفة:** يبدو قد تقرر مما سبق عرضه ومناقشته أن الصدفة اسم وهمي لا وجود له إلا في الخيال . ومن تم، فالإشكال هو : كيف يقرأ المستقبل قراءة صحيحة من خلال أمر ليس موجودا إلا باسمه ولا يسانده في الواقع سوى توهم؟ إلا إذا كانت القراءة هي الأخرى وهما مثله، فوهم من خلال وهم قد يحسب شيئا وما هو بشيء مما ينبغي فلسفته حيث لا فائدة فيه. ولذا فلا قراءة للمستقبل من خلال الصدفة إلا في عالم الخيال والافتراض الذي لا يسانده منطق.

- **السنن ومنطق الوسطية:** لقد صار موضوع الوسطية بحثا واسعا حببت دراسته لمفكرين كثر، ولم ينل الاهتمام اللائق به في علاقته بالسنن. إن الوسطية من أكبر ما يتوافق والسنن، بل الوسطية سنة من سنن الفكر الحضاري الذي تكونت منه في العصر الحديث وخرجت من بين يديه لفض نزاع تاريخي إيديولوجي طال أمده،ولرتق الانفصام بين مفردات بعدت أطرافها بعضها عن بعض، ولاسيما حين اعتقدت تصورات أنها تتصارع ولا تتكامل، أو تتعاون من أجل مقاصد واحدة وفق منطق الوسطية الذي تأخر اكتشافه والوعي به منذ طرحت النزاعات بين الفلاسفة والصوفية والفلاسفة والفقهاء، ومنذ قامت جدلية ما بين النقل والعقل والشريعة والحكمة، ثم زحفت هذه الجدلية كدحا حتى دخلت فيما بين القديم

والحديث والأصالة والمعاصرة والذات والآخر في شكل صراع طرح على أنه الحل، واعتقد أنه ضرورة تقتضي حتما غلبة طرف طرفا آخر حتى تستمر مسيرة الحياة التاريخية الحضارية بشموليتها.

ثم حين ضعف التزام الفكر الإسلامي بالوسطية، داهمت الأمة تصورات تيارات فلسفية فكرية، توهمت التناقض بين النقل والعقل، ثم توهمت استمراريتها وامتداداتها الحديثة التناقض ذاته بين الإيمان والعلم، والأصالة والحداثة، والذات والآخر فكفر كل طرف بالآخر ونفى اعترافه به فاستحدث جدلية جديدة بين الأنا والآخر والعولمة والإقليمية والوطنية، فطرحت مسألة الهوية والعولمة على اعتبار انتهاء الهوية أمام اجتياح العولمة التي أعتقد أنه من نتائجها نهاية التاريخ التي توجت الإبداع الحضاري.ولقد عزز هذا التصور طرح الوسطية في ميدان الفكر الحضاري كله، فأصبحت حديث الساعة في الكتابات الفكرية والأدبية، فهمت الوسطية ميادين الحياة كلها على أساس أنها الاعتدال ونقطة التماس وكلمة السواء التي تلتقي فيها الأطراف كلها في توازن لا يبغي فيه طرف على آخر، والتوازن هو الذي قام عليه شأن السماوات والأرض لقوله تعالى: «﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ﴾»[1] وهو الذي انسجمت فيه ومعه سنن الله في الوجود، حتى صارت لا تؤدي وظيفتها إلا إذا حققت التوازن والاعتدال، وهو العدل والإنصاف، لأن الحياة لا تستقيم على الشطط والتفريط والإفراط لأنه ظلم، والظلم مؤذن بخراب الأمم.

وأعتقد أن الوسطية أصبحت تيار مدرسة فكرية مازالت تتبلور بديلا للفكر البشري كله، في اقتراح من الفكر الإسلامي الذي ذهب يعزز موقعه من خلالها بقوة تؤهله إلى عالم يترشح فيه لقيادة البشرية باعتماده الروحية سبيلا والمادية والمثالية والواقعية والربط بين الفردية والجماعية

---

١ سورة الأنبياء، جزء من الآية ٤٧.

منهجا يلتزم الأخذ بحسنات الطرفين.

- **قراءة المستقبل من خلال منطق الوسطية:** لقد جرّب نهج اليمين واليسار في إدارة المؤسسات والعلاقات الدولية والإدارة والمجتمع والدين والدولة والإيمان والعلم والمرأة والرجل والشيخ والشاب حتى كان نزاع الأجيال، إلا أن نهج الوسطية لم يجرب ولم تتح له الفرصة لأسباب قد يكون منها أنه يمثل الاعتدال والتوازن، وهو مبدأ يصعب الالتزام به لما فيه من تكاليف شاقة على رغبات النفس البشرية، ولأنه ينسب للفكر الذي لا ترتضيه كثير من الدوائر أو لأنه يمثل إيديولوجية خصمها الإسلام أو لأسباب أخرى.

ولكن يبدو أن نهج الوسطية في إدارة الحياة هو المرشح لتسيير دواليبها أكثر من غيره، لأنه أفضل ما اهتدي إليه في العصر الحديث على إثر تقلبات تجارب الحياة وتداول أفكارها على إدارة مؤسسات الدولة والمجتمع. ولذا ينبغي أن تعطى له الفرصة ليكون مجال دراسة وميدان تطبيق تحت مصطلح الوسطية نفسه، أو تحت مصطلح آخر قد ينوب عنه كمصطلح الطريق الثالث أو الاعتدال .

ولذا يبدو أنه ليس أمام البشرية مناهج كثيرة في إدارة الحياة وفق منطق خيارات اليمين واليسار إلا نهج الوسطية ذو المنطق الإقناعي والقوة الحجاجية، وهو الذي يزاوج بين فواصل مراحل الزمان وتقاطعات مناطق الجغرافية وما ينبثق عنهما من تناقض وتعارض، كالذي يطرحه اليمين واليسار بين القديم والحديث والنص والاجتهاد والإيمان والعلم والوطن والعالمية، حيث يأتي نهج الوسطية ليصالح بينهما وفق منطق منظومة الاعتدال، وليزاوج بين أفكار اليمين واليسار، ويأخذ بأحسنهما.

ولذا فالوسطية هي المنهج الوحيد المرشح بحق لشغل منصب الكرسي الشاغر الذي ينتظر صاحبه منذ أمد بعيد منذ أعلنت تجارب كثيرة

إفلاسها، وذلك راجع إلى انسجام منطق الوسطية مع السنن وأطروحاتها وتحكماتها في المآلات والمصائر.

- **السنن والاحتمالات:** الاحتمال ما توقع حدوثه عن تردد نسبي[1] بين جملة خيارات تتفاوت نسبة حظوظها من حيث إسهام كل خيار بحظ، وقد تعرف الاحتمالات على أنها توقعات يجري البحث من خلالها عن الحقيقة، التي قد يصيبها البعض من خلال منطق الخيارات، ومن هنا فقد تعيي الاحتمالات الباحث لكثرة أعدادها حين يفتش عن الحقيقة بينها واحدة واحدة، مما يعني أن الحقيقة قد تتوزع بين احتمالا ت كثيرة، مما يصعب مهمة البحث عنها، ويمدد في أجل إدراكها، والمهم هو كيف تتعامل السنن مع الاحتمالات؟ والأهم الجواب الذي هو جوهر موضوع بحث احتمالات توقعات قد يقع بعضها أو لا يقع منها واحد فلا يكون أي توقع لانعدام الأسباب ولو بعد توافرها ثم انسحابها أو غيابها أو غياب بعضها، أو لضعفها في أداء دورها. ولذا تنعت الاحتمالات وتوصف بالضعف والقوة، أو الورود والاستبعاد لأسباب لاتعد ولا تحصى.

وعند تطبيق هذه الاجتهادات، فإن عد الاحتمالات والبحث عن الحقيقة بينها قد تبلغ العشرة أو تزيد، ولذا لو جرى تطبيق أفكار احتمالات سقوط الحضارة الغربية، فإن احتمال انهيارها يتوزع بين الآتي: هل يبدأ من الاقتصاد أم من الأخلاق أم من الإفلاس الفكري أم من الانحلال الاجتماعي أم من الدمار التكنولوجي أم من أين؟ فهذه كلها احتمالات واردة وإن تفاوتت بينها في نسبة ورودها ووقوعها من حيث الضعف والقوة.

والحاصل أن الاحتمال وارد وممكن عند أهل التخصص والمتابعة، حيث يوضع لكل سبب دراسة وقوع احتماله أو احتمالاته فتكون النتيجة من خلال الاحتمال الأقوى، وتعاونه الاحتمالات الأخرى وإن ضخّم كل صاحب احتمالا

---

١ -المعجم الفلسفي، ص٤٠ .

مخصوصا في سقوط الحضارة الغربية، وقد يفاجئ الانهيار الحضاري الغربي النقاد والمتابعين باحتمال لم يكن في حسبانهم ولم يرد لهم على بال.

وليس حكر الأمرعلى احتمال واحد ضروريا، بل الباب مفتوح على الاحتمالات كلها، مثلما ترddه أساليب السياسة في وسائل الإعلام في بعض القضايا المطروحة، ولذا فسيتم سقوط الحضارة الغربية من خلال أي الأسباب وهي السنن حين يدنو أجلها وتفقد مبررات استمرارها، وتكون القوة الأخرى جاهزة للاستلام الحضاري عنها، مثلما يتم الوصول إلى مكة بكل الوسائل من كل فج عميق.

فالسنن كخطوط الطول والعرض الوهمية في الأرض التي انساحت من خلالها الخطوط الجوية وبنيت عليها طرق البر والبحر تعبر من خلالها الحركات كلها، وليست كالطريق الوحيد الذي لا منفذ سواه ولا مفر منه إلا إليه، فما من مسافر أو عابر إلا ويسلكه .

وقد يقع ما لم يكن في الحسبان، أي لم يكن من افتراضات الاحتمالات، إضافة إلى تغير الظروف التي قد تزيد عدد الاحتمالات مثلما قد تقلص منها، ولعل من هنا يعبّر عن نهاية بعض الأحداث بأنها مفتوحة على كل الاحتمالات، وبما أن «كل» تفيد الإطلاق أو المطلق،فإن الاحتمالات لاعدد لها ولا إحصائية تقيدها، ومع هذا فإن توقع ما لم يفترض من الاحتمالات مما هو خارج دائرة الاستهداف وارد.

ولذا يوضع علم الاحتمالات الأشد توقعا والأكثر ضعفا حين يستخدم العقل قدراته وتشتد الأعصاب من توجس ما لا تريده النفوس ولاسيما أيام الأزمات كالحروب والتحولات السياسية والاقتصادية، فيتوجس كل طرف من عدوه ما يتوقعه ومالا يتوقعه، وبخاصة هذه الأيام التي أصبح الإعلام يؤجج نار الحروب، وليتصور كل طرف كم وضع له عدوه من سيناريوهات بمعنى عدد احتمالات الهجوم وعدد احتمالات صده ليوضع لها من احتمالات

الدفاع بالقدر نفسه وزيادة وبشكل أدق من أجل الهجوم المضاد الذي يعدّ له الطرف الآخر احتمالات الدفاع واحتمالات الهجوم المعاكس.

على أن يكون النصر والغلبة لصاحب أقوى الاحتمالات الآخذ بسننها، وبقدر ما يثري تعدد خيارات فكر الاحتمالات وينشط آلية البحث فيه، فإنه يصعب اختيار أفضل الاحتمالات وأيسرها وأهمها وأكثرها أولوية في تحقيق غاية المستقبل والمآل الحضاري من خلاله.

- **قراءة المستقبل من خلال الاحتمالات**: حين محاولة تطبيق إجراءات قراءة المستقبل من خلال الاحتمالات في نظرية التداول السياسي السلمي أو الاقتصادي أو الإيديولوجي أو الحضاري العام ومآلاته،يظهر تأهب عدد من مرشحي حكم المستقبل لاستلام وظيفته، بينما قد تكون قوة احتمال أخرى خارج دائرة الاحتمالات كلها.

ولذا،قد يكون مرشح تداول قادم لا يعبأ به بل يعبأ هو بنفسه أنه ضمن احتمالات تداول المستقبل مثلما يتداول أمر الحركة الإسلامية ومن خلاله أمر العالم الإسلامي في قائمة تحكم المآل الحضاري، وقد توافرت لها جملة شروط وإلى جانبها القوة الوطنية تعززها إذا كتب لها الاستمرار الذي من سننه النفس القوي ومراجعته والإفادة من نقد الآخر، فيحدث احتمال يحقق المزيد من قوة التوافق بين الإسلامية والوطنية ويوحد بينهما في الوسائل والمقاصد، مثلما قد تزيد قوى نخب من الاستقواء بالآخر على منطقتها الجغرافية وسيادتها السياسية وثرواتها الاقتصادية، والذي تعتبر نفسها امتدادا له من يوم آمنت بأفكاره ونظرياته ونهجه الحضاري، والذي هو الآخر يعمل على التمكين لها باعتبارها جزءا منه وخليفة له بعد انسحابه من خريطة العالم الإسلامي ونائبا عنه في مصالحه.

ومادامت قدرة الإبداع مطلقة، فقد يحدث ما لا تستطيع الاحتمالات عدّه وإحصاءه وقراءة المستقبل من خلاله، مما هو خارج قدرة القراءة البشرية،

وإن لم يكن خارج قائمة الاحتمالات التي ما لا نهاية لها، مما يحسبه الفكر البشري من الغيب الذي لا طاقة له به، ولكن قراءة الاحتمالات تحاول استدعاءه ولو كانت تدري أنه من الغيب، وهو ليس منه، لأنه ضمن دائرة قدرة مدارك عقل الإنسان.

وفي هذا السياق فمن الأقوم قيلا أن النظر في الاحتمالات والتحقيق في إمكانية ورودها يتطلب دراسة يملي الحس الحضاري جزءا منها وفق منطق سؤال: ما هي الاحتمالات التي قد تحقق لقوى ما إمكانية التداول على الحكم وقيادة الأمة الإسلامية وربما البشرية من خلالها؟ ولعل من حكمة الجواب بيان أن منها:

- احتمال إصلاح الأنظمة السياسية والاقتصادية والعلاقات الاجتماعية، وهو أمر وارد ومحتمل ولو على المدى البعيد.

- احتمال تقاسم الحكم وآليات إدارته بين الأنظمة القائمة والشعوب الإسلامية عن طريق الاهتمام بمؤسسات التمثيل الشعبي، وهو أمر وارد بشروط تكون في صالح الطرفين، حيث يستفيد كل منهما من قدرة الآخر وتجربته.

- احتمال حصول توافق تفاهم بين الحركة الإسلامية والقوة الخارجية وفق شروط أساسها المحافظة على ثوابت ومصالح الآخر، وإن كان هذا الاحتمال غير وارد إلى الآن على الأقل ولو في المدى القريب لعدم وجود إرهاصاته ومؤشراته.

- احتمال انهيار القوة الخارجية، وضعف قبضتها على المنطقة، وهو أمر وارد بمعنى محتمل جدا، وقد توافرت شروط كثيرة منه ولكن الشروط ذاتها وفرت لقوى أخرى من العالم المزيد من فرص الاستقواء، مما قد يغريها بمحاولة الهيمنة هي الأخرى على العالم الإسلامي، مما يجعل الشعوب

تقدم احتمالات توافق التفاهم معها ولو بمنطق التمايز الشديد.

- احتمال تخلي الشعوب الإسلامية عن ثوابتها والانسحاب من منطقة عراك الحكم السياسي، والانشغال في ميادين أخرى كالثقافة والاقتصاد والفكر مما قد تتداول مع الآخر من خلاله، وهذا أمر وارد وإن كانت مؤشراته قديمة وليست من اهتمامات تجديدات الفكر الإسلامي بقدر ما كانت من اهتماماته منذ عقود، وإن كان مازال يتمتع بها في مناطق كثيرة من خريطة العالم، ولاسيما لدى المحافظين من دعاة الأسلمة.

- احتمال ظهور قوة ليست إسلامية تعمل من خلال ثوابت مطالب الشعوب الإسلامية، تأخذ الحكم في المنطقة بطريقة ديموقراطية، لانتهاجها مبدأ التقية، واعتمادها أساليب الاختراق، حيث تتمسكن حتى تتمكن، وهو أمر وارد وإن لم تتوافر شروط الوعي به التي قد توفرها شروط الوعي بما أصبح يسمى الطريق الثالث، وقد بدأ يظهر شيء من ملامح هذه التجربة المتوقعة في مناهج حركات إسلامية على خريطة العالم كالذي في تركيا وماليزيا.

- احتمال انفلات الأمر من بين يدي القوى كلها، ودخول المنطقة في فتنة شاملة تستمر حينا من الزمن إلى أن يفصل في وقائعها منطق نظرية البقاء للأصلح أو البقاء للأقوى، كالذي حدث في تجربة أوروبا في أعقاب القرون الوسطى، وكالذي فصلت فيه أحداث الحرب العالمية الثانية، وكالذي في تجربة العالم الثالث في حلّ مشكلته مع قوى الاحتلال العسكرية، والتي قد تبدع تجارب أخرى في مواصلة نهج تحررها الحضاري[1] وهذا لا يعني انغلاق دائرة الاحتمالات، وانتهاء اجتهاداتها عند هذا القدر من عددها الذي ما لا نهاية له، وإنما هذا جزء من الاحتمالات التي قد يتحقق واحد

---

١ - عبد الرزاق مقري : ضروري التجديد في علاقة الدعوة بالسياسة، ورقة مقدمة إلى الملتقى الدولي الثالث للشيخ محفوظ نحناح رحمه الله، جمادى الأول ١٤٢٧هـ / جوان ٢٠٠٦م، زرالدة، الجزائر، ص٠٤.

منها أو بعضها من نظرية التداول السياسي على الحكم في العالم الإسلامي ومآلاته .

وقد تدخل على الخط فرص احتمالات أخرى كانت بعيدة ربما أبعد من ما يتوافر من احتمالات بين يدي الواقع من خلال مفاجأة القدر مما يزيد في تعميق فلسفة الاحتمالات وقابلية السنن مرافقتها والتوسع معها في الحضور، حيث وجدت الكينونة وحيث كانت الاحتمالات.

ومهما يفترض الإنسان أشياء،ولاسيما المفكر، ويتوقع حدوثها، فيكون له ما افترضه أو بعض منه،إلا أنه لا يمكن له الإحاطة علما بالاحتمالات كلها، فلا يحدث شيء مما توقعه لأنه من أهم ما يميز الدراسات الافتراضية والتوقعية أنها ليست قطعية الحدوث، فقد تتعطل لأسباب ذاتية، أو لأسباب خارجية، وهذا ما ينفي الحتمية، ويقوي حظوظ الاحتمالات وهي بحث آخر له مقام آخر فيه تدرس احتمالات ازدهار الإبداع العلمي الحضاري لدى الشعوب والأمم من خلال الأنظمة السياسية والمؤسسات العلمية ومراكز الثقافة وكل ما له وظيفة في توجيه المآل الحضاري من خلال السنن إن نحو السقوط أو نحو تواصل الازدهار، أو إجراء التداول بين شعب وآخر وأمة وأخرى.

الفصل الخامس

السنن الجبرية

والاكتشاف العلمي واختراعاته

- **السنة الجبرية**: إن مثل السنن الجبرية كمثل السنن العادية، ولكن كل في ميدانه، فالسنن العادية تحكم عالم الفكر ومن خلاله تحكم حتى عالم السنن الجبرية التي تحكم اكتشافات منظومة العلم حيث تعتبر آلة اختراعاته، والذي كلما زاد التحكم في آلية الاكتشاف زاد الاختراع والتحكم في آلياته تحكما شديدا، وإن انشطرت السنن الجبرية شطرين: جبري وحتمي، فالجبري ما تكتشف العلوم وتخترع من خلاله، أما الحتمي فهو ما جرى قدر الله بين يديه، حيث تنتفي خيارات الإنسان فيه فلا يقدر حتى على الإجابة عن مثل لماذا ولد في زمان كذا ولم يولد في زمن كذا؟ لأن أمر السنن الحتمية يدخل ضمن المشيئة الإلهية والقدرة الربانية، مما لا طاقة للإنسان به ولا خيار له فيه، مما قد يدخل ضمن: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[١].

وعندئذ فلا سؤال إلى الله لماذا يخلق؟ وكيف يخلق؟ لا من المنظور العقدي، ولا من منظور رؤى أخرى فكرية أو علمية لعدم واقعية السؤال وجدواه، لأن معرفة حقائق هذا السؤال خارج دائرة قدرة الإنسان: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[٢] وضمن دائرة كثير العلم الذي يعرف من مفهوم المخالفة، ولم يؤتاه الإنسان لحكمة ربانية قد يكون منها أن الأمر أكبر من قدرات الإنسان، إلا إذا استطاع الخروج من دائرة عجزه غير المستحيل بمقتضى ما يفهم من قوله تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾[٣].

السلطان الذي فسّر على أنه العلم الذي يزيد في قدرة الإنسان العقلية، مثلما زاد الإنسان في قدرة سمعه وبصره، حين عجز عن سمع الأصوات من مسافات بعيدة، وعن رؤية الأحجام الصغيرة، فاخترع من الآلات ما يحقق

١- سورة الأنبياء، الآية ٢٣.

٢- سورة الإسراء، الآية ٨٥.

٣ - سورة الرحمن، الآية ٣٣ .

به أغراضه، كالمجهر والميكروسكوب في ميدان البصر، وأجهزة التنصُّت في ميدان السمع، ومن خلال هذا ومثله استطاع الإنسان أن يدخل جزءا من السنن الجبرية الحتمية ضمن السنن الاختيارية، ويردّ ما شرد من الاستثناء إلى القاعدة التي لم تضيق دائرتها مثلما ضاقت دائرة السنن الحتمية الجبرية والخارقة التي كأن السنن العادية أخذت من مساحتهما ما أخذت، ولكن يبدو أن مساحتي السنن الجبرية والخارقة هي الأخرى تتوسع بفضل سلطان العلم، مع أن دائرة الاستثناء قد تتسع في مجالات أخرى، مما قد تصبح أكبر من دائرة القاعدة التي هي هنا دائرة السنن العادية شبه المطلقة والتي وفرت للإنسان حظا كبيرا من الحرية لاختيار مواقفه، وتبني قيمها ومبادئها من أجل تحمّل مسؤوليته أمام نفسه وأمام الله وأمام التاريخ.

ولذا تنشط السنن الجارية بدوافع توافر شروطها في حدود دائرة المساحة بين السنن الإجبارية خارج نطاق قدرة الإنسان، والخارقة التي تجري بمقتضى الاستثناء من السنن الجارية، والإنسان وما يخول له الإبداع الحضاري الفكري والعلمي وغيره بين يديه من السنن العادية أو الجبرية أو الخارقة وفق توافر خصوصياتها.

- **الجبر**: كان الجبر مرادفا لمعنى الحساب والرياضيات، مثلما كان عنوان فرقة إسلامية تاريخية تسمى الجبرية[١]، والتي صار من خلالها مصطلحاً تتجادل فيه أفكار الفلسفة فتستنطقه ليقول ربما ليس من حمولته ومقاصده ويبيح ما يفهم منه من معاني، ثم أصبح لفظ الجبر والجبرية مضافا إليه في العصر الحديث مصطلح السنة في مجال الفكر ولو ناب عنه مصطلح آخر يرادفه المعنى قد تؤثره بعض الدراسات عليه وهو مصطلح الحتمية لالتقائه معه في الحسم والجزم وضرورة التحقق ولاسيما في ميدان الطبيعة

١- وهي الفرقة القائلة بجبر الإنسان وأنه كالريشة في الهواء، ومن أفكارها نفي صفات الله . وخلق القرآن، وقد رُدَّ على أفكارها بأنّ فيها تعطيلاً وركوناً إلى القدر وترك العمل، ومؤسسها جهم بن صفوان من مواليد خرسان.

وجريان مفردات الكون، وإن كان مصطلح سنة الحتمية قد صار حكما نهائيا غير قابل للطعن بينما مازال مصطلح سنة الجبرية آلة إبداع علمي.

- **خصائص السنن العامة**: إن السنن العادية هي السنن الجارية وهي القاعدة الأوسع مجالا والأوفر حظا لأنها أصل السنن التي يتحمل الإنسان من خلالها مسؤوليته كاملة في الإبداع الفكري الحضاري وغيره من المجالات إنّ خيرا فخير وإن الأخرى فعليه، وبحكم أن السنن العادية هي القاعدة فإليها ترد أقسام السنن الأخرى كلها وتدرس من خلالها وإن لم يبحث في كيفية ردها إليها.

ولذا، فإن دراسة هذا المبحث تستصحب علاقات ما بين السنن العادية والأخرى وما يجمع بينها من خصائص إلى أن تتضح صفات كل قسم وأداءاته ووظائفه **مما** يسهم في تقديم معيارٍ ضابطٍ يخدم مختلف القضايا في الفكر الإسلامي، وخاصة مبحث المعجزات والخوارق.

- **بين أقسام السنن**: لقد جمعت خصائص ما بين أقسام السنن كلها وانفرد بعضها عن البعض الآخر بخصائص تميزها دون سواها، وسيستصحب هذا المبحث خصائص السنن جميعها ثم يفرز مواقع التماس بينها ومواقع الاختلاف لئلا يهاب الإنسان اقتحام مجاهل الغيب في مجال العقيدة والعلم والإبداع عامة، فيحسب أمورا من الغيب غير قابلة للاكتشاف وما هي منه، ولاسيما قد أتى على الإنسان حين من الدهر أوعز أكثر ما جهله إلى عالم الغيب وادعى ضرورة احترامه ولا ينبغي التجرؤ عليه لأنه من ما استأثر الله وحده بعلمه!.

ولذا مازال في تقديري أن الذي درس من أقسام السنن شيئ ما هو السنن العادية الجارية، أما السنن الجبرية والخارقة فلم يطمث مجالاتهما الدرس إلا قليلا، ولذا كان الحرص في هذا الفصل على تناول بعض قضاياهما،

ولعل من البديهي أن نبتدئ هذا الفصل بسؤالين هما: لماذا كان الجبر والاختيار في حياة الإنسان فيما لا طاقة له به وفيما له به طاقة منذ الأزل؟ ويبدو أن هذا السؤال هو مدخل البحث في السنن الجبرية. ومن الإجابة عنه: أن الجبر كان منذ الأزل وسيبقى إلى الأبد، ولذا ينبغي أن نبحث حكمة وجوده في ميدان الواقع الفكري والعلمي لا في الفلسفة النظرية ليعرف مدى تلاؤم طبيعة خلقة الإنسان وظروف بيئته الجغرافية المناخية والجوية.

أما السؤال الثاني فهو على شاكلة صيغة السؤال الأول نفسها وهو: لماذا كانت الخوارق؟ ولعل من الإصابة في القول إيراد مثال يتضح به المقال وهو أن الطبيب يبدو غير مجبر ليشرح لمريضه كيف أصابه المرض ويعطيه علما به، وكيف ينشأ وكيف يتطور، وكيف يعالج.. وهذا لن يتأتى للمريض فهمه إلا إذا صار طبيبا مثل طبيبه أو زيادة، ومثلما يقال في عمل الطبيب يقال في عمل المهندس الذي هو الآخر غير مجبر أن يفرغ بين يدي متعامله كل الأفكار الهندسية وإلا صار مدرس هندسة يعلم الناس كلهم وليس طلاب الهندسة فقط.

ففي تقديري أن هذين هما مدخل دراسة السنن الجبرية والسنن الخارقة وما يجمع بينهما من جهة وبين السنن العادية من الجهة الأخرى.

- **بين السنن الجبرية والسنن الأخرى:**

١- **بين السنن الجبرية والعادية:** فالسنن الجبرية هي سنن الغيب الذي لم يطلع الإنسان عليه، وليس له إلى معرفته سبيلا إلا الاجتهاد اجتهادا صحيحا في إطار الوحي، ولذا يبدو أن كدح الإنسان في سبيل معرفة السنن الحتمية غير مجد ولا طائل من ورائه ولا فائدة تترتب على معرفته إلا من باب دراسته ذاته وما قد يفاد منه في معرفة حكمة الخلق وخصوصية المخلوق مثل لماذا خلق الإنسان الأبيض والأسود؟.

ولذا ينبغي أن يتناول الدرس بحوثه ومسعاها في معرفة الإجابة عن الحكمة في خصّ البيئة الصحراوية بالبشرة السوداء مثل إفريقيا، وكيف تساعد هذه الصفات أصحابها في بيئاتها على التكيف لصنع الحدث الحضاري وتطوراته في المأكل والمشرب والملبس والسكن والنقل والاتصال... فالوسائل التي تنافست الحضارات في تطويرها وتحسين أدائها ورفاهيتها منذ القدم، ومازال التنافس يبدع كل حين جديدا ثم ما يفتأ حتى يصبح قديما ليبدع آخر جديدا أفضل منه في تواصل واستمرارية.

وهنا يدخل إبداع الإنسان ضمن السنن العادية ذات الإبداع الواسع وإلى جواره من بعده إبداع السنن الجبرية العلمي الدقيق بعدما لم يجد نفعا كبيرا من البحث في السنن الحتمية خلف السنن الجبرية التي انعدم خيار الإنسان فيها، حيث لا طاقة له في تناولها لأنه لا يستطيع تغيير شيء من أمرها حتى وإن لم يستسلم لقهرها مطلقا، ومازال يكرر معها ويدفع بها إلى ميدان السنن العادية الرحب ومرونته اللينة من خلال السنن الجبرية أقرب مقربيها التي هي أكثرها صرامة، مثلما يبدع في عمليات تغيير لون البشرة لتجميلها في نظره، وقد صار التجميل علما طبيا غزيرا حقق أهدافا كبيرة من طموحات أصحابه وفضول دعاته، ولكن خروجه عن الفطرة أضرّ الإنسان في مواقع كثيرة من شخصيته الجسدية والنفسية وحتى الاقتصادية والسياسية والثقافية وما سلم عِلْم من نقد وما برئ من عيب ونقص.

ب- **بين السنن الجبرية والخارقة**: من أبجديات ثقافة تعريف المعجزة عند علماء العقيدة أنها أمر خارق للعادة، بمعنى غير مألوف ولا معروف في حياة الناس اليومية ولم يشهدوه من قبل وربما لم يشهدوا حتى مثله فهو طارئ جديد، ولكن هل الخارق الطارئ الجديد خارج السنن العادية الجارية يظل كذلك أم قد يُؤْلَفُ وَيُعتادُ في حياة الناس بعدما يعرف ويعرّف به؟ وهل الأمر الخارق تحكمه هو الآخر سنن مثله أو من جنسه أم سنن

أخرى؟ وهل ينافس أقسام السنن الأخرى الميدان نفسه؟ أم له ميدان آخر يخصص له موكلا له الإبداع فيه وحده؟ في الإجابة عن هذه الأسئلة وما قد يكون من مثيلاتها خبر الأمر، ومنه أنه ما من شيء كان أو سيكون إلا كان بِعِلْمٍ وَيعرف بعلم جَهِلَهُ من جهله وَعَلِمَهُ مَنْ علمه، والجهل بالشيء لا يعني عدمٍ وجوده أو عدم توافر وسائل علمه، وإنما الإنسان هو الذي يعلم ويجهل ويصيب ويخطئ ويقدم ويؤخر في إطار المشيئة الربانية.

ومن هذا المنظور، فالخوارق هي الأخرى تحكمها سنن من جنسها تسمى السنن الخارقة، ولكن الإنسان هو الذي لم يصل فيها إلى علم كاف، وإن مازال فضوله المعرفي يدفعه كل حين إلى مزيد من اكتشافها بضم حقول مجاهل إلى حقول علمه ومعرفته، وضم المجهول إلى المعلوم والنكرة إلى المعرفة هو علم يتمّ بفضل سلطان اكتشاف السنن وفق المنطق والسبب والمسبب والشرط والمشروط إلى آخر إجراءات مفهوم السنن، ولذا فبقدر التحكم في سنن التعرف على النكرة واكتشاف المجهول وتوسع دائرته واقتدار قدرته أكثر تحقق المعرفة في التقدم الحضاري، وهذا لا يعني أن الإنسان سيأتي يوما يحيط بكل شيء علما وإنما سيظل ضمن دائرة «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا»، ولكن هذا القليل بقدر الله، أما بتقديرات الإنسان فقد صار كثيرا.

ويبدو أن كل ما يتحقق من نجاحات في ميادين دائرة السنن الخارقة وسواها ويوسع دائرة مفهوم السنن العامة ويزيد في تحكماتها فيصبح من مكتسبات العلم والمعرفة وإن كان الإنسان لن يحقق كل مبتغياته ولو ظل ينشدها الدهر كله وقد قال الشاعر:

ليس كل ما يتمناه المرء يدركه   تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

ولأن قدرة الإنسان ستظل محدودة جدا قياسا على قدرة الله لأنها جزء يسير منها مثلها كمثل قطرة ماء في بحر، ولأن صفات الله لا يشاركه فيها

بشر إلا بقدر لأنها مطلقة وصفات البشر مقيدة . ومهما ظل الإنسان يحلم في المثاليات ويسبح في الخيال ويكدح فيه كدحا فإنه لن يحقق له منه إلا قليلا ، ويظل البعض الآخر من العلم هو الجزء الأكبر المستأثر به علم اللّٰه في عالم الغيب العقدي والعلمي والمعرفي العام، حتى ولو كان بعضه ذا قابلية للخضوع لمنطق مفهوم السنن والانقياد له، ولكن من سنن اللّٰه ذاتها ألا يطلع بشرا على الغيب كله ولو كان نبيا أو رسولا،وهي الحقيقة التي صارح رسول اللّٰه ﷺ قومه بها حين أوحى اللّٰه بها عليه ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾[1].

- **استثناءات السنن**: تقرر في سنن كلام العرب منذ كان أنه لكل قاعدة استثناء، ولم تستثن السنن من الاستثناء وبعضها من الاستدراك ولو قليلا ، والقصد بيان التمايز بين أقسام السنن، وفي الخبر التاريخي أن اللّٰه استثنى قوم يونس عليه السلام من الهلاك: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[2].

ولذا ليست السنن على نسق واحد في المفهوم والصفة والأداء، وإنما لكل قسم تميزه بخصوصيات وانفراده بصفات، وإن جمعت بين أقسام السنن كلها خصائص مشتركة، ولذا كان قصد هذا المبحث بيان هذه الميزات والصفات لئلا توضع السنن بأقسامها كلها في خانة واحدة وضمن حكم واحد، فإذا كان من خصائص السنن الشمولية فإنها في عموم مفهومها بمعنى الطريقة ولكن قد انفرد كل قسم بجزء من هذه الشمولية يعرف به من خلال اسمه. فالسنن الجبرية تعني ما أجبر الإنسان فيه وعليه فافتك منه فيه حق خيار التصرف، فسقطت عنه المسؤولية فيما أجبر عليه كرها من دون رضا به، وعندئذ فلا التزام له تجاهه وتجاه ما يترتب عليه من

---

١ ـ سورة الأعراف، جزء من الآية ١٨٨.

٢ سورة يونس، الآية ٩٨.

تداعيات كإجبار الإنسان على صفاته الخَلقية كاللون والقامة، وهو ما يدخل دائرة حكم مفهوم السنن الحتمية ويخرج من دائرة مفهوم السنن الجبرية وغيرها، وإذا أجبر الإنسان أو كاد يجبر حتى في بعض الصفات الخُلقية الموروثة غير المكتسبة كسرعة الغضب وشدته أو قوة الصبر وتحملاته باعتبار الطبع يغلب التطبع، فإنه محتمٌ عليه وليس مجبرا عليه، لأن الإنسان بإمكانه الانفلات من قبضة الجبر وليس ممكنا له الانفلات من قبضة الحتم، ومن هنا كانت السنن الحتمية أشدّ حدة من السنن الجبرية ولو كان الفرق بينهما دقيقا، ولذا بين السنن الجبرية والحتمية شبه كبير حتى كاد مفهومهما يكوّنان سنة واحدة، وقريب منهما مفهوم السنن الخارقة في الالتزام وإن لم يستطع الشبه إعدام خصوصيات كل منهما.

- **الاستثناء من الشمولية:** لعل أوسع استثناء في الاستثناء: الاستثناء من شمولية عامة السنن الذي يعني الانطباق على جميع أنواع السنن إلا السنن الحتمية، وربما جزء من السنن الخارقة دون تمييز عرق عن عرق، أو عقيدة عن عقيدة بل انطباقها في ماديات الحياة ومعنوياتها وروحانياتها، وهذا ما يؤكده خبر القرآن الكريم في تاريخه والتاريخ البشري من حوله مثل الذي في الآية: ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[1] فالضمير الغائب في «لا يؤمنون به» رسول الله ﷺ، فالكفر بالذكر في الآية ليس من خصوصية الأولين فقط بل سنة تشمل ممن كانوا قبل نزول هذه الآية ومن بعد نزولها من الذين سيصبحون يوما من الأولين لمن سيأتي من بعدهم، وهذا الدليل التاريخي من القرآن شاهد إثبات على شمولية السنن إلا ما كان من السنن الحتمية وجزء من السنن الخارقة التي تخرق السنن العادية والجارية والجبرية ولو كانت دائرتها أضيق منها، ولكن لن يحتوي عموم السنن العادية ضيق السنن الأخرى لانتفاء الصفة بينهما، حيث تعمّ السنن العادية مجالات الحياة وتترك قهرا مناطق في إطار خريطتها

---

١ سورة الحجر، الآية ١٣.

العامة للسنن الأخرى كمنطقة الحتمية من السنن الجبرية، مثلما في مجال علم الأحياء أو علم الأجنّة أو علم الخلية سواء أكانت بشرية أو حيوانية أو نباتية ثم العلمية التكنولوجية ومناطق أخرى للسنن الخارقة القابلة للتحوّل إلى مناطق السنن العادية والسنن الجبرية في عالم الاكتشاف العلمي واختراعاته، وتترك السنن العادية مناطق أخرى للسنن الخارقة في عالم الغيب ولاسيما العقيدة الإسلامية منه، أما حين يتألق الإنسان فيبدع جديدا هاما في ميدان العلم والفكر فيطلق على إبداعه المعجزة، فإن إطلاقه عليه تحفظ من الناحية الإيمانية، حيث عالم المعجزة المستحيل، إلا أنه قد يعتبر الإطلاق من باب المجاز وهو من السنن الجبرية أو الجارية وليس من السنن الخارقة، ولذلك لو لم تكن علاقة أقسام السنن بعضها ببعض على هذا المنوال لاختلط الأمر وما تميز بعضه عن بعض ولجاء على وتيرة واحدة غير متمايز، مما يعني تساوي كل شيء. وهذا يتنافى مع حكمة الله في سنن الخلق الذي فضل بعضه على بعض في صفات كثيرة.

ومن هنا كان تمايز الإبداع الحضاري بين الأمم في الأشياء والأفكار، وهذا الذي يعني شمول مفهوم السنن الذي كادت تنفرد به السنن العادية، ولذا كان أول ما درس من أنواع السنن وأقسامها: السنن العادية، وكأنها هي السنن وحدها ولا يوجد سواها، ثم عندما عمّقت الدراسات مفهوم السنن مازالت تقيّد أنواعها الأخرى، وإن حددت مجالات إبداع كل سنة وتحكمها فيه، ومن هنا المستثنى والمستثنى منه في عالم السنن.

- **الاستثناء من الحياد**: فالسنن في عمومها بأقسامها كلها المستثنى والمستثنى منه لا تحابي من تجري عليه في مجاله حيث تجري على العاقل وعلى غير العاقل، فيتحمل الإنسان مسؤوليته تجاه ما هو من العادي منها ويفقد التزامه تجاه القسم الخارق والحتمي، لأن معنى الحياد عدم الميل، لأنه عدل مع كل شيء طوعا أو كرها، ومن هنا كان الحياد أهم ما يضبط

السنن، ويجعلها تتعامل مع البشر جميعهم بصرف النظر عن عقائدهم، وانتماءاتهم القومية وغيرها، ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾[١]. فمعنى هذا من يعمل سوءا يلق جزاءه، لأنّ الجزاء أثر طبيعي للعمل وفق سنة لا تتخلف، لأن السنن لا تلين لأحد، فكل يأخذ حسب عمله، ومن سلك طريق الصواب لقي الجزاء، ومن سلك طريق الخطأ نال العقاب، وما انهزام المسلمين في معركة أحد إلا دليل على حياد السنن، وحين قالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه، ردّ الله عليهم ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾[٢]. يقول صاحب المنار في تعليقه على حياد السنن: جاء القرآن يبيّن للناس أن مشيئة الله في خلقه إنما تنفد على سنن حكيمة، وطرائق قويمة، فمن سار عليها ظفر بمشيئة الله، وإن كان ملحدا أو وثنيا، ومن تنكبها خسر وإن كان صديقا أو نبيا[٣]، ويفهم من هذا أن الإنسان ينظر إليه في حكم السنن بصفته إنسانا بصرف النظر عن عقيدته وقوميته وجنسيته وغيرها لعدل السنن لأنها أقدار الله[٤]. ولذا فالسنن تؤخذ من السير بصرف النظر عن انتماءات أصحابها، ولعل هذا المعنى يفاد من ألفاظ النكرة في الآية: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾[٥] في ثبات مطرد من دون تحول ولا تبدل، واستثناء السنن هو الآخر من صفته الثبات.

١- سورة النساء، الاية ١٢٣.

٢- سورة المائدة، جزء من الاية١٨.

٣- رشيد رضا: تفسير المنار، ص١١٦.

٤- إبراهيم بن الوزير: على مشارف القرن الخامس عشر الهجري، ص٠٩.

٥- سورة آل عمران، الآية ١٣٧.

- **الاستثناء من الثبات**: إن ثبات السنن لا يخرق وإن استثني منه فسار في صنف من أنواع السنن وأقسامها فإنها تأخذه صفة من غير بديل عنه بنص الآية: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[1] وبحكم منطق التزام الثبات بمفهومه الذي هو من ثبت، يثبت، ثبوتا وثباتا بمعنى تأكد[2] وسار على حاله من غير تحول، وفي تفسير هذه الآية يقول سيد قطب: الأمور لا تمضي في الناس جزافا، والحياة لا تجري في الأرض عبثا، بل وفق نواميس ثابتة تتحقق ولا تتبدل ولا تتحول[3].

ولذا، فالأشياء ثابتة بحكم السنن منذ كانت، ويصعب على الإنسان تحويلها أو تبديلها بل يستحيل عليه ذلك، ومن أمثلة التدليل على ثبات السنن اعتراض ما أورده الدكتور أحمد محمد كنعان مفاده أن أحد أصدقائه نفى ثبات السنن بظهور بعض الأمراض التي لم تكن معروفة «كالإيدز» وغياب أمراض أخرى مثل «الجدري»، وهذا حسب رأيه يدل على عدم ثبات السنن وتبدلها، فرّد عليه بقوله: «إن غياب مرض الجدري، وظهور الإيدز يؤكدان على عدم تحول السنن فالجدري اختفى لأسباب معروفة في عالم اللقاح الواقي على نطاق واسع، ولم يختف نتيجة تغيير في سنة المرض، وظهر مرض الإيدز لتوافر أسباب ظهوره[4] الذي هو الآخر قابل للاختفاء بمجرد اكتشاف دواء علاجه، ومثل هذه الحقائق تؤكد ثبات السنن حقيقة أزلية باقية على الدوام.

١- سورة فاطر، الآية ٤٣.

٢- محمد فريد وجدي: دائرة معارف القرن العشرين، مادة (ث . ب . ت).

٣- سيد قطب: في ظلال القرآن،ج٤، ص٢٩٤٩.

٤ ـ أحمد محمد كنعان: أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، كتاب الأمة،ط١، ص٧٣.

- **الاستثناء من الاطراد:** مشتق من طرد اطرادا أي حمل بعضه على بعض، واطّرد الأمربمعنى اتبع بعضه بعضا واستقام عليه[1]، فكان المنتهى على ما كان عليه المبتدأ .

لذا، فالسنن تجري على أثر بعضها بعضا كلما توافرت شروط تحقق تتابعها، وانتفت موانعه، واطراد السنن هو الذي يجعلها قابلة للتكرار مما يسهل على الإنسان تعلمها مثل تعلمه قوانين المواد الكيميائية والفيزيائية وغيرها من قوانين العلوم الأخرى.

- **السنن الجبرية والاكتشاف:** إن المنطق الذي تدرك من خلاله علاقة السنن العادية بالإبداع الفكري الحضاري العام وضبطه سلوك الإنسان هو المنطق الذي تعرف من خلاله علاقة السنن الجبرية بالتزام حقائق الغيب العلمي والبحث في مجالاته، غير أنه من طبيعة منطق السنن الجارية أن تتيح أمام الباحث المبدع جملة خيارات يتوصل بها إلى الحق وينجز أهدافه ولو بتفاوت من حيث الصواب والأصوب، ولكن من طبيعة منطق السنن الجبرية أن يضيّق مساحة الخيار وعدد احتمالاته، مثلما أن طبيعة السنن الجبرية أجزم وأحكم بينما تتميز طبيعة السنن الجارية بصفة إفساح الخيار لمساحة واسعة وطرح احتمالات كثيرة خاصة وأن السنن الجارية تكاد تكون جزءا من السنن العامة ذات المجال الأرحب والتتبع الدقيق لكل شيء لأداء وظيفتها فيه ومن خلاله.

- **السنن الجبرية وقوانين الكون ونظامه:** ما من شيء من أشياء مادة الكون إلا وتحكمه سنة من السنن الجبرية التي ميدانها الكون، ومفرداته ميدان مادة البحث العلمي، ولذا كانت من وظائف السنن الجبرية آلية الاكتشاف العلمي وأداة اختراعاته فيما يسمى السنن الكونية وهي سنة عامة أحكمت الكون كله ظاهره وباطنه،وأخرى أحكمت نظم مجموعاته

---

١ – محمد فريد وجدي: دائرة معارف القرن العشرين، مادة (ط. ر. د) .

غاية الإحكام والدقة والأداء فما شذ عن قبضتها منه شيء إلا ما كان من استثناء السنن الحتمية والخارقة، وبما أن السنن الجبرية ميدانها الكون فسميت باسمه من خلال الإضافة إليه أي السنن الكونية فقد يكون من منهج تعريف المجهول بالمعلوم أن تدرس تحت عنوانه وهي سنن كثيرة عامة وأخرى خاصة متعلقة بمفرداته وما اكتشف من نظم تحكمه مجموعاتها.

وإن من أوضح سنن الكون الانتظام والانضباط، وأنه ما من شيء فيه إلا تحكمه سنة أو سنن ينضبط من خلاله ويؤدي وظيفته وفق مقتضياتها في حركاته وسكناته، ولذا فلا تصادم بين مفردات الكون وأشيائه، حيث كل شيء في فلك يسبح،لا يبغي بعضه على بعض، لأنه من دون النظام والانضباط به لا يحقق الإنسان شيئا في الحياة، ومن هنا ليس النظام -والانضباط جزء منه- في مجال الكون وحده من دون سواه، بل الانضباط والانتظام سنة عامة في مجالات الحياة كلها، ولولاها لكان الوجود مسرح فوضى تصطدم مفرداته بعضها ببعض، مثلما تبغي رغبات الإنسان على بعضها البعض.

- **سنة التوازن**: يبدو أن التوازن صار مطلبا عزيزا به يحفظ الشيء من أن يميد أمره بما فيه وبما عليه، وهو الذي على أساسه بنى الله ملكه ودبّر أمره وسيّر شأنه، ولذا كان التوازن سنة ضرورية من سنن الوجود كله.. لولاها لتناثرت حقائقه وأشياؤه، ويبدو أن الميزان من مشتقات التوازن الذي إليه يتحاكم الإنسان منذ القدم في تعاملاته أثناء البيع والشراء وتقاسم الأملاك والأموال، فهو الذي يفصل في تخاصم أهل الدنيا والآخرة في الشأن كله ومنه تشتق مضامين أخرى كالكيل والقصاص.

وقد ورد ذكر التوازن بمعنى الميزان في القرآن الكريم بمختلف مشتقاته بما يزيد عن ثلاث وعشرون مرة في مواطن من الحياة أكثرها موطن معاملة البيع والشراء، وقد ظهر مصطلح التوازن في استخدامات أخرى مثلما صار

يستخدم في استهداف تحقيق غايات مثل التوازن البيئي والتوازن الروحي والغذائي وغيره من الميادين الأخرى ليكون التناسق من مفردات الأشياء ومكوناتها.

- **سنة التناسق**: يبدو أن التناسق يعني الجانب الخارجي للتوازن الذي يزين مظهره مثل الجانب التركيبي، وهو الآخر سنة من السنن التي قام عليها الوجود ولا يكاد يخلو شيء من التناسق إلا فقد من قيمته، ولذا ليس الحديث في التناسق جديدا، وإنما جديده أنه أصبح يطرح سنة من سنن الوجود بعدما كان يكاد لا يخرج من ميدان الأدب وجماليات حديثه، وإن عرف التناسق تمرد الإنسان عنه لما مرد عليه من خروج عن مسار السنن وأحكام قبضتها حينما يفسق عن أمر ربه فتتشين أفعاله وسلوكياته، وعندئذ تفقد أعماله وتصرفاته التناسق مثلما تفقد التوازن والانسجام وغيرها من الصفات التي قام عليها الكون بموجب السنن النافذة.

- **سنة الانسجام**: يوجد في الانسجام،إلى جانب ما يطابق فيه مرادفاته، معنى القسمة بعدل بين مفردات الحياة حتى لا يبغي بعضها على بعض، مثلما يحفظ الانسجام، إلى جانب مرادفاته، العلاقات بين مفردات الكون ومجموعاته حتى لا يصدم بعضها بعضا.

ومادام قد اتفق على أن الكون تحكمه سنن عامة مثلما تحكم مفرداته سنن أخرى يؤدي من خلالها وظيفته، وفي إطاره تؤدي مفرداته هي الأخرى وظيفتها، فكان من الحكمة الربانية نظام التزاوج كالذي بين السالب والموجب في عالم الكهرباء. وَكُلٌّ له خصوصياته وميزاته.

- **السنن الجبرية ومناهج البحث العلمي**: أعتقد أن السنن هي إجراءات البحث التي من خلالها ينجز أهدافه حين يؤدي وظيفته بمقتضاها، وبقدر الالتزام بها وتتبع مساراتها يتبين صواب المنهج وأصوبه وتتحقق غاياته، ولذا فإنه عندما يفقد البحث صوابه بالخروج عن المنهج والانحراف عنه،

فإنه يعني التخلي عن التزام السنن والانضباط بمقتضياتها والتفريط في أداء وظيفتها في الحياة وإدارة شؤونها من المجرة إلى الذرة، فليس في الحياة شيء يتحرك أو يسكن بمعزل عن السنن أو خارج دائرة قبضة أحكامها.

ولذا بات قدرا مقدرا أنَّ الباحث لا يستطيع إنجاز شيء إلا من خلال انتهاج منهج السنن وسلوك سبيلها، وقد بات قدرا مثله أن المنهج لا يكون إلا بفقه سننه وإلا صار الأمر عبثا لا يجدي نفعا ولا يكاد يبرح مكانه، ومن موقع المنهج وما مثله تتأكد ضرورة فقه السنن في مناكب الحياة كلها، حيث لولا معرفة المنهج والتزام إجراءاته ما عرف طريق إلى الحق ولا سبيل إلى الاهتداء إلى التحضر ولا إلى ضروراته ولا إلى كمالياته، حيث تبنى أولويات الأفكار فيقدم ما يستحق أن يقدم ويؤخر ما يستحق التأخر.

- **اكتشافات العلوم الأولى**: أعتقد أنه لم يكتشف علم أو ينشأ علم آخر منه إلا من خلال اكتشاف سننه والتحكم فيها من يوم كان الاكتشاف العلمي شبه عام، حيث كانت كثير من العلوم الحديثة علما واحدا ثم أخذ يتجزأ حين ظهر التخصص ثم تجزأ أكثر حين ظهر ما أصبح يطلق عليه تخصص التخصص أو التخصص الدقيق، مع أن العقل الذي اكتشف حقائق هذه العلوم ونظرياتها ظل يسانده الوحي وإلى جواره الحس الروحي حيث تنبؤ الحاسة السادسة، ومن هنا بدأ الإنسان يتجرأ على ما كان يحسبه من الغيب لا يجوز له الحديث فيه بل ربما التحدث به ليحوّله من مساحة الظل إلى مساحة النور، لأن الاكتشاف المعرفي العلمي وغيره يعني إخراج الشيء من دائرة الظلمات والجهل إلى دائرة النور والعلم.

ويبدو أن مباحث علم الإيديولوجيا صارت تدخل ضمن تخصص السنن العادية، وربما ضمن جزء من السنن الخارقة، أما مباحث التكنولوجيا فهي ضمن دائرة السنن الجبرية مبحث هذا الفصل الذي من مكوناته الميكانيكا والإلكترونيك لتكوين الآخر على قياس الفلسفة والفلك والإيمان والعلم.

- **بين الفلسفة والعلم**: ما من علم إلا وتمّ اكتشافه من خلال سنن وتتبعه سنن أخرى تديره وأخرى تطوره ويزدهر بمقتضاها بسبب مزيد من اكتشافها والتحكم في شؤونها، وفق المشيئة الربانية .

ومن هنا فإنه ما من علم إلا وله أصوله ثم فروعه حتى لو حاول بعضه مقاطعة البعض الآخر وتنازع معه في إطار تنازع التخصصات، فإنه يظل كل منها يحافظ على خصوصياته وميزاته، لأن العلم منظومة من المعارف والمفهومات بعدما انفصل بمفهومه العام عن الفلسفة التي اعتمدت تاريخيا ومازال يمتد منها شيء في العصر الحديث من خلال التدبر والتأمل في الكون ومفرداته عن طريق الفكر الحضاري العام، ثم كانت الملاحظة والتجربة والقياس والبرهان ليتأسس منطق العلم وقوانينه لينتج حقائقه، وفي الوقت ذاته مازالت الفلسفة تلتزم واقع الحياة ولم تنسحب من ميدانه، حيث الفلسفة بل التفلسف هو آلة الإبداع في العلوم والمعارف كلها، حين تطرح الأسئلة وتجيب عنها وتدعو غيرها بإلحاح للإجابة عنها من منطقة تخصصه المعرفي، ولاسيما حين تضع الافتراضات وتحقق منها ما اقتدرت عليه وتدعو غيرها إلى تحقيق الجزء الآخر.

- **الكون ومفرداته منطلق بحث السنن**: لقد كان الكون ومفرداته،حتى قبل دعوة القرآن، منطلق اكتشاف السنن وميدان بحوثه، غير أن منظور البحث والاكتشاف تعدد حسب تعدد اهتمامات النظر والبحث من يومئذ، فكان في نحو ثلاثة منظورات: منظور التأمل التعبدي الذي نشأ من خوف مناظر الكون ومفرداته كالكواكب والنجوم وأحداث المطر والريح والرعد والصواعق فقابلها الإنسان بالتضرع خيفة ورجاء، ومن هنا كانت عبادة الأصنام والأوثان التي خرّ لها الإنسان راكعا ساجدا يطلب ودها ويبتغي خيرها ويتقي شرها، وإلى جانبه لفت جمال طبيعة الكون ومفرداته ذوو الحس المرهف فكان لهم اهتمام آخر هو الذي أبدع التعبير الأدبي

كالقص والشعر وحتى الخرافة والأسطورة، مثلما كان التأمل الفلسفي الذي يبدو أن الإبداع العلمي كان منه، فهو الذي مهّد للاكتشاف العلمي ومنه اكتشاف السنن.

ولذا يبدو التعرف على السنن التي تحكم تحرك الكون ومفردات وأداءاتها فيه فيما يسمى قوانين الطبيعة، أي البحث في السنن الجبرية التي لا تتخلف عن مواعيدها ولا تتقدم عنها ولا تخرج عن مساراتها ولا تفرط في أداء وظائفها إلا استثناءا حين تتحوّل إلى سنن خارقة فيعطل الخارق الجبري لتكون المعجزة على يد نبي أو رسول، وتحدث استثناءات خوارق أخرى على المسار ذاته كالمعونة والتوفيق والحظ واستجابة الدعاء وسواها.

ولكن يبدو أن الفكر الإسلامي زهد في دراسة الكون ومفرداته منذ أيام دراسة علم الفلك وكأنه تركه لغيره مع أن بداية الحضارة العربية انطلقت من شمولية دراسة عامة، فاهتمت بمجالات بحوث الكون كلها كالفلك الذي موضوعه الكواكب والنجوم وظواهر الطبيعة، وهو الذي أسس لما صار يطلق عليه علوم الطبيعة، مثلما أسست الفلسفة أو الفكر في المنظور الإسلامي لما صار يطلق عليه العلوم الاجتماعية.

وقد يكون في هذا مدخل بحث في أسباب انصراف بحوث الحضارة العربية الإسلامية عن سنن الكون والطبيعة، وكأنها اكتفت ببحوث السنن العادية المتعلقة بنظريات الأفكار، بل اهتمت في مرحلة ما بالسنن الخارقة، واستمتع بعض أبنائها بحدوثها لهم ولسواهم، واعتبروا ذلك دليل صلاح وتقوى وهو ما عبّر عنه حديث اهتمامات التصوف، ومن هنا كان لبحث السنن الذي بين يدي هذه الدراسة اهتمام بسنن الكون الجبرية وإلى جانبه السنن الخارقة التي باتت تنحت منها السنن الجبرية فيتحول كل يوم جزء مجهول منها إلى جزء معلوم، فيدخل ميدان الدراسة ما كان من الخوارق من غير المعجزة إلى ما هو من قبضة العلم والفكر مثل الذي يتحول من

المعجزة إلى الإعجاز كأنه كان شاردا ثم ردّ إلى مكانه.

ومن أقوى ما يشدّ نظر الباحث والعالم في مفهوم ما بين السنن الخارقة والسنن الجبرية أن ما كان في نظر الأولين من السنن الخارقة صار بعضه منه فيما بعدهم من السنن الجبرية مثل صهر الحديد في معجزة داوود عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾[1] حيث نظر المستقدمون إلى تليين الحديد في هذه الآية على أنه معجزة من معجزات الأنبياء، بينما نظر المستأخرون إلى لين الحديد في الآية نظرة علمية فبحثوا في كيفية إذابة الحديد فأخذوا الإفادة العلمية في إطار مفهوم السنن الجبرية، بينما أخذ المستقدمون الإفادة العقدية في إطار مفهوم السنن الخارقة، وإن كانت معرفة الإنسان كيفية إذابة الحديد عن طريق النار معرفة قديمة، ربما كانت سنن إذابة الحديد مكتشف أيام داوود عليه السلام فبدا أمهر فيها من غيره لتحقق له المعجزة فيتحدى عشيرته فيما اختصوا فيه على سنة الأنبياء الآخرين الذين تحدوا أقوامهم فيما كانوا فيه مهرة، وإلا كيف يعجز قومه فيما ليس لهم به علم.

ومثل هذه الآية آيات أخرى ولكن لا تتضمن معجزة ولم تجر وفق علمية السنن الجبرية، وإنما كانت وفق منطق السنن العادية التي يبدو أنه مازال يعمل على تليين الحديد من خلالها، وهي السنة التي اهتدى إليها ذو القرنين صاحب الإنجازات الحضارية العظمى المتلوة في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾[2] حيث يروى أن ذا القرنين كان يأمر بوقد النار ثم ينفخ فيها بالكير ثم يضع فيها النحاس فيذوب ليغلق على يأجوج ومأجوج فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا لشدة صلابته[3] .

١- سورة سبأ، الآية ١٠ .

٢- سورة الكهف، الآية ٩٦ .

٣- محمد سليمان عبد الله الأشقر، زبدة التفسير من فتح القدير، ط٢، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م، ص٣٩٤.

وإن العلاقة بين نظريات الفكر ومفردات الكون كالعلاقة بين القرآن الكتاب المسطور والكون الكتاب المقروء، فإذا كان التداول بين مفردات الكون يجري بين الأرض والسماء والبر والبحر والليل والنهار والشمس والقمر، فإن التداول بين نظريات الفكر يتمّ بين مناطق الأقطار وفترات الزمان عند كل اقتضاء من مسؤولية الإنسان حين يتوافق مع ما تجري به السنن، ولذا كان الإنسان منذ القدم، ومازال في واحدة من اثنين، إما متكيفا مع السنن وإما مضادّا لها وقد هداه الله النجدين إما شاكرا وإما كفورا، وعى أمره أم لم يعه، ومن هنا صار الفكر النظري ضرورة تعليمية وتربوية، لأنه لولا النظرية ما كان التطبيق ولولا التطبيق لتجمّدت النظرية وتوقف العطاء لعدم استخدامه.

ومن هنا صار علم السنن ضرورة حضارية في حياة الإنسانية، ولقد نبّه أحدهم على أن العلم بالسنن لا يعلوه إلا العلم بالله وصفاته وأفعاله[1]، فالعلم بالسنن علم مطلوب قصد التوصل إلى سعادة الدنيا والآخرة، لأنه وسيلة وغاية، فهو أعظم وسائل تحقيق غاية الوجود، ومقاصد الإنسان فيه[2] ولاسيما لدى الأمة الإسلامية التي صار العلم النظري فيها في تضخم وتكدس أكثر من العلم التطبيقي والتزاماته بوسائل تحقيق الأفكار وتطبيقها في مجريات الواقع ومؤسساته،لأنه ربما تاه البحث الفكري النظري في تزاحم الاجتهادات، فضاعت منه بوصلة التوجه نحو المقاصد المرجوة ولفقده وسائل تحقيقها، فتراكمت مكدساته، وضعفت فعالياته، ولكن إذا باتت هذه قاعدة في الفكر الإسلامي، ولاسيما المعاصر منه فإن الشطر الثاني منه مازال يكدح كدحا شديدا من أجل التطبيق ويتضايق من تكديس الفكر النظري الذي صار كأنه غاية في ذاته.

١- شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب : السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، ج١، الدار العثمانية، الأردن، ط١، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م، ص٠٨ .

٢- شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب : السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، ج١، ص٠٩ .

وأعتقد أن جانب دراسة السنن النظري مثله كمثل جوانب دراسات نظريات المعارف الأخرى مبتدأه التعريف وخبره التقويم وبينهما نقد، سيما وأن دراسات السنن مازالت فتِية مبتدئة لما تدلل عليه الكتابات فيها، ماعدا استثناءات قليلة قديمة طرقت السنن من خلال لفظها في القرآن الكريم والكلام العربي واستخدام لفظ السنن مصطلحا دالا على حكم شرعي في المنزلة الثانية بعد الفرض والواجب، أما أكثر دراسات السنن الأخرى جديدة ولاسيما على مستواها الأكاديمي الذي عرف جملة من الرسائل الجامعية.

- **منطلق العلم**: أصبح منطلق العلم أكثر اهتمام الإنسان المعاصر، ولذا صار أولى أولويات السنن البحث العلمي وتتبع تطور ازدهاراته من خلال مفهومها وأدائها فيه .

ولذا قد يقول قائل عندما يطلق مصطلح العلوم الطبيعية أو علوم الطبيعة ربما كان من الأصوب أن يطلق مصطلح العلوم الكونية أو علوم الكون، لأن مصطلح الكون أكثر احتراما في الحس الإسلامي العقدي والفكري، فدعا الحنين إلى استخدامه ولذا ظل يشدّ الفكر الإسلامي إليه شدا، فأظهرت العلوم نفسها من حين لآخر مضافة إلى الكون.

ومن باب التوضيح، فإن السنن المضافة إلى الطبيعة أو إلى الكون هي السنن الجبرية التي استخدم الإنسان عقله في فهمها وتطويعها لما يريد مركزا على أثرها، وهذه حسنة تحسب للفكر الغربي وقد فشل بعض من الفكر الفلسفي التاريخي وحتى بعض من الفكر الإسلامي في حسن الإفادة منها حين بحث في عللها وكنهها ولم يبحث في أثرها وتأثيرها وكيف تؤدي دورها لتخدم الإنسان. وأعتقد أنه في إطار هذا الاهتمام كان الإنسان يكتشف سنن الكون أو الطبيعة من غير وعي منه إلا بعد حين بدا له أن لمفردات الكون وظائف في الحياة، وتحكم أداءاتها قوانين هي سننها

الجبرية غير القابلة للتحول والتبدل، ولذا ينبغي أن يكون اجتهاد الإنسان فيها البحث في كيف يتمّ تسخيرها لأغراضه وليس فهم ذاتها وكيف نشأت ولماذا كانت إلى آخر الأسئلة التي أرّقت الفلاسفة منذ القدم فأرهقتهم من دون فائدة كبرى.

- **سنن اكتشافات العلوم الأولى**: إن الإنسان غير قادر على إنجاز شيء ما لم يكتشف سننه ويتحكم في أداءاتها تحكما دقيقا،ولذا ما كان للعلم أن يحقق أهدافه إلا بعد التحكم في حيثيات سننه وقوانينه، ومازال على هذا النهج يواصل اكتشافاته العلمية الحديثة.

- **علم التحنيط**: هو إنجاز حضاري هدي الإنسان لاكتشاف بعض أسبابه ومعرفة أجزاء من أسراره منذ القدم، قد يكون منذ عصر الحضارة الفرعونية المصرية، ثم دخل عليه إبداع التطور الحضاري فأضاف إليه بين كل حين جديدا حتى صار يستخدم في العصر الحديث في حفظ الجثث من التحلل حتى ولو كانت مقاصد علم التحنيط دينية تعبدية لدى الحضارات القديمة، فقد صارت في الحضارة المعاصرة ذات مقاصد علمية إنسانية حقوقية أمنية أخرى، ومقصد هذه الدراسة معرفة كيف أن اكتشاف السنن ساعد على تحقق نتائج باهرة إلى اليوم في ميدان التحنيط وتجميد الفواكه والخضر في الثلاجات.

- **علم التعقيم**: اكتشاف حديث يعني القضاء على الكائنات الدقيقة كالجراثيم والبكتيريا والفيروسات بحرارة عالية لا يتحملها الكائن الحي قد تصل إلى ١٦٠ أو ١٨٠ درجة أو أكثر لمدة ثلاث ساعات أو أكثر، وهناك طرق أخرى للتعقيم مثل الضغط الكيميائي والتجفيف، مع أن التسخين هو الإجراء الأفضل للتعقيم إلا أنه يلحق أضرارا بالمواد شديدة التأثر بالحرارة مثل المواد الحيوية والألياف، ولذلك يلجأ في تعقيمها إلى المواد الكيميائية التي تعرّض المواد المراد تعقيمها إلى غازات شديدة التفاعل

مثل الهيدروجين وحامض البراكتيك إلى آخر ما يعرفه أهل التخصص في ميدان التعقيم الذي مازالت بحوث اكتشاف سننه تتواصل ليتواصل ازدهار التحكم في نجاحاته.

- **علم الجاذبية**: يعتبر قانون الجاذبية من أقدم قوانين العلوم الحديثة وأكثرها توسعا وانتشارا، وقد قامت عليه علوم أخرى كثيرة، وقد أدى أثرا عظيما من غير أن يدرس في ذاته ويفسر كنهه مثله كمثل قوانين أخرى مثل قانون الكهرباء، الذي مازالت حقيقته هو الآخر تجهل، ولكنه يعتمد في مختلف مناشط الحياة.

والقصد من إدراجه ضمن منظومة العلم في علاقتها مع السنن الجبرية ألا يترك مجاله فارغا، مع التدليل على أهمية الوعي بسنن التحكم في مسارات الإنجازات العلمية ومآلات الازدهار الحضاري.

- **سنن تطور اكتشافات العلوم الأولى**: أعتقد أن تطور الاكتشافات العلمية وازدهاراتها مرهون باكتشاف المزيد من سننه، وأن الإنسان كلما اكتشف سنن شيء من العلم وتعرف على قوانينه عرف كيف يتحكم فيه ويسخره لأغراضه ويخرجه من دائرة الجهل إلى دائرة العلم ومن الإهمال إلى الاهتمام ومن التفريط إلى الاستخدام فيصبح قيمة مضافة في منظومة علوم الحضارة ومعرفة والحياة.

وأعتقد أن تحوّل الشيء من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ومن المجهول إلى المعلوم ثم استخدامه في تحقيق أغراض الإنسان لن يكون إلا من خلال اكتشاف سننه وليس من إبداعها، لأن السنن مبدعة منذ كان الوجود وليس للإنسان فضل في إبداعها وإنما له الفضل في اكتشافها، ثم التحكم فيها، واقتداره على الإفادة منها فيما أبدعت من أجله، ثم إن اكتشاف السنن مسألة تراكمية، لأن صرح الحضارة الإنسانية بُني عبر قرون كثيرة.

- **بين الطب والبيولوجيا**: أعتقد أن علاقة البيولوجيا مع الطب ليست كعلاقة الكيمياء مع السحر علاقة فرع مع أصله ولا كعلاقة الفيزياء بالفلك علاقة جزء بكل وإنما علاقة بخصوصيات أخرى هي علاقة استصحاب عام إلى جوار خاص، لأن الطب مازال يواصل تطور ازدهاراته ومازالت آلية اكتشاف سننه تبدع يوما بعد يوم بل كل حين جديدا، وإلى جانبه يواصل علم البيولوجيا هو الآخر اكتشافاته من خلال تواصل اكتشافات سننه الجبرية.

فالطب صار بمعنى تطبيب الإنسان والكائن الحي ذي الروح بينما توسع ميدان البيولوجيا أكثر وإن لم يعرف إلا بعدما عرف علم الطب الذي كان أساس ما اشتق منه من الناحية التاريخية المعرفية علم الصيدلة، لأن الإنسان بحث منذ القدم كيف يستطب وكيف يعالج ذاته مما قد يصيبه من أمراض، ثم امتد علاجه إلى ما حوله كالحيوانات والنبات.

ومن هنا توسع علم البيولوجيا في العصر الحديث توسعا كبيرا بعدما تحكم الإنسان في آليات اكتشاف سننه، ولذا فإن هذه الدراسة لن تتوسع في مجاله إلا بالإشارة إلى نظرية الحيوية التي تدرس الكائن الحي على أساس سلوكه وحركاته وسكناته وتغذيته ونموه وتنفسه وتوالده، وهذا كله وغيره تحكمه سنن جبرية وليس للإنسان قدرة التمرد عليها.

ولذا، فإن أول بحوث نظرية الحيوية الخلية وكيف تنشأ وتولد وتؤدي أغراضها من غير الخروج عن مسارها أو التأخر عن مواعيدها أو التقدم عنها إلا حين تموت، وهذا بحث آخر قد يجتهد فيه في ظل تفسير لفظ البث في الآية: ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[1] فيكون البحث من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وهو ما يعني خلقا جديدا لم يكن من قبل مثلما في عالم الفيروسات والجراثيم التي كلما قاومها الإنسان بمضادات مخترعة، وفق اكتشاف سنن أو قوانين تضاد، تخلقت خلقا آخر لا قبل للإنسان به من قبل[2] .

١- سورة الجاثية، الآية ٠٤.

٢- محمد جمال الدين الفندي: الإسلام وقوانين الوجود، ص٧٦ .

ثم بعد الخلية والفيروسات المجهرية في نظام نظرية الحيوية، هناك بحث آخر في كائنات أخرى كالنحل والنمل، والكل تلزمه السنن الجبرية اتباع مقتضياتها ليؤدي من خلالها وظائفه وإن كان يبدو أن سنن نظام نظرية الحيوية هي ذاتها سنن نظام الكيمياء لما بينهما من توافق، أما نظام الكيمياء فهو في مواد حيوية أخرى قد تقتضي الإشارة إليه بضرب مثل فيه هو أن حبة السكر أو ذرة الملح حينما تذوب في قدر من الماء يعني أنها ذابت وفق قانون أو عندما تستعصي على الذوبان فإن الاستعصاء يعني أن هناك قانونا آخر، مثلما أن حبة السكر وذرة الملح قابلة للتجمد وفق ضرورة منطق سنة أخرى، ولكن كل هذا وما إليه مما تنطبق عليه صفاته تجري تحولاته وفق سنة عامة تحكم نظام علم الكيمياء وهي قابلة للتجزء والتفرع لتتبع جزئيات هذا النظام العام.

بين السحر والكيمياء: يبدو أن السحر كان علما يتعلم ودرسا يدرّس وإلا كيف كان يمارس بنقله جيلا بعد جيل؟ وأعتقد أن أكبر دليل على أن السحر علم ما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾[1]،ولكن يبدو أن أكثر الذي تبدل في تعلم السحر الاسم والاهتمامات، حيث صارت اهتماماته تفاهات، ولذا لم يدخل السحر المؤسسات التعليمية الحديثة بمصطلحه وإنما عوّض بشيء هام تطور عنه فغيّر اهتماماته وهو علم الكيمياء، وانزوى الجزء التافه منه إلى أرشيف التاريخ، بعدما أنكره العلم ولم تعتمده تجارب مخابره، فبات السحر من موضوعات السنن الخارقة، بينما صار علم الكيمياء من موضوعات السنن الجبرية يواصل إبداعه من خلالها.

١- سورة البقرة، جزء من الآية ١٠٢ .

وأعتقد أنه إذا ذكر السحر، فمن المنطق أن يذكر ميدان ازدهاره، مثله كمثل غيره من العلوم والمعارف الأخرى، حيث ميدان الفلسفة اليونان، والفصاحة العرب، والسحر بني إسرائيل ولاسيما أيام موسى عليه السلام، حيث ازدهر ازدهارا شديدا شهد له الحق سبحانه :﴿وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾[1] فوصف السحر بالعظمة دليل ازدهاره.

وحتى لو كانت هذه الدراسة لا ترغب في تتبع الجانب التاريخي لعلم السحر فإنها تقصد بيان كيف تطور اكتشاف سنن الأشياء علومها، وأن علم الكيمياء الذي صار مبحثا حضاريا هاما من بحوث السنن الجبرية تساير تحولاته وتواكب إبداعاته، ويتمّ التداول الحضاري وتجري مآلاته من خلاله، لم ينطلق من العدم وإنما انطلق من تجربة علمية كانت مشهد الأبصار وملء الأسماع في يوم ما من التاريخ يسمى السحر، وشاهد العصر الحديث: أنه لولا اكتشاف سنن الأشياء ما اكتشفت علوم الكيمياء ولولا اكتشاف سنن التطور ما ازدهرت حضارة.

- **بين الفلك والفيزياء:** من يقرأ تاريخ الفيزياء منذ كان يكتشف أن أصله الفلك الذي موضوعه قبل تفرعه عنه الكواكب والنجوم، ثم توسعت مباحثه الحديثة فصار تخصصات كثيرة، حيث أنشئت أسماؤه حسب تعلق موضوعاته وتحديد ميادينها، فكان علم فلك الطبيعة، وإن تخلى العلم عن مصطلح الفلك قليلا واستمر يطور بحوثه من دونه تحت أسماء أخرى أضيف إليها كمصطلح الفيزياء، الذي هو الآخر كاد ينوب عنه علم الالكترونيك في أكثر بحوثه، ومازال علم الفلك يحتجز جزءا من خريطة العلوم التاريخية، وكأنه بات يتعلق بالماضي أكثر من تعلقه بالحاضر وتطلعه إلى المستقبل، لاسيما حين يجرّ موضوعه الباحثين إلى ما كان منه أو قريبا منه كالتنجيم الذي صار ربما جزء منه في حكم الخرافات، حيث عبد

١- سورة الأعراف، جزء من الآية ١١٦.

بعضهم الكواكب حينما استرهبتهم، فانحرف الاهتمام بالكواكب والنجوم من كونها موضوعات بحوث علمية إلى كونها طقوسا تعبدية أو آلهة تعبد من دون خالقها ومسيرها الذي وضعها بين يدي الإنسان لتكون مسخرة له يهتدي بها في ظلمات البر والبحر ويفيد منها أغراضا أخرى، كاستخراج طاقاتها مثلما هي تجربة الطاقة الشمسية التي صار علما يتطور يوما بعد يوم كلما اكتشف الإنسان سننه زاد استخدامه في تحقيق غايات التطور الحضاري وازدهار إبداعاته.

- **بين الفيزياء والإلكترونيك**: إن من بحوث علم الإلكترونيك الإشارات والتيارات الكهربائية، ومنه كان علم الهاتف ومشتقاته وعلم الكمبيوتر وتوابعه، وبعدما كان الإلكترون ذرة في عالم الأشياء وخلية في عالم الأحياء، فإنه صار يسهم في أحداث الصناعات التكنولوجية، ومازالت تتواصل اكتشافاته من خلال اكتشاف سننه والتعرف على كيف يؤدي وظائفه من خلالها، وكيف يحقق غاياته العلمية في التقدم الحضاري ولو في جانبه المادي، والذي من دون خلاف قد أسهم في بناء قوى التداول الحضاري المادية،وقد أدى الإنسان من خلاله دورا في إحراز التقدم، ومازال مرشحا للمزيد من الأداء.

وأعتقد أن الذي بين الإلكترونيك والفيزياء كالذي بين الفيزياء والفلك، فكأنه حين يتقادم الاسم يصبح البحث فيه عموميات وكأنه معلوم من العلم بالضرورة، فتقتضي سنة التطور البحث عن اسم جديد بعدما يصبح القديم لا يطابق مسميات الإبداع الجديدة، ولذا صار الميدان الجديد لبحث السنن الجبرية الحضارية وإبداعاتها في الفيزياء هو علم الإلكترونيك بدل الفيزياء، وإن امتدت فيه صلاحية ما بقي من بحوثه، مما صار استمراره مرهونا بتطور الركب الحضاري ولو إلى حين، لأن جزءا كبيرا من علم الفيزياء صار في ذمة التاريخ وتقارير أخباره، وهو ما لم تقرر سنن الازدهار الحضاري استمراره، بينما شحذت الجزء الآخر لتواصل

من خلاله سنن التطور والاكتشاف في ميدان علم الإلكترونيك لتتطلع من خلاله إلى تطور حضاري أكثر ازدهارا، إلى أن يسلم الإلكترونيك بحوثه إلى علم آخر سيكون من بعده وإن لم يعرف له اسم بعد، مما قد يكون أحد فروع الإلكترونيك الذي سيتوسع ميدانه أكثر من أقرانه فيستولي على من حوله ويكون سلطانها .

- **بين الميكانيك والصناعة**: لقد اهتدى الإنسان منذ القدم إلى شيء من الميكانيك حين عرف كيف يحرك آلات ما بين يديه من الأدوات لتؤدي دورها، فاستخدمها في أغراضه البدائية يومئذ، وإذا كانت الميكانيك تعني البحث في الآلة الصناعية لقضاء حاجة الإنسان وتحقيق أهدافه، فإن هذا مبحث من مباحث السنن ولاسيما سنن الأشياء التي لم ينفصل بعضها عن البعض الآخر، ومازالت تؤدي وظائفها وتحقق أهدافها كفريق عمل حيث تلتقي سنن علم الفيزياء وسنن علم الكيمياء وسنن علم الطب وغيرها من سنن ماديات الأشياء في عالم الصناعة.

وإن مصطلح الصناعة ليس بدعا من العصر الحديث، وإنما هو قديم قدم حرف الإنسان وصناعته،ولكن جديده في تطور ازدهار الحرف، حيث أنه ما من علم من علوم الحرف والمهن الصناعية إلا وعرف تطورات من خلال اكتشاف سنن إبداعه مثله كمثل غيره من العلوم الأخرى، وإن تفاوت في تطورات آثار العلوم في الازدهار الحضاري كل من موقعه وفي ميدانه، ولذا حين انفرد الله بالخلق أشاد بإتقان صنعه،فقال تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[1]. ولعله من هنا استحدث أو اشتق مصطلح التقنية الذي قد يكون أصل مصطلح التكنولوجيا ولكن أبدل حرف القاف كافا[2]، فصار مصطلح الإتقان آلة إبداع التطور الصناعي يزيد في ازدهاره كلما اكتشفت سننه.

١- سورة النمل، الآية ٨٨ .

٢- عبد الصبور شاهين: العربية لغة العلوم والتقنية، ط٢، دار الاعتصام، القاهرة، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

ولذا فإن علم الميكانيك هو الآخر تمّ اكتشافه مثلما اكتشفت علوم أخرى لاكتشاف سننها، إذ هو أحد فروع الفيزياء التي كانت يوما ما من التاريخ القديم أفكارا صغيرة ضمن علم الفلك،إلى أن كبرت على حساب اضمحلاله وانسحاب جزء هام منه وكأنه تقاعد، فاستولت على ميدانه، حيث اهتمت بما اهتم به وأضافت إلى اهتماماته اهتمامات أخرى في ميدان الأجسام الصلبة، ومنها صنع الآلات التي صارت أهم اهتمامات علوم الميكانيك.

- **بين الصناعة والتكنولوجيا**: لم يلازم الفعل الصناعي الإنسان حديثا بل منذ القدم حين احترف آلة الأشياء واستخدمها في تحقيق مآربه، وقد ترجع تعاملاته الأولى التاريخية إلى أمر الوحي نوح عليه السلام: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾[1] . ويبدو أن صناعة فلك نوح عليه السلام كانت صناعة بمعنى مصطلح العصر الحديث وبمعاييره، ومن غير تتبع دلالة مصطلح الصناعة في القاموس فإنه يثير السؤال الآتي: هل إجراءات صنع فلك نوح عليه السلام كانت وفق منطق السنن الجبرية وتعليلاته أم وفق إملاء السنن الخارقة؟ .

وإذا كان هذا مبحث آخر، فإنه يبدو أن مصطلح الصناعة صار يحركه مصطلح التكنولوجيا فيضم أهدافه إلى دائرة أهدافه ويحقق أغراضه ضمن أغراضه، ولذا اشتدت فعالية التكنولوجيا في ساحة الصناعة من خلال السنن الجبرية أكثر.

ومهما أفصح الحديث في وصف تعريف السنن الجبرية وتحليلها فإن فعلها وأداءها يظل أفصح وأبلغ، كأن لسان حالها يرى من ذهب إلى أن الخبر ليس كالعيان، ولعله لذا لم ينظّر الفكر الغربي للسنن نظرة تعريف وتحليل وإنما تتبع إجراءات أدائها، فحرص على اكتشافها ليطور ازدهاره أكثر فأكثر وكأنه أفاد من اهتمامات الفكر الإسلامي يومئذ بالسنن

---

١ - سورة المؤمنون، جزء من الآية ٢٧ .

الخارقة، مثلما اهتم بها الفكر الكنسي من بعده حين اضطهد العلماء الذين اهتموا بعلم السنن الجبرية في ميادين التجربة وأهملوا السنن الخارقة، لأنها أدخلت الفكر الغربي يومئذ عالم الخرافات والأساطير.

- **هلاك الأمم السابقة بين السنن الخارقة والجبرية**: الرأي عند أكثر الناس أن هلاك الأمم السابقة ذات الحضارات كان وفق السنن الخارقة وليس السنن العادية، ولكن الذي يبدو أن أسباب السنن الخارقة كانت من أسباب السنن العادية، وأن الهلاك تمّ ونفذ من خلال السنن الجبرية بمفهوم العصر الحديث بينما تمّ في مفهوم القدامى بمقتضى السنن الخارقة، والآية الكريمة وضحت الأسباب وتركت قراءة هذه الأحداث قابلة للخيارات كلها: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1].

فمفردات صيغ الهلاك الأربعة وهي: الحصب[2]، والصيحة[3]، والخسف[4]، والغرق[5] وهي حقائق تناولها العلم الحديث في أوسع موضوعاته وأكثر اهتماماته ولذا قال فيها قوله، واكتشفت سننها وعرفت كيفيات حدوثها فصارت من معلومه وفق أحكام علمية السنن الجبرية بعدما كانت في حس إيمان الإنسان القديم من السنن الخارقة المجهولة التي لا تعلم كيفيات حدوثها، وإن علمت أسبابها على أنها الذنب بمعنى المعصية، وهذا حق، ولكن الذي غاب ومازال يغيب عن البعض حتى في العصر الحديث أن ما هلكت به أقوام الأمم القديمة مازالت تهلك به الشعوب والأمم في العصر

١- سورة العنكبوت، الآية :٤٠ .

٢ - أي الحجارة.

٣- صَوْتُ شَدِيدُ.

٤- انْهَيار الأَرْض بالشَّيْءِ.

٥- إغمار الماء الأرض.

الحديث، ولكن مازال كثير من الناس يقرأون ما حدث للأمم السابقة على أساس أنه جرى وفق أحكام السنن الخارقة، أما ما يحدث للأمم المعاصرة فإنه يجري وفق منطق السنن الجبرية بإدخاله دائرة العلم وتعليلاته، وفي الوقت نفسه يحسب أن ما حدث للأمم الغابرة سببته الذنوب أما ما يحدث للشعوب المعاصرة فإن أسبابه من غضب الطبيعة، حيث يوعز الأول إلى الغيب ويوعز الثاني إلى المشاهدة، فربط الأول بأسباب إيمانية غيبية، وربط الثاني بأسباب تحولات الجو.

ولعل الذي غاب عن فهم الإنسان يومئذ هو التعليل العلمي والذي يغيب عن فهم الإنسان اليوم الحس الإيماني حين فهم أن ما صار يسمى الظواهر الطبيعية ليست أسبابه الانحراف عن الاستقامة الأخلاقية ومنهجية التزام سنن تواصل الازدهار الحضاري، ومن هنا صار ممكنا تعليل طوفان نوح عليه السلام في الحس العقدي على أنه معجزة ويقرأ في فهم العصر الحديث القراءة العلمية الخارقة للسنن العادية ولكن تتحكم فيها منهجية قراءة السنن الجبرية، لأنه عندما يحدث مثل الطوفان فإن العلم يقرأه من خلال أسبابه وكيف تكوّنت الغيوم وتلبدت السماء، وكيف حملت الرياح أثقال الماء، وكيف حدثت الصواعق، وكيف سقطت الأمطار فجرفت الديار والأشجار، وكيف تزلزل الأرض، فالعلم يجيب عن أسباب الحصب والصيحة والخسف والغرق.

لذا، فإذا كان التاريخ يثبت أن طوفان نوح عليه السلام قديما حيققة، فإن العلم يثبت أنه ليس فريدا في التاريخ كله بل متكرر بين الأمس واليوم والغد، وإن كان هناك فرق بين طوفان الأمس وطوفان اليوم، فإن الأول حدث استجابة لدعوة نوح عليه السلام معجزة له على الذين كذبوا به، فإن ما يحدث مثله اليوم وغدا إذا قرئ في أبعاده الإيمانية فإن أسبابه واحدة،أما عندما يقرأ في أبعاده المباشرة فإنه «تحولات جوية» و«غضب

طبيعة».. والحق يثبت أنه ليس هناك عقوبة عادلة من دون ظلم وهو ما لم تعلل به طوفانات ما بعد نوح عليه السلام وعقوبات الأمم الأخرى كعاد وثمود وأصحاب الأيكة وقوم تبع«كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل وحق وعيد»[1] فتحقق الوعيد من جنس العمل، وإنما تعلل بقصر النظر على ما بعد السبب والمسبب للحدث وتكتفي بقراءته من خلال السبب من دون المسبب الأول الذي هو في الآية من سورة العنكبوت الذنب وفي الآيات الأخرى من سورة ق التكذيب.

ولذا فإن مفهوم هلاك الطوفان قوم نوح في لغة العصر هو فيضان جارف، وهلاك عاد ريح صرصر عاتية، جاء العلم الحديث ودرسها حسب قوة سرعتها وشدتها فسماها الريح العاصفة وقدّر سرعتها نحو ٨٠ كلم إلى ٩٢ كلم في الساعة فقال تعالى:«وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية»[2]، أما الريح العاتية فهي ما تصل سرعتها إلى ١٢٢كلم في الساعة وتسمى الزوبعة الهوجاء[3].

والشاهد أن هذه الأسباب التي كانت سننا سقطت من خلالها حضارات وظهرت أخرى أصبحت اليوم في متناول العلم وبين قبضة معارفه، وقد أخذ الإنسان تجاهها احتياطات وتدابير وقائية وإن لم يتمكن من السيطرة الكلية عليها، حيث مازالت تدابيره، وستظل، ضمن قدرته النسبية داخل قدرة الله المطلقة، والدليل أن ما كان يحسب من السنن الخارقة صار جزءا من السنن العادية أو السنن الجبرية في ميدان التجربة العلمية ومنطق الفكر.

وإن كان هذا لا يعني أنه سيأتي على الإنسان يوم يسيطر فيه على السنن الخارقة كلها داخل السنن العادية لأن من الخوارق ما سيبقى خوارق مثل

١ -سورة ق، الآية: ١٢-١٤.

٢- سورة الحاقة، الآية: ٠٦.

٣- محمد جمال الدين الفندي: الإسلام وقوانين الوجود، ص١٣٤.

معجزات كثيرة كمعجزة إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، لأن هناك فرقا بين المعجزة والإعجاز، فما هو من المعجزة فسيظل معجزة لأنه في حكم المستحيل غير قابل للتحقق، وما هو من الإعجاز فإنه من الممكن القابل للتحقق، والذي فيه يتنافس المتنافسون في إبداعه العلمي ولو حسبه البعض من السنن الخارقة.

- **السنن الخارقة وبحوث الطبيعة في فكر الآخر**: إذا كان الأصل في السنن أنها منبت من منابت الفكر الإسلامي وخاصية من خصوصياته اكتشفت في القرآن الكريم ثم نزلت منه إلى الفكر الإسلامي وفي مقدمته فكر عبد الرحمن بن خلدون إلى أن كادت تصير ثقافة بين عامة المسلمين، فإن هذا لا يعني خلو اهتمام الفكر الآخر غير الإسلامي بالسنن ولو من منظور تبدو أنها غير واضحة لديه أو أنه مضطرب فيها، ولعل من أبرز الذين مسّوا فكر السنن ولو مسا خفيفا لم يغن كثيرا من الحق من مفكري العصر الحديث، الفكر الشيوعي الذي ذهب فيه منظرو الماركسية إلى أن الحتمية سنة أو مبدأ قام عليه التطور التاريخي، وإن لم يسموا السنن بمصطلحها، فقد تحدثوا في مفهومها ولاسيما السنن الجبرية التي عرفت لديهم بمصطلح السنن الحتمية، وهي التي جرت وقائع التاريخ وأحداثه من خلالها نحو غايتها كأنها قدر نافذ لا مردّ له.

وهنا يمكن الاستدراك بأن السنن الجبرية تفقد من خصوصياتها فتصبح غير جبرية وتخرج من مفهوم الجبرية إلى مفهوم العادية، ولعل هذا ما غاب عن الفكر الآخر مما قد يتضح أكثر في الفكر الإسلامي من مفاجأة القدر، ثم هناك فصيل آخر من فصائل الفكر غير الإسلامي وهو الوجودية التي تذهب إلى أن الإنسان هو الذي يصنع وجوده ولا قانون يلزمه ولا شيء يسيطر عليه ويحول دون تحقيق غاياته إلا قوانين المحاكم الوضعية، وهنا وقعت الوجودية في إلغاء مفهوم السنن القانون الملزم للإنسان من قبل إرادة

أخرى مطلقة لها الأمر من قبل ومن بعد وهي إرادة اللّه، فظهرت الوجودية وكأنها لا تؤمن بالسنن ولا بما يترتب على أدائها إلا من حيث الواقع الملموس الذي يفرض ذاته من خلال السنن الحتمية التي يبدو إيمان الفكر الآخر بها أشد من إيمانه بالسنن العادية القائمة على سلوكيات الإنسان ومدى التزامه في تحمل مسؤولياته تجاه الأشياء،وربط أقواله بأفعاله وتحقيق السبب من خلال المسبب والمشروط من خلال الشرط.

ويبدو هذا اضطرابا آخر في فهم الفكر غير الإسلامي للسنن حين أعلن الصراع وتبناه سلوكا بل منهجا، واستخدم مصطلحاته مثل السيطرة على الطبيعة وقهر الطبيعة وغضب الطبيعة، بل ذهبت جذور هذا الفكر التاريخية إلى ما عرف في الفكر اليوناني بصراع الآلهة،وهذا من أجل تحقيق الإنسان أهدافه، وغاب عن هذا الفكر استخدام ما يخالف هذه الألفاظ في الوصف مثل دفء الطبيعة، وحنان الطبيعة، وابتسامة الجو، حتى ظهر ما يمكن أن يعتبر استدراكا مثل مصطلح أصدقاء البيئة.

وأعتقد أنه في خضم ضبابية هذا الاضطراب ضاعت حقائق السنن وجوهرها في فهم الفكر الغربي ومنظوره، ولذا قصر مفهوم السنن عنده على خصوصيات السنن الحتمية، فأعلن الإنسان الغربي الحرب على الطبيعة تحت عنوان الصراع، ونقل مجريات السنن من ميدان الكون ومفرداته إلى ميدان المجتمع وأفكاره، ولاسيما سنة التطور الحضاري الذي وظف فيه العنف الذي أدى إلى أسباب الحربين العالميتين الأولى والثانية، ومازالت تدق طبول حرب عالمية ثالثة، وربما يكون هذا كله نتج عن ما يمكن أن يطلق عليه بغض الطبيعة بمفهومها العام واعتبارها عدوا ينبغي قهره، وليس صديقا يُنْتَفَعُ به إلا ما استثني ربما من بعض شعراء الفكر الغربي وأدبائه الذين غنوا للطبيعة وتوادوا معها، وإن حُمِدَ للفكر الغربي حرصه الشديد على السيطرة على الطبيعة بالبحث عن قوانين التحكم في أداء

مفرداتها التقنية لاستغلالها استغلالا شاملا علميا واقتصاديا وصحيا وحتى جماليا[1].

ولذا، ظل سعي تفوق الحضارة الغربية ماديا نفعيا مصلحيا وليس سعيا معرفيا ثقافيا أخلاقيا إنسانيا مثلما ينبغي أن يكون عليه الأمر، لأنه ثبت من خلال بعض السياسات والمواقف والاستراتيجيات أنه ليس من مقاصد الحضارة الغربية، بصفة عامة وبدون تعميم، إفادة الآخر خارجها بقدر قصدها الإفادة الذاتية. وفي هذا السياق مازالت تبحث عن سبل السيطرة عليه وإخضاعه لمقاصدها، بمعنى مازالت تبحث عن سنن جبرية لاحتلال الآخر والإفادة من ثرواته وقدراته في عالم الأفكار مثلما فعل مع السنن الجبرية في عالم الأشياء والماديات.

لقد اشتدّ اهتمام الفكر الغربي بالسنن الجبرية التي أطلق عليها الحتمية أكثر من اهتمامه بأقسام السنن الأخرى، بينما انتفض اهتمام الفكر الإسلامي مرة أخرى فشدّت نظره فوضوية سلوك الإنسان المتخلف فبحث عما يضبطه، فكان من أثر هذا انبعاث فكر السنن العادية وإن مازال الاهتمام بمفهومه عاما، ويبدو أن الذي أصبح يستحق اهتماما أشد في مفهوم السنن العام هو بلورة مفهوم لنظرياته والبحث عن وسائل تطبيقها وترجمتها إلى الواقع، وإلى جانبه بيان أداءات السنن الجبرية الصارمة التي يبدو لا تستحق تعريفا واسعا وبناء نظرية كبيرة شاملة بقدر ما تستحق البحث في كيفية أداءاتها في الكون والطبيعة والوجود عامة لتحقيق جملة غايات منها:

١-**الإفادة من تجربة الحضارة الغربية:** والتي فيها بيان كيف تعامل الفكر الغربي مع مفهوم السنن وأداءاته أكثر من التعامل مع تعريف السنن،

---

١ ـ رجاء جارودي: حوار الحضارات، ترجمة الدكتور عادل العوّا، ط١، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ١٩٧٨، ص٤٨.

وإن كان هذا الفكر قد ضيّع حقائق أيقنتها نفسه وجحدها علوا واستكبارا وهي انتماء السنن إلى الله حيث ربانية السنن، وجحد منشئ السنن المؤثر الحقيقي في الوجود، وتعامل مع النتيجة دون مصدرها، ومع الفاعل المجازي بل نائبه وهو الآلة دون الفاعل الحقيقي وهو الله، ومن هنا أصبح من الضروري استدراك الحضارة القادمة على الحضارة الغربية حين يتحقق التداول ويؤول مآل الازدهار الحضاري إلى الفعل الإسلامي.

ب-تأسيس منهج التعامل: سيما وقد صار الجواب عن سؤال «كيف» بدل «لماذا» من أشدّ إلحاحات أسئلة النهضة، ومن هنا يثار سؤال كيف نتعامل مع مفهوم السنن؟ الذي يمثل موضوعاتها وأداءاتها لا مع اللفظ وحده الذي لا يمثل إلا الدلالة اللغوية.

الفصل السادس

السنن الخارقة واستعانة الغيب

- **مفهوم السنن الخارقة**: إن السنة الخارقة هي من يحكم عالم الغيب ومنظومته العقدية، والذي كلما اكتشف الإنسان حقائق منه تحوّل الشيء المكتشف من الخارق إلى العادي، وتوسعت دائرة الاستثناء إلى دائرة القاعدة، لأن الأصل في السنن الخارقة الاستثناء من السنن العادية التي هي الأعم والأشمل والأوسع دائرة، ولكن السنن الخارقة هي الأعلى والأعمق، لأن الأمر الخارق هو ما يناظر الأمر العادي الأصل والقاعدة، والخارق هو الاستثناء منه لخروجه عن ميزاته وصفاته، حيث يدخل الخارق عالما آخر له ما يميزه وينفرد به عما سواه.

ومن سنن السنن، أي من قانون القانون أن يخترق القاعدة الاستثناء، فيخرج عنها، حيث قابلية القاعدة للاستثناء، وقابلية الاستثناء هو الآخر الخروج حتى يكون للاستثناء هو الآخر استثناء منه، حتى كأنه يصبح قاعدة فيحكم القانون قانونا والسنن سننا.

ومن هنا كان للاستثناء، وهو الاختراق، سننه مثلما للقاعدة سننها، حيث تنعدم التلقائية والعشوائية لأن كل شيء بقدر في حساب الله المطلق. والأصل أن يكون كذلك في حساب البشر ولو أنه نسبي، لأن أهل التخطيط والبرمجة يحرصون ألا يتركوا ثغرة للعفوية تتسلل من خلالها لتنفلت الأشياء من بين يدي السنن، وإن عرف إنتاج البشر ما يسمى بالثغرات مثل الثغرات القانونية، وإذا كانت السنن الخارقة في جملة ميادين كالإرهاص والمعجزة والاستدراج والسحر وقضايا أخرى يحققها الدعاء والتقوى كحدوث التوفيق والبركة والحظ، فإن لهذه القضايا، هي الأخرى، سنن عامة وأخرى خاصة، وإن لم يعبأ بها الإنسان كثيرا.

وأعتقد أنه بقدر ما استطاع الإنسان كشف أسرار كثيرة في عالم المادة ثم السيطرة من خلالها على أدائه، فإن سعيه في عالم الروح مازال ضعيفا، سيما وقد اشتدَّ اهتمامُ الإنسان في العصر الحديث بالمادة أكثر من اهتمامه

بالروح، وزاد انصرافه إلى العلم أكثر من اهتمامه بالفكر حتى ولو كان لكل مادة روح ولكل علم فكر فيما يعرف بفلسفة العلوم.

ومما ينبغي الاهتمام به أكثر في السنن المفهوم الذي يوضح حقيقتها، وبخاصة السنن الخارقة التي لا يخضع كثير منها لمنطق الفكر كالسنن العادية أو إلى تجربة العلم كالسنن الجبرية، ولهذا فإن مفهوم السنن مدعو إلى البحث في الخوارق ودخول ميدانها في إطار ما هو ممكن، وليست الخوارق هي المعجزات وحدها كما يفهم البعض وقد انتهى عصرها بانتهاء النبوة، وإنما إلى جوانبها خوارق أخرى مازالت تحقق نتائج وتنجز أهدافا.

ومن هنا فإن طرح هذا الموضوع من خلال مفهوم السنن ومنطق فكره وعلمية أدائه يعتبر استدراكا على شيء مما فات، لاسيما وأن بعض ما كان يعتبر من عالم السنن الخارقة صار من عالم السنن العادية في منظور العصر، حيث ما كان يحسب من الخرافات صار من الحقائق مثلما ظن قوم يوما ما أن ساعة هارون الرشيد سحر فاسترهبوه.

ولذا فإن رهان معرفة مصطلح السنن وإدراك دلالته أفضل ما يكون من خلال مفهومه الذي يتسع لأقسام السنن كلها، على أن ينفرد كل قسم بمفهومه ويستثنى بعضه من البعض الآخر على أساس خصوصيته وصلاحية دلالته وإن ظل الخارق، وبخاصة من الناحية اللغوية، مخالفا لشرائع الكون ونواميسه ومألوف العادات والتقاليد، لأن إنجازات العصر العلمية قرّبت الخوارق إلى العلم والمنطق أكثر، فمعجزة الإسراء والمعراج التي فتنت عرب الجاهلية، واختبرت إيمان الصحابة، أصبح الإيمان بها في عصر آليات التكنولوجية أقرب إلى الاقتناع العقلي حين اكتشفت الكهرباء وعرف استخدامها، وعالم وسائل النقل واتصالاته.

وقد استطاع الإنسان أن ينقل الصورة والصوت والضوء من مسافة بعيدة تضاهي أو تزيد مسافتها على ما بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى في

وقت وجيز، قد يساوي إنجازه ما استغرقه سير الرسول ﷺ ليلة الإسراء والمعراج، فمن المقارنة بين معجزة رحلة رسول الله ﷺ ليلة الإسراء والمعراج وبين ما يجري من رحلات بشرية عادية عبر وسائل تكنولوجية معاصرة يظهر أصحابها على شاشات التلفزيون أو تسمع أصواتهم عبر أثير الإذاعات تتضح علاقة السنن الخارقة وما تجري بمقتضاه السنن الجبرية التي صارت عادية متحكما في إجراءاتها أكثر.

وما قد يقال في الشطر الثاني من هذه المعجزة المعراج يقاس على ما قيل في شطرها الأول الإسراء، حيث واقعية وسائل التكنولوجيا التي تجري إبداعاتها وفق سنن جبرية عادية في ميدان السفر والرحلة من موقع إلى آخر كان بعيداً أو قريبا يكاد يطابق بينها وبين الرحلة المكوكية من كوكب الأرض إلى كوكب آخر كالمريخ، فيتضح ما يشبه الحقائق ذاتها، بين موقع سنن المعجزة من الإسراء والمعراج، وموقع سنن الرحلة الجوية المعاصرة، وغزو الفضاء في إطار السنن الجبرية العادية اليوم، ولذا أصبح يطلق على الإنجازات العظيمة مصطلح المعجزة، عندما أخرجت جزءا مما كان من السنن الخارقة فأدخلته ضمن السنن الجارية العادية أو الجبرية العادية، لاقتدار الإنسان على استخدام جزء أكبر من قدرات ما وهبه الله، فيما يحوّل به السنن الخارقة التي لم تكن له طاقة بها قديما إلى السنن العادية، وقد صارت له طاقة كبيرة حقق من خلالها بعضها مما وعد به وفق شروط من أجل معرفة الحق: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[1].

ومع هذا لن يستطيع الإنسان تحويل السنن الخارقة كلها إلى سنن جارية، لأنه لن يستطيع الخروج من دائرة القليل في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ

١- سورة فصلت، الآية ٥٣.

ﭐلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾[1] إلى دائرة الكثير، فيدخل في مفهوم مخالفة الآية، فيتحوّل من قليل العلم إلى كثيره، وإن اختلف مقدار الكثرة والقلة بين الإنسان والآية بل حتى بين الإنسان نفسه، حيث ما يراه البعض قليلا يراه آخرون كثيرا، ولأن السنن الجارية لن تفقد خصائصها، مثلما لن تفقد السنن الخارقة، هي الأخرى، خصائصها، لأن مشيئة الله قدرت ألا يخرج الإنسان عن قدراته فيدخل فيما لم يقدره الله عليه فلا يبدع ما لم يشأ الله له إبداعه. من هنا تبقى السنن الجارية هي القاعدة العامة والسنن الخارقة هي الاستثناء،لأن السنن مراتب ومنازل تجري حيثياتها عند الاقتضاء.

- **دلالة لفظ الخارق**: أعتقد أن الخرق هو كل ما ليس من الشيء[2]، ولعل منه كان خرق الثوب بمعنى إضافة ما ليس منه من ثوب آخر إليه، فيكون المضاف أو المضاف إليه استثناءا غريبا إلى الأصل، ولذا كانت السنن الخارقة استثناءا من السنن العادية، أما الاختراق فإنه يعني دخول أو إدخال شيء غريب عن الأصل لمقاصد مضمرة غير معلنة.

لذا فالسنن الخارقة هي ما خرج عن طاقة دائرة فهم الإنسان وكانت وراء قدرته العقلية، حيث استبعدها القرآن الكريم من دائرة دراسة الإنسان كالروح حين قال: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾[3].

- **بين السنن الخارقة والسنن الأخرى**: بما أن التطور المعرفي العلمي والفكري قد أدخل كثيرا من موضوعات السنن الخارقة ميدان السنن العادية وحوّلها إليه، فقد صار ما كان خارقا عاديا وما كان يبدو مستحيلا

١- سورة الإسراء، الآية ٨٥.

٢- الخرق في اللغة الثقب، وفي القرآن: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ﴾ الكهف، الآية ٧١، ومن هنا كان الخرق ما ليس من الشيء .

٣- سورة الإسراء، الآية ٨٥ .

ممكنا كالذي بين المعجزة والإعجاز الذي بات يأكل من حصتها إلا ما ظل يستعصي على التحول من الخارق إلى العادي مما هو من المستحيل، حيث من المحال أن يصبح المستحيل ممكنا ولا حتى فهم حيثياته وإدراك أسبابه.

ولكن سيظل الإعجاز يأخذ من المعجزة ويقرّب حدوثها للأفهام ويطمح في تحقيق بعضها أو ما يشبهه مثلما قرّب علم وظيفة كاميرا التلفزيون نقل الصورة والصوت من مكان بعيد معجزة الإسراء والمعراج.

ولذا يبدو أن السنن الخارقة هي الأخرى كالسنن الجبرية بعضها علمي قائم على التجربة الميدانية مثلما بعضها الآخر فكري مدعوم بمنطق الحجة وبرهان العقل، وإن كانت طبيعة السنن الجبرية تخرج في جواب سؤال كيف بينما تبدو طبيعة السنن الخارقة تعليلية تظهر في جواب سؤال لماذا، لأن قصد المعجزة، وهي ضمن قائمة موضوعات السنن الخارقة، الإقناع بالقهر يومئذ إلى حين تتحقق إمكانات الإقناع العقلي بالبرهان المنطقي والتجربة العلمية، الأمر الذي يقتضي تعميم رسالة الإسلام على البشر كله ليكون الدين في متناول الجميع حتى مما دنت مستويات ثقافته في الوعي والفهم.

ومن هنا، فإنه كلما توسعت دائرة السنن العادية ضاقت دائرة السنن الخارقة، وقد يحدث العكس في مراحل التخلف لأن تحقق أي منهما مشروط بشروط، وحيثما يعلم المجهول قد يجهل المعلوم، ويكاد يكون المعلوم من السنن العادية بينما المجهول من السنن الخارقة.

ومع هذا،قد تخلط الموازنة بين عالم السنن فيما مازال يجري البحث فيه ولم يحسم القطع به، بينما هو من السنن الخارقة والسنن الأخرى مثل الالتباس الذي ظهر يوم بدت الأطباق الطائرة، حيث يذهب بعض العلماء إلى أنها سفن فضاء وطلائع استكشافات جاءت من عالم آخر لترى أهل الأرض وتراقب تحركاتهم بعد تفجير القنبلة الذرية في أعقاب الحرب

العالمية الثانية، وقد قيل إن الأطباق قدمت من كوكب المريخ، مثلما ظهرت المذنبات[١] كالمذنب الذي ظهر في عهد المعتصم ٢٢٣هـ. فخافه المنجمون وخوّفوا به،لاسيما وقد كان يعتزم فتح مدينة العمورية فتشاءم الناس[٢]، فقال الشاعر أبو تمام يفنّد المخاوف والتشاؤم:

السيف أصدق أنبــاءا من الكتب ... في حدّه الحد بين الجـد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف ... في متونهن جلاء الشك والريب
والعلم في شهب الأرماح لامعة بين ... الخميسين لا في السبعـة الشهب

ويبدو أن خوف المنجمين جاء من توهم أمر علمي أمرا خارقا، وهنا اختلط معنى السنن العادية بمعنى السنن الخارقة، ولكن توضيح التطور العلمي أبان أن هذا الأمر ضمن سنن العلم الجبرية التي تحولت هي الأخرى إلى سنن عادية وليس من سنن الخوارق الغيبية.

- **منظومة الغيب بين السنن الخارقة والسنن الأخرى**: لما تقدم العلم، صار بعض ما كان من يقينيات الغيب من حقائق العلم فتحوّل من الخارق إلى العادي، وبدلا مما كانت تحكمه حيثيات السنن الخارقة صارت تحكمه حيثيات السنن العادية أو الجبرية، ولذا حين تقترن السنن العادية بالسنن الخارقة لا تعملان في اتجاه واحد مثلما هي تجربة الفكر الغربي الذي من طبيعته البحث في أثر الأشياء وفيما تؤديه من وظائف، بينما كان عمل الفكر الإسلامي في وقت ما يسعى إلى تفسير الأشياء والبحث في عللها مثلما بحث في بيان حكمة الأشياء[٣].

١- هي أجسام تظهر في السماء تعرف من الناحية العلمية بأنها كويكبات نشأت في النظام الشمسي كنشأة الكواكب عن طريق تكاثف الغبار، وربما نظر إليها من الناحية العقدية على أنها عقوبات ربانية وأنها من علامات الساعة.

٢- محمد جمال الدين الفندي: الإسلام وقوانين الوجود، ص٨٨ ... ١٠٠.

٣- محمد جمال الدين الفندي: الإسلام وقوانين الوجود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢م، ص١٠٤.

ويبدو أن ما أصبح يسمى الإعجاز،أحد مشتقات المعجزة في المبنى والمعنى، صار يبرهن على قابلية فهم المعجزة فهما علميا ومنطقيا بدلا من الاقتناع العقدي فقط، وإن هذه الجرأة صارت تدفع المعجزة من خلال الأسباب ومسبباتها إلى ميدان العلم ليعلم الذين آمنوا لماذا هم مؤمنون ويعلم الكافرون لما هم كافرون: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾[1]، مع تأكيد الحقيقة القرآنية المتعلقة بأن الغيب حق وأن علمه عند الله، وأن سنته، عز وجل، جارية فيه .

- **السنن الخارقة بين الوحي والوضع:** وهذا ما يعني ربط الصلة بين الدنيا والآخرة والكون والقرآن والعلم والإيمان والخيال والمنطق، وهي الحقيقة المنتظر توثيقها في حضارة التداول القادمة ليرتق ما بين السماء والأرض وما بين الجسد والروح والأقوال والأفعال إلى آخر ما يمكن رتقه في الحضارة القادمة، ومن هنا يستخرج أداء مفعول السنن الحتمية والخارقة وقانونها من بين زوجية الحياة كقانون الشفاء الذي ينبغي اكتشافه ثم استخراجه من بين شفاء القرآن: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2] وبين شفاء العسل: ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾[3] وعائد مصدر الشفاء الذي أودع الله أسبابه، وهنا يلتقي أهل الذكر وأهل الخبرة.

وإن كان هذا لا يعني توقف البحث في أداء مفهوم السنن عند توكيد التجربة الواقعية للشفاءين لاقتضائه كيف يشفي القرآن الكريم المؤمنين وكيف يشفي العسل الناس، وكأن القرآن لا يشفي إلا المؤمنين به لخصوصية المؤمنين الذين وعدوا بالشفاء بالقرآن، أما مفهوم الناس فعام يشمل المؤمن وغير المؤمن، وقد وعد الله الكل بشفاء العسل، ومن هنا كان العسل شفاء

١- سورة الأنفال، الآية ٤٢.

٢- سورة الإسراء، جزء من الآية ٨٢.

٣- سورة النحل، جزء من الآية ٦٩ .

إضافيا لأهل الإيمان إلى جانب القرآن لأنهم ضمن الناس.

ومن هنا تنطلق الافتراضات تبحث من خلال التجارب لتخرج قانون شفاء العسل وغيره من بين الخطأ والصواب، والأهم هو البحث في الأسباب والمسببات والعلاقة بين الأشياء وكيف يحدث الأثر والتأثير، ولاسيما من أجل الرد على فكر انغمس في الغيب فعطّل فكر الإنسان واجتهاداته، مثلما اعتقد أن آلهة تسير الوجود ومفرداته وليس الإنسان، فآمن هذا الفكر أن للشمس آلهة وللريح آلهة وللرعد آلهة، وهكذا اعتقد أن العالم تسيره آلهة ولا قبل للإنسان به ولا يمكن له التدخل في شؤونه[1]، فضاع الفهم الصحيح ومنه فهم السنن وعطل الأخذ بالأسباب فحدث التواكل بدل التوكل، وساد التخلف وتعطلت حوافز الإبداع، ولجأ الإنسان خارج دائرة الإسلام إلى الاختباء وراء الخرافة والشعوذة والسحر وغيره...

ويبدو أن شيئا من هذا أصاب الفكر الكنسي الذي ساد أوروبا خلال القرون الوسطى، وقد تداعى شيء منه على فكر علماء الطبيعة في أوروبا الحديثة، وإن سعوا إلى الخروج من هذا التصور، واستطاعوا تفسير ظواهر الكون تفسيرا علميا واستنباط قوانين سير الكون ومفرداته[2]، وهو ما صار يسمى السنن الكونية من منظور الإسلام الحضاري الحديث، ولكن لم يذهبوا بعيدا منه فسموا القوى الخفية قوى الطبيعة، وغاب عنهم التوصل إلى تسمية الأمور بأسمائها ومن ثم إدراك الخالق وعظمته في الخلق وأنه بديع السماوات والأرض القيوم على شؤونها، والذي لا تعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

لذا، فإن الرتق ما بين عالم الروح والشهادة مازالت فجوته واسعة منتظرة التضييق! إذ أنه ولكنه في إطار مشيئة الله والسنن من مشيئة الله والتي

١- محمد جمال الدين الفندي: الإسلام وقوانين الوجود، ص٠٦.

٢- محمد جمال الدين الفندي: المرجع السابق، ص٠٧.

تقتضي دراستها بيان كيف يسيّر الكون ومفرداته، الأمر الذي ينتهي البحث فيه إلى أن مُسَيِّرَ الكون هو الله، ومنشئه المتحكم في إدارة وظائف مفرداته القابلة للتفسير تفسيرا علميا بمعرفة أثر الأسباب والمسببات هو الله، وهنا يتعاون عالم الحس واللمس وتلتقي السنن العادية مع السنن الخارقة لتتحوّل الثانية إلى الأولى.

- **السنن الخارقة والعناية الربانية**: إن منطق السنن الخارقة وما يتميز به غير ما يتميز به منطق السنن الجارية ومنطق السنن الجبرية، ولذا بات أكثر منطق السنن الخارقة خارج إدراك العقل حتى ولو لمس نتائجه بعد حين، ولعل من أبرز ميزات السنن الخارقة أنه لا يتحاكم فيها إلى العقل وإنما يتحاكم فيها إلى الإيمان بالغيب عن طريق الوحي، مثلما يبرهن على وجوده بحدث واقعي مشاهد بما يعني أن الخارق قد يصبح عاديا كالذي بين الإعجاز والمعجزة، حيث يخرج الممكن مما كان يبدو مستحيلا، ولذا صارت السنن العادية تأخذ كل حين من مساحة السنن الخارقة لتطور آليات الاكتشافات العلمية، ومن ثمّ ضاقت دائرة الخارق. وهذا لا يعني أن الخارق بات مهددا بالفناء والانعدام وأن مساحته تضيق يوما بعد يوم لتصبح مساحة معلومة، وإنما مثلها كمثل الذي كلما أنفق منه زاد لأنها مساحة مطلقة ضمن قدرة الله، بينما مساحة السنن العادية مقيدة ومثلها السنن الجبرية أشدّ قيدا لأنهما ضمن دائرة قدرة الإنسان الذي ما أوتي من العلم إلا قليلا، ولكن من حكمة الذي خلق السنن وأبدعها أن أودع فيها القابلية للمزيد من الاكتشاف والسيطرة والتحكم أكثر فأكثر حسب اجتهاد الإنسان وجهاده في الإبداع، وأنه شاء أن تظل السنن الخارقة استثناءا في التاريخ اليوم والغد.

- **الخوارق في التاريخ**: أعتقد أنه منذ كان التاريخ كانت الخوارق تستثني من أحداث مساره العادية لتصنع ذاتها خارقا، ومثلما جرت الخوارق في

تاريخ البشرية العامة جرت في التاريخ الإسلامي أو أكثر، وقد كانت أول خوارق السنن التاريخية العادية معجزة الأنبياء والرسل، ثم إلى جانبها كانت كرامات الربيين والحواريين والأصحاب والأنصار، ثم الأمثل فالأمثل من الصالحين في كل زمان ومكان... وليست المعجزة والكرامة فقط خوارق السنن العادية وإنما إلى جانبيهما خوارق أخرى كالتوفيق والحظ ولو لم يعبأ كثير من الناس بها حتى بعضا ممن حدثت لهم، وإن من أسباب التوفيق والحظ تقوى الله والتوكل عليه حق التوكل.

ومن طبيعة الخوارق أن تكون محل جدل ونظر لأنها استثناء من العادي المألوف، غير أن دليل حدوث الخارق وبرهان وقوعه، الوحي والمشاهدة لتواتر رواياتها خبرا عن عين ثم خبرا عن خبر، مثلما تواتر أن بدء تاريخ البشر كان بمقتضى حكم السنن الخارقة حين خلق آدم عليه السلام من غير أم ولا أب ومثله خلق عيسى عليه السلام من غير أب، ومن ثمّ بات من السنن العادية والخارقة ألا يولد كائن حي إلا من أب وأم، بل من السنن الجبرية ألا يصنع شيء إلا من سالب وموجب.

- **السنن والمشيئة الربانية**: وراء هذا الوجود وحركاته وتقلبات ظروفه وأحواله مشيئة ربانية تدبره، وقدرا يحركه وفق قوانين ونواميس هي السنن نفسها التي يستسلم لها الوجود كله طوعا وكرها من غير أن ينفلت من قبضتها أمر من أموره أو شيء من أشيائه، حتى ولو شعر الإنسان حين يعصي اللّه أنه في حالة تمرد وخروج عن طاعته، فهو ليس خارج إرادة اللّه ومشيئته، بعد أن اختار المعصية ونهج سلوكها الذي هو فيه خاضع في عمل جسمه ونشاط أجهزته وخلاياها كلها للمشيئة الربانية، ولكنه يمارس خياره بحكم تكليفه العقلي، حيث تجري أعماله ضمن مسار السنن ومقتضياتها منذ ولادته، ولم تكن له الخيرة من أمره في هذا شيئا، ولو كانت الخيرة للإنسان في أمره لانتقى من طيبات الحياة ما شاء مما لذ

له وطاب، ولأعرض عما يكدر صفوه، ولكن حكم المشيئة الربانية يُجْرِي الأمر كله وفق السنن التي ارتضاها الله للإنسان، مثلما ارتضاها لغيره من الكائنات الحية الأخرى عن طريق الغريزة والإلهام.

وهل للإنسان خيار في أبويه وولادته وتاريخها؟ وهل له خيار في لونه، وفي تنفسه ومقادير شهيقه وزفيره وفيما يحس به من أمل وألم، وفيما ينعشه من أفراح، ويحزنه من أقراح؟ وهل يمكن أن يرد الجوع من غير أكل، ويوقف العطش من غير شرب؟ وفي الجملة، فإن الإنسان يعيش وفق سنن وضعت له من غير خيار منه، ولا مشورة له، فهو في خضوع مطلق للمشيئة الربانية، ولكن وفق السنن الحتمية، أما السنن العادية فله الخيرة من أمره.

ومن منطلق هذه الحقيقة وقاعدتها المطلقة، سَنّ الله للإنسان شريعة تحكمه، وتضبط حياته، ويرتقي من خلالها إلى مدارج الحضارة، وإذا تخلى عنها، وحاول الخروج من دائرتها وقع في دائرة سنن أخرى تؤدي به إلى نتائج من جنس أعماله، فهو ضمن حكم السنن داخل المشيئة الربانية في الأحوال كلها، وهذا لا يعني أن السنن تعدم إرادة الإنسان وحريته، لأنه لا يحيط بها علما، ولذا فهو يحس بحرية خياراته وقرارات احتمالاته، فمثله كمثل من يسبح في بحر فهو في قبضة قانون السباحة سواء سار نحو الغرب أو نحو الشرق، ولذا لا يملك الإنسان أن يشرّع سنن الكون، وإن أحسن الإفادة منها، والتعامل معها فيما يحققه من إنجاز حضاري ومسارات مآلاته، لأن الإنسان استطاع أن يكتشف سنن التعامل مع بعض سنن الوجود والكون، فسخرها لذاته، وهي مسخرات له بأمر الذي قال لها بث فيها تلك السنن طوعا أو كرها: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[1]. وفي إطار تلك الطاعة، دعي الإنسان إلى اكتشاف السنن والتعرف على أداءاتها لتحقيق الاستخلاف في الأرض.

١- سورة فصلت، الآية ١١ .

وهنا تتكشف إرادة الله مع إرادة الإنسان ومشيئته مع مشيئته، وعندئذ فللإنسان أن يريد ما أراد فهو داخل إرادة الله، وله أن يشاء ما يشاء فهو داخل مشيئة الله، ويسنّ ما يسن فلن يخرج من حكم سنن الله التي لن يحقق من دون إذنها من وظيفة الاستخلاف شيئا إلا داخل ما سنّ الله له من سنن، وكأن السنن الجبرية العادية جزء من السنن الحتمية.

ولذا لن يكون الإنسان إلا عبدا لله، وفي عبوديته لله مطلق حريته، ولو استعبد الإنسان من دون الله غيره، مثلما لن يستطيع إلا أن يكون ضمن منهج من مناهج الحياة في إطار إرادة الله، فعندما يحسّ الإنسان أنه تحرر من قبضة منهج وقع داخل دائرة منهج آخر يعطيه نتائج من جنس أعماله، ولن يستطيع الإنسان إلا أن يطبق سنن الله في الوجود كيفما كان، وأينما كان، ليعترف أن السنن التي أودعها الله في الحياة سُنَنٌ غلابة مطردة لا راد لها، وليس أمام الإنسان إلا أن يسلك سبلها، لاكتشاف خامات الأرض من أقواتها ومعادنها، لما منحه الله من قدرة على الاكتشاف وسلوك سبل التقدم الحضاري، مثلما أقدره الله على الانحراف عن خط السنن والتمرد على أحكامه وترك له الخيار كصلاحية بمقتضى مسؤوليته ولو فرّ من قبضة سنن إلى سنن أخرى. وأين للجزء أن يخرج من دائرة الكل وكيف يكون المقيد أكبر من المطلق.

ولذا اقتضت مشيئة الله أن يكون الإنسان حرا كيفما كان وأينما كان، يختار لنفسه الهدى مثلما يختار لها الضلال، ويتحمل تبعة اختياراته، فترتب على هذه المشيئة ابتداء أن يكون في الناس محسنون ومسيئون، ثم اقتضت مشيئته كذلك أن يجري قدر الإنسان في الحياة البشرية من خلال أعماله[1] حيث ينطلق الإنسان، ولو من حيث لا يدري من أحد الخيارين اللذين نطق بهما القرآن الكريم ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾[2].

١- محمد قطب : حول التفسير الإسلامي للتاريخ، ص١٥٩ .

٢- سورة البلد، الآية١٠.

فكان الإنسان شقيا أو سعيدا، حيث له الخيار، مثلما له القدرة على استخدام سنن الشقاء واستخدام سنن السعادة، كالأخذ بسنن التقدم الحضاري والتزامها، إلى جانب الخيار والقدرة عل الأخذ بسنن التخلف، لحريته في انتهاج سننهما، حيث أودع الله في الكون مادة الحضارة، وفي الإنسان القدرة على استخدامها، ومن قدرة الإنسان وخياراته وما توفر له من مادة الطبيعة استطاع أن ينشئ الحضارات في المناطق التي دخلها كلها، ولو في تفاوت من عون البيئة، فقد كان الإنسان يعيش في مستويات متفاوتة من التخلف في مناطق الطبيعة كلها، مثلما أصبح يعيش في العصر الحديث على مستويات من التقدم الحضاري والمدني ولو في تفاوت.

ومازال الإنسان يواصل استمرارية التقدم الحضاري من منطلق إرادته وحرية اختياراته منذ كان، مثلما مازال يمارس أسباب التخلف الحضاري وفق إرادته ومشيئته، مع ما توفر له من مادة الطبيعة وعطاءاتها، وفي كلا الاتجاهين لن يخرج عن سنن الله في الوجود، ولن يحكم بغير مشيئة الله وقدره.

- **قراءة المستقبل من خلال المشيئة الربانية:** أعتقد أنه ما من شيء إلا وفيه القابلية لقراءة المستقبل من خلاله، ولا تخرج حقيقة المشيئة الربانية عن هذه القابلية، فالله الذي أخفى عالم الغيب بما قضى فيه، أما هو آت فقد أودع في الحياة ما يكون دليلاً على معرفة شيء من المستقبل فيما يعرف بالمؤشرات والملامح والدلائل والقرائن، واستنتاج النتائج من المقدمات، ومعرفة تحقق الشرط من المشروط، والسبب من المسبب، ولكن معرفة المستقبل كمعرفة الحاضر لن تكون إلا مقيدة وإن التزمت مبررات السنن ومقتضياتها كلها التي لا تتغير ولا تتبدل بل هي مطردة سائرة إلى مآلاتها غلابة في أمورها كلها لا يصرفها عنها صارف ولا يصدها عنها صاد مهما أوتي من قوة لأن قوة الله أقوى وأبقى.

لذا، فالعمل الجاد لابد له من أهداف يريدها وإلا كان عبثا، والذي أودع هذه الأحكام في الحياة ماديها ومعنويها هو الله، الذي أودع أثر السنن ومنطقها المفهومه ضمن المشيئة الربانية وفق منطق عقلي مثلما أودع في السنن القابلية للاكتشاف وتسخير الأشياء من خلالها ليتعامل معها الإنسان حسب حاجته ومراده، ووفق صلاحية مسؤوليته.

ومن هنا ما من شيء إلا ويمكن التطلع إلى معرفة المستقبل من خلاله بل قراءته منه، وليس في المشيئة الربانية ما يمنع من هذا بل فيها ما يدعو إليه ويحث على تحقيقه، وليس من الصواب أن يعتقد الإنسان أن قراءة المستقبل جرأة على الله واقتحام حمى الغيب، لأن الذي شاء الله أن يحتفظ به في علم الغيب عنده لا طاقة للإنسان به ولا قدرة له على اكتشافه وتسخيره مهما استقوى، ولهذا ظل الإنسان مقيد الإرادة والمشيئة بين يدي مشيئة الله وقدرته المطلقة.

- **السنن والقضاء والقدر**: من منطلق تعريف القضاء أنه حكم الله والقدر هو ما وقع منه، وهذا تعريف من أبسط تعاريف القضاء والقدر التي يمكن بناء دراسة عليهما فيما بينها وبين السنن من علاقة، لأن القضاء حكم من قضى يقضي قضاء ويبدو القدر تنفيذا له مشتقا من الاقتدار والقدرة والتقدير، وإن انفرد كل لفظ بخصوصية تحدد صلاحيات معناه وفق ما أضيف إلى حروفه الثلاثة الأصل في الكلمة التي تواترت من خلالها آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[١] .

وفي التفسير الإسلامي للتاريخ، أن القدر يجري من خلال السنن الربانية[٢] ، بمعنى ما علم الله أنه سيقع فلابد أنه واقع لمن قدر له أو عليه، وما علم أنه لا يقع فلن يقع أبدا[٣] لأن الله يهيئ الأسباب لما سيقع ويصرفها

١- سورة الفرقان، الآية ٠٢.

٢- محمد قطب : حول التفسير الإسلامي للتاريخ، ص١٢٨ .

٣- يوسف القرضاوي: الإيمان بالقدر، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م، ص٠٦ .

عما لا يقع، فتؤدي إلى وقوعه أو عدمه عبر سنن تؤدي في الاتجاهين، مثلما تؤدي سنن التقدم الحضاري والتخلف أو القيام أو السقوط .

وهنا ارتبطت السنن بالقدر، فجرت من خلاله، حيث تهيئ السنن سبل الإنسان لسلوكها، والأخذ بها حين يشاء وحين لا يشاء، وفي الحالتين والأحوال كلها هو في حكم قدرة الله وإرادته وبقدر منه، مثلما هو داخل مشيئة الله، وللإنسان أن يختار سلوك أي الطرق يشاء، فهو على قدر من الله، لأنه لا يكون في ملك الله إلا ما يشاء .

ولقد أدى الاضطراب في فهم القدر إلى قلة الإيمان به وسوء تلقيه عن الله، ثم ساد الظن بعدم سلوك مقتضياته في الحياة، مما أدى إلى تفرد دراسات في شرح معنى القدر، وبيان كيفيات مجرياته على البشر، وحقائق الوجود وظواهر المجتمع بوعي وإدراك عقلي من الإنسان، مثلما يتلقى الحيوان هو الآخر أمر الله عن طريق الغريزة والإلهام فيؤدي وظائفه من خلالها[١]، ويظهر أن الاضطراب في فهم القدر أثار أسئلة كثيرة قديمة وحديثة.

وانطلاقاً من قاعدة «إنما تعرف الأشياء بأضدادها» تأتي دراسة السنن من خلال القدر والعلاقة بينهما إسهاما في توضيح سير السنن من خلال القدر وجريانها بقدر من الله، لأن السنن ليست أمرا مستحدثا لم يسبق به علم من قبل، وليس القدر أمرا من أمر الله طارئا، وهذا ما يعزز العلاقة بين القدر والسنن، ولاسيما وأن القدرة من القدر، أي قدر الله من قدره والسنن قدرية حتمية وجبرية واختيارية جارية، وهي التي من خلالها تجري تحولات الحضارات في قيامها وسقوطها وتداولها وتجديدها ومآلاتها، والسنن القدرية والحتمية والجبرية والخارقة والاختيارية كلها من مصدر واحد، ولكن الحتمية تجري عن طريق الخلق والتنزيل، وهي مما لا يتحمل الإنسان

١- أنظر مثال هندسة شهد النحل ونسيج العنكبوت وعش الطيور وسواها.

مسؤوليتها فيها، فالسنن الاختيارية تجري أحداثها من خلال التعلم والعلم والتربية والتكوين والإعداد[1]، فيتحمل الإنسان مسؤولية نتائج أعماله وسلوكياته وتصرفاته كلها: إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

وهنا تدخل تحولات الحضارات في إطار مفهوم السنن وأحكامه لتضمن قبضة السنن التحولات الحضارية كلها واستمداد ذاتها من مشيئة الله وقدره الذي هو جزء من العقيدة الإسلامية، لأن إرادة الإنسان وقدرته لن تستقيم مع أمر الله حتى تكون جزءا من إرادته، أما حين يكون الإنسان على غير إرادة الله فإنه يسلك سنن الضلال والتيه، لأن الله لا يريد لخلقه شرا إلا بعدما يريده الإنسان لذاته وإن لم يخرج عن مشيئة الله حتى ولو أراد، ولذلك قيل من أراد أن يعصى الله فليعصه خارج ملكه، لأن الإنسان لن يكون خارج إرادة الله وقدرته، لأنه لن يكون خارج ملكه، ولأنه لا يوجد ملك آخر لعدم وجود إله آخر، ومن هذه الحقيقة الربانية تأسست لسبل التيه الحضاري ولرشاده سنن أخرى في تحولات الحضارات لتؤدي إلى نتائج من جنسها.

ولعل من هنا تعددت التحولات الحضارية فكانت سنن قيام الحضارات وسنن سقوطها وسنن تجددها وسنن تداولها وسنن مآلاتها وغيرها، ولقد اقترن القضاء والقدر في مواقع من الخطاب الإسلامي كثيرة حتى كادا لا يفترقان وإن كان لكل منهما موقعه من الخطاب. فالقدر هو تقدير الله في الأزل إلى الأبد، والقضاء بحكم الله على الشيء قبل وقوعه وفق أسباب ومسببات وشروط ومشروطات. ومن الاقتران بين القضاء والقدر، وافتراق كل منهما عن الآخر من حيث اللفظ والمعنى والأداء والوظيفة فكان الترابط المعرفي بين السنن والقضاء والقدر في المصدر والأداء والقصد، حيث كلاهما يسعى إلى غاية واحدة هي سعادة الإنسان حين يريدها، ويسلك

١- إبراهيم بن علي الوزير: على مشارف القرن الخامس عشر الهجري، دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر، ط٣، دار الشروق، القاهرة، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م، ص١٢ .

سبلها، أما حين يختار الأخرى فله خياره، وفي الحالتين له وعليه مسؤولية خياره.

وأعتقد أنه قد اتضح شيء من أمر السنن والقضاء والقدر ولاسيما في السنن الاختيارية العادية الجارية والجبرية التي يجري عليها أمر الله وفق مقتضياتها ويوظف من خلالها أداء العمل الحضاري وسلوكياته في تحولات الحضارات واستخلاف الأقوام والشعوب والأمم عليها، وإن كان القدر يجري من خلال السنن الاختيارية، مثلما يجري من خلال السنن الحتمية والسنن الخارقة، لأن السنن لا تعمل فرادى، وإنما تعمل مجتمعة، فتكون الحصيلة الواقعية هي نتيجة السنن العاملة كلها، بصرف النظر عما يأتي من كل سنة[1] حسب وظيفتها وميدانها.

ولذا، فمن دراسة هذه السنن التي تجري أعمال البشر من خلالها بقدر إن خيرا فخير وإن شرا فشر يتضح أن آيات تضمنت حقائق مما حكم القضاء الرباني به على أفعال البشر أو لها مثل قوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[2]، وقوله سبحانه: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾[3]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾[4] وقوله: ﴿ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾[5]... ففي كل الأحوال الماضية والحاضرة والآتية يتحمّل الإنسان مسؤوليته.

١–محمد قطب: حول التفسير الإسلامي للتاريخ، ط٣، المجموعة الإعلامية، السعودية، ص٩٢.

٢– سورة الروم، الآية ٤١.

٣– سورة الإسراء، الآية ١٦.

٤– سورة الأعراف، الآية ٩٦.

٥سورة الجن، الآية ١٦. ١٧.

- **قراءة المستقبل من خلال القضاء والقدر**: إن القضاء أمر قد تقرر فقدّر منذ الأزل،لأنه حكم الله الذي لا مردّ له ولا ناقض له، ومن تم، فإنه لا قراءة للمستقبل ولا تَطلُّع للإنسان إليه إلا من خلاله بقياس الأشباه على نظائرها ولقياس ما سيكون على ما كان عسى أن يكرر الزمان ذاته ويدور التاريخ دورته، والقياس هو المعيار الفريد الذي يمكن للحاضر استدعاء المستقبل أو بعضا منه من خلاله، وبهذا يمكن للحاضر التطلع إلى المستقبل لمعرفة مآلات الحضارات فيه.

ولذا، فإن قراءة المستقبل من أقوى ما يكون به القدر لسرمديته وانطباق مجريات أحداثه بعضها على بعض عبر مراحل الزمان مما تقرر وما يتقرر وما سيتقرر باعتبار أن ما كان مجهولا صار معلوما وما هو معلوم قد يكون مجهولا، وهو الذي تجتهد الدراسات والبحوث في قراءته للفوز بمعرفة ما سيأتي والسبق الحضاري فيه بعد معرفة ما أتى به دهر الحضارات .

إن معرفة المستقبل بقراءته من خلال القضاء والقدر يعني فتح باب من أبواب اكتشاف سرائر ما هو آت بصرف النظر عن اتساع هذا الباب أو ضيقه، لأن من لطف الله ورحمته وحكمته أن أقدر الإنسان على معرفة شيء مما هو آت إلا في استثناءات محدودة من الناحية العقائدية الإسلامية التي تضمنها قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴾[1]. وهذه خمسة أمور لم يُطلِع الله عليها أحداً. ولعل في معرفة شيء من المستقبل بالبحث والاجتهاد ما يخالف قول شاعر الحكمة زهير بن أبي سلمى حين قال:

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم الإنسان ليس أعمى بالمطلق عما في غده ولكنه قليل العلم به، وكل قليل قابل للزيادة

١سورة لقمان، الآية ٣٤.

إلا من استثني بمشيئة الله وباختيار من الإنسان بمقتضى الأسباب.

ففي القضاء والقدر ما يبيح معرفة شيء من المستقبل بل فيه ما يسعف على المعرفة ويعين على تحقيق أهدافها. وهذا يبرهن على أنه ليس بين السنن والقضاء والقدر وقراءة المستقبل من خلاله ما يتناقضون فيه لأن السنن من قدر الله وأقدار الله سنن. ولعل في هذا التوضيح ما يزيل التباسا متوهما وغبشا ران على عقول الأمة الإسلامية دهرا من سوء فهم القضاء والقدر حين قرأت أخطاءها على أنها من قدر الله، مثلما ظن قوم من المسلمين في يوم ما أن احتلال فرنسا الجزائر قضاء وقدر ينبغي الصبر عليه وظل الأمر كذلك إلى أن ظهر المصلح الإمام عبد الحميد بن باديس رحمه الله فصحح هذا الخطأ، فقام الشعب الجزائري يقاوم مظالم فرنسا فاتضح المستقبل وتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، وتحقق وعد الله بالنصر مثلما بدا المستقبل من رؤى رآها صالحون تليت عليهم فيها الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾[1].

ولا يستبعد أن يكون قد رأى آخرون أن الانهيار الحضاري الذي أصاب الأمة قضاء وقدر ولابأس أن يرى القوم أنفسهم أو آخرون على غير شاكلتهم أن تجديد الأمة الإسلامية الحضاري هو الآخر قضاء وقدر يجري من خلال عزائم البشر وأداءاته في الواقع وحينئذ تنهض الأمة وفق سنن النهوض الحضاري، ولعل طرح سؤال لماذا لا يرى أولئك أن تطور الأمة الإسلامية وسيرها نحو مآل حضاري من أجل استئناف إقلاع تجدد حضاري مرة أخرى قضاء وقدر.

أعتقد أن هذا الرأي لو كان أو كوّن لدخلت الأمة الإسلامية طور التحضر وازدهاره مرة أخرى، ولكن من عادة فكر التخلف إملاء الأساطير

١- سورة الأنبياء، الآية ١٠٥- ١٠٦.

والخرافات ومحاولة إقناع الشعوب بها إلا ما استثني من أفكار المصلحين التي هي استثناء من أفكار شعوبهم ولاسيما في مراحل تخلفها حين تنتظر ما يشبه المعجزة لتحقق أمانيها، ولكن لا نبي بعد محمد ﷺ ولا معجزة بعد معجزاته، ولكنه التجديد الملمح لإرهاصاته على خط سنن الإرهاص إلى الأنبياء والرسل الذي يسبق بعثهم، ومثله ما يسبق بعث المجددين الذي صار يقرأ في أسلوب لغة العصر بما يسمى ظروف نشأة المجدد العالم أو المفكر أو المبدع في ميدان ما من ميادين الحياة.

- بين السنن الخارقة والسنن العادية:

١- **الإرهاص:** يعرّف الإرهاص في الاصطلاح على أنه أمر خارق للعادة يظهر على يدي نبي قبل بعثته[١] يمهّد له لنبوته أو لرسالته، فيؤدي الإرهاص دور لفت النظر والانتباه إلى أن الذي حدث له سيكون له شأن عظيم، ويحدث مثله للنوابغ الرواد في مقتبل أعمارهم من القادة والعلماء والأبطال حين تبدو عليهم ملامح السيادة في ميدان ما من الحياة أثناء طفولتهم ودراستهم كالذكاء والاجتهاد والشجاعة والحزم وغيرها مما يمهّد به للمستقبل الزاهر الرائد، فيلفت ذلك أنظار أوليائهم وأساتذتهم وكثيرا من الناس والزملاء من حولهم، ولذا كان من السنن في الحياة أن يمهّد لأمر الرواد بهذه العلامات لئلا يفاجأ الناس بهم يوم بلوغهم عمر العطاء، وكأن من سنن هذا الأمر ومن على شاكلته التزام سنة التدرج.

ولقد تحدث أكثر كتب السيرة في نبوة محمد ﷺ قبل بعثته حين الحديث في ظروف شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام وما حدث له: كتظليل الغمام له وكحادثة شق صدره الشريف عليه الصلاة والسلام وهي ما يشبه العملية الجراحية فيما لا تعمل الجراحات فيه، حيث لو كانت الرذائل وسوء الطبائع كالكذب والحقد والحسد تستأصل بالعمليات الجراحية مثلما تستأصل

١- حسن أيوب: مع رسل الله وكتبه واليوم الآخر، ط٥، دار الأنصار، القاهرة، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م، ص٦٢.

أورام الأعضاء الجسدية لأمكن لمناهج التربية والأخلاق أن تستأصل الشر من القلوب مثلما تستأصل الغباء من العقول والكسل من النفوس.

- **الإرهاص بين الوعد الحق والمرتقب**: من المتفق عليه أنه إذا أراد الله أمرا هيأ له أسبابه، لأن المفاجئ كناشئة[١] الليل أشدّ وطأ[٢]، ومن هنا كان من رحمة حكمة الله أن يمهّد لحدوث الأشياء بعلامات على اقتراب وقتها ودنو أجلها، فكان الإرهاص جمع إرهاصات مما يمهد به لبعثة الأنبياء والرسل الذين هم الآخـرون كانوا يبشرون بقدوم بعضهم من بعدهم بالإخبار بعلامات زمان البعثة، مثلما بشّر عيسى بمحمد عليهما الصلاة والسلام فقال: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[٣]. ويؤكد الواقع أنه ما من شيء مُهِّدَ له إلا وكان أخفّ على النفس وأريح لها، وأنه ما من شيء فوجئ به الإنسان إلا وكان وقعه عليه شديداً - إن خيرا فخير وإن شرا فشر، ولعل من هنا شاءت المشيئة الربانية أن يخبر قدوم الأنبياء بالإرهاص كعلامات تبشر ببعثتهم.

وأعتقد أن إرهاص النبوة من السنن الخارقة، ولن يدخل دائرة السنن العادية إلا بما قد يكون من مؤشرات تظهر في بداية حياة المواهب الواعدة من العلماء والمصلحين والأبطال، والتي قد تدخل ضمن الإرادة الربانية والمشيئة الإلهية فيما تهيئه للشعوب والأمم من مقبل تاريخها لا مدبره، حيث إن مصطلح الإرهاص متعلق بما يمهد الله به للنبوة إلا أنه مصطلح أو لفظ مطلق يصح استخدامه من خلال المعنى اللغوي العام، فهو أمر غير

١- إن الناشئة مزعج من مزعجات الليالي ولو كانت في الخير مثلما يزعج مؤذن الفجر النائم، ولعل في الناشئة قال الشاعر :

فلولا المزعجات من الليالي ... لما ترك القطا طيب المنام

٢ - إشارة إلى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ سورة المزمل، الآية ٠٦.

٣ - سورة الصف، الآية ٦.

مكتسب الحدوث، وإنما خارج دائرة الإرادة البشرية، مثله كمثل خوارق أخرى قد يكون للتربية فيها حظ فيما لا يتعلق بالنبوة التي لا حظ للاجتهاد البشري فيها.

وبحكم أن الإرهاص أمر رباني فإن وعده حق وارتقابه واقع لا محالة، والإرهاص ذاته جزء من المعجزة.

٢- **المعجزة**: جرت سنة الله أن يؤيد الأنبياء والرسل بالمعجزات الواضحة من جنس ما برعت فيه أقوامهم لإقامة الحجة عليهم، حيث يسوق بين أيديهم ما يلفت أنظارهم ويعجزون عن الإتيان به أو بمثله، ليدَلِلَ على صدق دعوة أنبيائه وصحة حجتهم، والمعجزة هي فيما عجز فيه الأقوام فأقدر الله عليها الأنبياء، ومن هنا جاءت لتحقق تحديا يظهره الله تأييدا للأنبياء والمؤمنين بهم ضد المنكرين لهم، إذ لا تخلو سيرة نبي من معجزة قد تمتد بما يشبهها في حياة الصالحين فيما يعرف بالكرامة[١] والتوفيق والحظ وغيرها من مفردات الخوارق.

هذا ولا تسمح ضوابط منهج البحث باستطراد أكثر في سرد الحديث في معجزات الأنبياء ولا كرامات الصالحين إلا بالإشارة إلى أن من معجزات الأنبياء عصا موسى عليه السلام، وكيف انقلبت إلى حية تسعى، وإبراء عيسى عليه السلام الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله، والخلق من الطين كهيئة الطير، حيث لم يكن هذا إلا لنبيي الله موسى وعيسى عليهما السلام.

وإن تواصلت المعجزة الدائمة لمحمد ﷺ بما يتحدى المؤمنون به غيرهم في كل زمان ومكان، لأن معجزته عليه السلام ليست وقفا على مرحلة زمانية مثلما هي معجزة موسى وعيسى عليهما السلام، وإن كانت له مثل معجزاتهما المرتبطة بزمان ومكان، مثل فيضان الماء من بين يديه يوم الحديبية حتى

١- سعيد رمضان البوطي: كبرى اليقينيات الكونية، ط٨، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٢هـ، ص٢١٤.

سقى جيشا كاملا، ومثل حنين الجذع إليه ونطقه حتى سمعه ممن حوله، وعدم سكوته حتى أتاه رسول الله عليه الصلاة والسلام وهدهده فسكت.

وهذا لا يعني أن دعوات الأنبياء كانت كلها معجزات جرت وفق السنن الخارقة، وإنما كان أكثرها في متناول قدرة عقل الإنسان العادي، ولذا سار نشرها بين الأمم وشعوبها وفق منطق مسار السنن العادية، وإن ظهر في السنن العادية ما قد يكون من السنن الخارقة، مثل الإرهاص الذي يسبق دعوات الأنبياء تمهيدا لها، كحادثة شق صدر النبي ﷺ التي هي أمر خارج عن دائرة السنن العادية، حيث لا يمكن احتذاؤها أو تكرارها عن طريق عملية جراحية عادية تستأصل نزعة الشر من البشر.

٣- **الكرامة**: إذا كانت المعجزة تجري للأنبياء من غير دخل لهم فيها، فإن الكرامة تجري للصالحين من على نهجهم عن طريق الاكتساب التربوي، والتنافس في تزكية الأنفس، والارتقاء بها في مدارج التقوى، وإن كان الإنسان بطبعه مكرما فيما قد يطلق عليه الكرامة العامة، حيث فضل الله آدم عليه السلام وذريته وكرمهم على العالمين في الخلق والعقل والمنطق وتسخير الكون له ومثله ذريته من بعده: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[١].

وتواترت كرامات كثيرة في التاريخ البشري، ولاسيما التاريخ الإسلامي منه، حتى كأنها صارت من السنن العادية، مثلما جرى في حياة كثير من الصالحين الخاصة والعامة، وإن كان الإخفاء والكتمان غطى كثيرا من كرامات الأولياء الذين آثروا أن تظل كراماتهم سرا بينهم وبين الله، وإن أظهرت الضرورة بعضها، ولاسيما على ألسنة تلاميذهم ومريديهم وإن

١- سورة الإسراء، الآية ٧٠.

خالط بعضها تلبيس إبليس[1] مما أدى ببعض مدعيها إلى مزالق.

ومهما اتسعت دائرة السنن الخارقة في الكرامة، فإنها ستظل دائرة ضيقة إلى جانب دائرة السنن العادية، لأن الكرامة بخاصة لن ينالها أكثر البشر، ولعل مما يميز الكرامة عن المعجزة،وكلاهما من السنن الخارقة، أن الكرامة مازالت تستمر في حياة البشر، وإن شابها دخن مما قد يكون أخلط بينها وبين مرادفاتها كالاستدراج لاختلاطها بالشعوذة والسير بصاحبها نحو الغرور . فقد ثبت بدليل النص القرآني[2] جهاد الملائكة مع الصحابة رضوان الله عليهم، وهذا يدخل في دائرة السنن الخارقة. وإذا حدث مثل هذا في المراحل الخيرة من تاريخ الأمة الإسلامية، فقد حدثت كرامات أخرى لمجاهدين من بعدهم، مثل الذي حدث في معركة فتح المدائن حين عبر المسلمون بقيادة سعد بن أبي وقاص نهر دجلة على ظهور الجياد وهم ستمائة فارس يتلون قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾[3] ويتضرعون بدعاء «حسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ولينصرن الله وليه وليظهرن الله دينه وليهزمن الله عدوه»[4] فلما رأى الفرس المسلمين قالوا متعجبين:ديوانا، ديوانا أي مجانين، مجانين، ثم قال قائلهم إنا لا نقاتل إنسا بل نقاتل جنا، وذكر عبد الرحمن علي الحجي[5] أن هذه القصة أوردها الحافظ بن كثير في كتاب البداية والنهاية[6] وعز الدين أبي الحسن علي بن محمد بن عبد

١- عبد الرحمن بن الجوزي: تحقيق محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٥م

٢- ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ سورة الأنفال، الآية ٠٩.

٣- سورة آل عمران، جزء من الآية ٥٤١.

٤- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، تاريخ الرسل والملوك، ج٤، ص٨ وما بعدها.

٥- في كتابه: نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي، ص٦٦. ٦٧. ٦٨ .

٦- ج٧، ص٦٤ . ٦٥ .

الكريم بن الاثير الجزري في كتاب الكامل في التاريخ[1].

- **الكرامة بين الواقعية والمثالية:** لقد ضاعت حقائق كثيرة فيما بين الطرفين لغياب الوسطية وشغور كرسيها ومنها فهم الكرامة خارج إطار ما بين الواقعية والمثالية، حين أنكرها فكر وبالغ فيها آخر، وقد حسب كلاهما أنه يخدم الحقيقة فيما يذهب إليه، ويبدو أن القول الفصل والحكم الحق في الكرامة أنها، في نظر من اهتم بها من علماء العقيدة، منّة من اللّه يؤتاها الصالحون جزاء لما بذلوه من جد واجتهاد في الاستقامة على الحق والالتزام به.

فالكرامة، وإن كانت منّة، إلا أنها لاتحصل من غير شرط تدخل من خلاله سياق منطق السنن وتتوافق مع مساره، أما ادعاؤها لذاتها والسعي إليها من دون التزام شروطها فإنه عبث غير مستبين، ولذا فإن الكرامة ليست غاية لذاتها وإنما هي جزاء من عدل اللّه حين الاقتضاء لمصلحة الإنسان ولحكمة شاءها اللّه، لعل من دواعيها قضاءه سبحانه أنه لا يضيع أجر المحسنين ولن يساوي بين المسيء والمحسن. ومن الطريف الإشارة إلى أن بعض العلماء يذهب إلى أن الكرامة تأتي لتقوية إيمان صاحبها وتثبيته، وهي، حتى بهذا التفسير، لاتخرج عن منطق السنن.

٤- **المعونة:** مصطلح مشتق من العون والإعانة فمعونة، وهي حقيقة عقدية يثبتها الواقع وأشار إليها النص «واللّه في عون العبد ماكان العبد في عون أخيه»[2]، حيث ما من إنسان،سيما أهل الإيمان والتقوى والتضرع إلى اللّه، إلا ويسنده عون اللّه في يوم ما، وإن لم يعبأ بالمعونة كثير من الناس حتى بعض الذين حدثت لهم. ويبدو أن المعونة أوسع دائرة وأكثر حدوثا من الكرامة ودونها درجة، وإن منزلة المعونة من الكرامة كمنزلة الكرامة

١- ج٢، ص٥١١. ٥١٣.

٢- رواه مسلم

من المعجزة، وإن الكرامة والمعونة من الإعجاز، وهو امتداد المعجزة في الحياة من خلال السنن الخارقة.

- **المعونة بين الحدوث وعدم الوعي**: المعونة هي الأخرى منزلة من منازل الصالحين قد تتبوأ المرتبة الثالثة، يؤتاها أولو الفضل جزاء لهم، ولذا اقتضت الشروط ذاتها التي اقتضتها الكرامة،وإن كانت دونها من حيث الجد والاجتهاد والانضباط والالتزام، ومن هنا تنخرط المعونة في سياق منطق السنن ذاته المشروط وإن لم يعها حتى بعض ذويها ممن وقعت لهم والذين من حولهم إلا قليلا ، وإن عدم وعيها لا ينفي حدوثها.

٥- **التوفيق**: أعتقد أنه ما من إنسان إلا وأحسّ في يوم ما بل في أيام من حياته بتوفيق الله له حين أصاب في رأي بعد اجتهاد منه أو بدون اجتهاد من أجل الأخذ به عندما احتار بين اختيارات أو حين حقق هدفا ما طلبه في يسر من غير عسر، ثم إن هذا الإنسان ذاته أو غيره إذا أحسّ بتوفيق الله له يكون قد أحسّ في الوقت ذاته بأن هذا التوفيق الذي اعتراه هو من خارجه ولم ينبعث من ذاته، وكأنه ليس له مسؤولية فيه أو قدرة على إتيانه،وإنما مدّ به من فضل آخر هو الله في فكر العقيدة الإسلامية لأن مصدره الغيب، وهو الحظ أو الصدفة في فكر الآخر.

ولذا بات مصدر التوفيق سنة من سنن منظومة عالم الغيب، وبما أن الحياة في مفهوم السنن قائمة على حدوث السبب بعد المسبب والشرط وما يطلبه من مشروط بل ربما مشروطات، فقد دعا الأمر إلى بحث علاقة التوفيق بالسنن، ويبدو من بحث هذه العلاقة أن أسباب التوفيق تحدث في عالم الغيب فلا يراها الإنسان لأنها وراء مدركاته العقلية العادية، ولذا فإن علاقة التوفيق ترتبط بالسنن الخارقة التي هي استثناء من السنن العادية العامل الأصل في عالم السنن، ولكن أنّى للإنسان بحث الأسباب

ومسببباتها والشروط ومشروطاتها وحيثيات المنطق وعلمية الأمر، وهو لا علم له بمنظومة الغيب إلا وحيا من وراء حجاب، وقد أوكل أمر الغيب كله لله.

إذاً كيف يتمّ التوفيق وفق منطق الأسباب ويتحقق في يوميات الإنسان وفق مقتضياتها وتناول حيثياتها؟ فقد يكون من الإجابة عن هذا السؤال أنه إذا آمن الإنسان أن مصدر التوفيق هو الله فيما لا طاقة له به فإن أسبابه قد تظل مجهولة لديه لتعلقها بعالم الغيب، ولكن هذا لا يعفي الإنسان من البحث الذي قد يصل من خلاله إلى أن من أسباب التوفيق ولو في حس المؤمن بالغيب ومقتضياته: أن التوفيق مَنٌّ من الله وصدقة وفضل منه وفق مشيئته وإرادته فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وأنه جزاء الله للإنسان على استقامته والتزامه طاعته في السراء والضراء والرضا والسخط بما قسّم الله له في الحياة الدنيا، ومن مقتضى عدل قدر الله أنه ما من عمل إلا وله جزاء أو عقوبة من جنسه.

ثم إن التوفيق، مع أن مصدره الله عز وجل، إلا أن للإنسان فيه دخلا حين يجتهد ويستقيم، لأن أكثر الذين يوفقون هم ذوو الألباب أهل الجد والاجتهاد. وقد لا يسعف الإنسان اجتهاده في نيل توفيق الله له لحكمة قد تكتشف بعد حين أو لا تكتشف إلى الأبد، ولكن قد يرى البعض أن هذا التعليل المستند إلى التصور الإسلامي منضبط باحترام حقائق الغيب الذي هو خارج مدارك الإنسان وقدراته العقلية، إذاً فما التعليل المنطقي المجرد من كل خلفية إيمانية المساير لمنطق السنن وحياد علميته.

إن التوفيق متعلق بالسنن الخارقة وليس السنن العادية أو الجبرية التي تختفي في مفهومها الأسباب الظاهرة لتسلم أمرها لأسباب أخرى خفية كثيرا ما يعجز الإنسان على تلمسها وإن استطاع تلمس أثرها وتداعياته أكثر حين تخرج الأسباب من عالم الغيب وتدخل ضمن أسباب عالم الشهادة فتبدو ظاهرة بعدما كانت خفية.

ومن هنا ينطلق التوفيق في علاقته بالسنن حيث يبدأ من اسمه لأن المنطق يأبى أن يكون اسم من دون مسمى، ولهذا فإن التوفيق بمعنى التوافق والالتحام بين الشيئين حين يستصوب الأمر[1] ومن ليس له قاموس فقاموسه القرآن الكريم لأنه ليس بين يدي هذه الدراسة ولا بين يدي غيرها من البحوث ما يسترشد به في تناول موضوع التوفيق سوى نصوص القرآن الكريم فيما نقل عن شعيب عليه السلام :﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[2] . ولذا ليس لموضوع التوفيق وما يشبهه مصادر معرفية إلا القرآن الكريم والحديث الشريف وقواميس اللغة العربية واجتهاد العقل واستنباطاته مما ذكر من مصادر.

إن هناك علاقة رضا خفية بين الإنسان والله تكونت نتيجة طاعته وتقواه ودعائه بالسر والعلانية في السراء والضراء وحين البأس، فتظهر نتائجها في التوفيق في السلوك والتصرفات والإصابة في الرأي والاجتهاد والقول، وهذا ما يعني أن ما يجري من خلال السنن قد يكون أمرا خفيا غير مشاهد ولا مرئي بل غير مدرك بالبصر، وإنما بالبصيرة التي قد يسميها آخرون الحاسة السادسة التي لم يوجد لها اسم لديهم إلى اليوم ومازالت محل بحث شديد ومضطرب الأفكار لعدم الإيمان بالقوة الغيبية وأثرها في مجريات الأحداث اليومية في الفكر الآخر.

- **التوفيق بين الحس به وعدمه:** إن اشتقاق لفظ التوفيق من جنس ما اشتق منه لفظ التوافق والوفاق اللذين هما صناعة بشرية ولكن التوفيق تصنعه العناية الربانية بمقتضى منطق السنن الخارقة الذي لا يفقه الفكر المادي منه كثيرا، ولذا بات دليل التوفيق حدوثه وإن لم يحس به حتى بعض من يحدث لهم ولو فرحوا بما يلمسونه من نتائجه، فإن كان الذي حدث له مؤمنا حمد الله، وإنّ كان الآخر ربما ظن حدوثه له نتيجة تخطيط وإعداد

١- أنظر لسان العرب.

٢- سورة هود، الآية ٨٨.

مسبق لتحقيق نتيجة من نتائج التوفيق وإن آمن بالصدفة والحظ كتدخل أمر خارق من خارج الواقع. ومن هنا يدخل التوفيق، مثلما تدخل مرادفات معانيه،حكم منطق السنن الخارقة وقضايا أخرى من نوع التوفيق.

- **البركة**: إذا كانت البركة في لسان العرب لابن منظور هي النماء والزيادة[1] وأمرها مقدر بقدر لا يزيد عنه ولا ينقص منه شيئا، فكيف تكون الزيادة في هذا الشيء واقعا ملموسا قيمة مضافة؟ وأعتقد أن البركة بمعنى الزيادة في المادة تكون بمعنى الزيادة في المعنى وهي لمن يحسن التصرف في الشيء وتدبير شؤونه فلا يبذر ولا يضيع منه شيء، وهنا تحصل البركة استجابة لشروط: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾[2].

وأعتقد أنه على أساس هذا التصور ينبغي إرجاع النظر في مفهوم الإيمان والتقوى والتزام حيثياتهما ليحظى من خلالها المعنيون بالفتح عليهم بركات السماوات والأرض، وإن كان هناك استعصاء في فهم ألفاظ مفردات منظومة الغيب في القرآن الكريم من ناحية الدلالة والاصطلاح، ولاسيما في علاقتها بالواقع وقابلية تطبيقها فيه وانتهاجها نهجا عمليا لا تصورا ذهنيا فقط. ولعل هذا الذي جعل أكثر مفسري القرآن الكريم يقصرون حديثهم شرح مفرداتها لغويا فقط، وغدا من خلالهم آخرون يفسرون البركة ومثلها بما يحس ولا يرى كقولهم في معنى البركة في الطعام بمعنى الزيادة فيه حصول القناعة فيكفي القليل عن الكثير ولو لم يغن عنه مادة، والبركة في العمر سعادة الحياة في القدر الذي يعيشه الإنسان من دون شقاء. فتكون الزيادة في المعنى والروح لا في المبنى والمادة المقدر بميزان أو مكيال،

وقد يتفق على أن البركة حقيقة كائنة وموجودة، ولكن الذي يختلف فيه

١- لسان العرب.

٢- سورة الأعراف، الآية ٩٦ .

هو الإيمان بأثرها في الحياة والإقرار بإسهامها في صنع الأحداث، ولذا ربما لم يبق لها حظ كبير إلا في الفكر الإسلامي وبخاصة المتدين الورع التقي منه، ومثله تيارات أخرى مؤمنة بقوة خارج قوة الإنسان وبإرادة أقوى من إرادته بل هي موجهة لإرادة الإنسان ومؤثرة فيها ومهيمنة عليها ولو من خلال الأساطير والخرافات.

وأعتقد أنه من هنا ترتبط البركة بالسنن التي تضاف إلى الله حقيقة كالقول السنن الإلهية والسنن الربانية وإلى غيره مجازا كالقول السنن الكونية والسنن الاجتماعية والسنن النفسية أو بمفهومها مثل قوانين الطبيعة وقوانين الوجود، ولذا ما تجرأ أحد على إضافة السنن إلى الإنسان كالقول سنن الإنسان أو سنن البشر لأن السنن إرادة إلهية وربانية وليست إرادة بشرية ولو على سبيل المجاز ولو كانت السنن تقوم على الأسباب ومسبباتها وما بينهما والشروط ومشروطاتها والعلاقة بينهما من داخل إرادة الإنسان وذاته، لأن علاقة السنن بالبركة وما على شاكلتها كالتوفيق والحظ تقوم على أسباب وشروط من خارج إرادة الإنسان وليست له القدرة على التحكم فيها وإن أخذ بأسبابها كالتقوى، ولذا ليست ضمن قبضة منطق العقل، وإن أثبت الواقع وجودها ومثيلاتها وأمكن البرهان عليها من خلاله.

- **البركة بين الاستخدام وعدم الحس بها:** لعل أكثر الناس يؤمنون بالبركة لفظا لما يجري على ألسنتهم من لفظها ومشتقاته، ولكن أكثر الناس لا يفقهون حقيقة البركة وجوهرها، وإن جريان اللفظ على الألسن لا يعني الحس به لأنه لا دليل ملموس على ترجمته إلى الواقع، لاسيما عندما يتنافى ظاهره مع حقائق مقررة في قضاء الله وقدره وفي البرمجة والتخطيط البشري، الأمر الذي يدخل البركة من خلال منطق العقل محك الإيمان لتعتمد في فعل ما من أفعال الإنسان المؤثرة في مجريات الحياة، وعندما يشرط القرآن حدوث البركة بشروط إن تحققت تحققت البركة

وإن انتفت انتفت هي الأخرى، مثلما في الآية ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1]، وفسّر العلماء بركات السماء بالغيث وبركات الأرض بما تنبته من كلأ وعشب الأمر المادي الذي يحوّل إيمان الإنسان من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، فيرى من ليس له اعتقاد جازم بالسنن الخارقة أمره في إطار السنن العادية، لاسيما وأن أكثر الناس يتعاملون مع السنن الخارقة ويؤمنون بأثرها في سلوكهم وأفكارهم ولا يعتمدونها وسيلة من وسائل التقدم الحضاري ربما لسهوهم عن أثرها في صنع الأحداث، ولا يدركون أنها ذات قابلية لتكون من السنن العادية حينما يقوى الإيمان بالغيب الذي هو سمة من سمات أهل التقوى[2].

- **الحظ**: قد يكون الحظ بمعنى ما يتوافر للإنسان من فرص لا يدري مصدرها بعد الله، ولكنه يحسّ أن لا حول ولا قوة له فيه مما قد يذر صاحبه حائرا في أمره، ولكن فكر السنن لا يسلم بالحظ إلا من حيث ملموس واقعيته في حياة الإنسان. وإن بدا مجهول المصدر عاريا عن أسباب الحدوث بين يديه، لأنه ما من حدث في مفهوم منطق الأشياء إلا وله أسبابه التي قد تعلم أو تظل مجهولة مثلما هو أكثرها في عالم السنن الخارقة إلا حين يتحول الأمر من المعجزة إلى الإعجاز، الأولى التي أكثر ما تكون أسبابها في عالم الغيب الذي لا علم للإنسان به، ولذا صار الإنسان يرجع أكثر ما يجهل إلى المعجزة والكرامة وغيرهما من الخوارق ليرتاح من تعب التفلسف والبحث والتعليل والتحليل، ويبدو أن إرجاء الأمر إلى عالم الغيب قد شكّل عامل ثقل في تكدس أفكار نظريات التخلف الحضاري الإسلامي- مثل فكر الأمم الأخرى أيام تخلفها غير أيام ازدهارها الحضاري من قبل أو من بعد.

ولذا، فإن فكر السنن والالتزام بمقتضياته معتمد النهضات ومشروعات

١- سورة الأعراف، الآية ٩٦.

٢- لقوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ البقرة، الآيات: ١، ٢، ٣.

البحث الحضاري العلمي أو الفكري أو الأدبي من طبعه ألا يستسلم للغيب كثيرا، ولا يحيل عليه همومه ويحمّله مسؤوليات التخلف الحضاري، وإنما يعتبره عونا ولو من حيث لا يحتسب، والأمر كذلك ولو لم يُفْقَهُ بقدر كاف يؤهل مآل مشروع التداول الحضاري إلى اعتبار التزام حيثيات السنة الخارقة وما يؤدي إلى حدوث موضوعاتها من أسباب كالتوفيق والبركة والحظ وغيرها من مفردات منظومة عالم الغيب وأن عامل التحضر تتحقق أهدافه من التزام ما يعلم من حِكمة المشيئة الربانية وما لا يعلم.

ولذا تظل واقعية الحظ هي أهم ما يفهم منه إن حُسَّ به، ومن خلالها يرتبط الحظ بفكر السنن ومفهومه، وهو ما قد يخرج الأمر من طبيعة السنن الخارقة وخصائصها إلى السنن الجارية ومجريات لمس أسبابها التي قد تحيل الأمر إلى عالم السنن الخارقة ليحدث التناغم بين السنن الجارية والسنن الخارقة ومن خلالها بين عالم الغيب وعالم الشهادة، حيث كلما خرج الأمر من عالم الغيب إلى عالم الشهادة فقهه الإنسان، ولكن إذا دخل من عالم الشهادة إلى عالم الغيب اضطرب فيه ونأى عن فهمه إلا بما قد يسعفه الوحي أو الكرامة، ولم يبن على ذلك عملا جادا وتخطيطا رسميا معتمدا.

ولذا فإن أكثر ما يعتمد في بناء مشروعات التحضر من فقه السنن وفقه مقتضياتها السنن الجارية لوضوح أسبابها ومثلها السنن الجبرية، ومن هنا جاءت هذه الدراسة لتوسع في مفهوم السنن الخارقة حتى لا تهمل حقائقها وتجهل حيثياتها مع ما لها من أثر في توجيه الحدث التربوي والسلوكي الأخلاقي وأهميته في صنع الحدث الحضاري الروحي وتوثيق صلة الواقع بعالم الغيب.

ولذا فإن الحظ، مثل غيره من مفردات منظومة عالم الغيب المحتكمة إلى أحكام السنن الخارقة، لم يحظ من اهتمامات الدراسات الفكرية، ومن

خلالها أسبابها ومسبباتها، إلا ما كان مما تعرض له مفسرو القرآن الكريم حين اعترض سبيلهم لفظ «الحظ» في القرآن الكريم، حيث ذهب أكثرهم إلى شرح الحظ لغويا فقط ولم تزد أكثر كتب التفسير عن المعنى اللغوي[١].

أما وأن تبحث أسباب نيله والفوز به وأثره في صنع الحدث الحضاري وتوجيه سلوك الإنسان اليومي فيبدو أنه لم يعر ما يستحق من اهتمام.

ولذا تعترف الرؤية الإسلامية بالحظ وإن كان غير قابل للتعليل في ذاته كثيرا فإن الواقع يبرهن على وجوده ولو كان المتحدثون باسمه لا يزيدون عن ذكر لفظه شيئا لعدم وجود ثقافة معرفية في الحظ وما يشبهه من قضايا السنن الخارقة.

ومن هنا قد يسأل سائل هل الحظ في الفكر اسم بدون مسمى؟ أو كائن من دون عنوان؟ أو عنوان بحث من دون موضوع؟ ولعل هذا مما يحيّر المنطق، ولكن حسب الحظ وجوده في الواقع والاقتناع به والبرهان عليه أن هناك قدرة غيبية تعمل لصالح نجاح فكرة أو أفكار وانتصارها على غيرها مثلما تعمل على تفوق فريق على فريق أو شحص على شخص رغم قدرة المتفوق عليه المغلوب على أمره، وهذه القدرة التي تتبنى الحظ ترى أن برهانه في واقعيته المتفق على وجودها ودليله ذكره في القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[٢].

وفي الآية بعد بيان المعنى اللغوي المتطابق واستخدامات الناس للحظ إضافة بيانية أخرى هي قابليته للوصف مثل وصفه هنا بالعظمة، ولذا كان الحظ كأنه يوفر عوامل النجاح والانتصار والتفوق ويسوقها إلى من يرغب في فوزه، وكأن الحظ جند من جنود الخفاء، وما يعلم جند ربك إلا هو، وأعتقد أنه مع هذا، فإن لفظ السنن ومفهومه لا يختار التعامل مع حقيقة الحظ

١ - معنى الحظ النصيب أي القسط من الشيء والنسبة منه.

٢- سورة فصلت، الآية ٣٥ .

وما يشبهه كالتوفيق والبركة إلا من خلال تأويل أمره واستحضار واقعيته.

- **الحظ بين الحديث عنه وواقعيته:** هل من سبيل للحظ إلى منطق السنن؟ وكيف لا يكون له سبيل إلى منطق السنن وهو الحظ ذاته؟ فكيف يكون لغيره إن لم يكن لنفسه؟.

ولعل من هنا تقررت واقعية الحظ وأثره في حياة الأفراد والأمم والشعوب وترشح لتكون له وظيفة في ازدهار الحضارات وتداولها وسقوطها ومآلاتها، حيث يحكمه منطق السنن من خلال الواقع الذي يحسّ بالحظ فيه وإن لم يلمسه لمسا ماديا مباشرا.

- **الدعاء بين الطلب وتوقع الاستجابة:** يبدو كثير من الناس مفتونين في مسألة الدعاء، ولاسيما حينما يدعون ويتوقعون الاستجابة ولا يستجاب لهم، وبخاصة أن الاستجابة وعد من وعود الله، فكيف يعالج منطق السنن هذه المسألة؟ هنا ينبغي أن تتقرر حقيقة أن الدعاء مستجاب ولكن الأمر في أن الإنسان لا يحسّ بالاستجابة لأنها قد لا تكون بالطريقة أو الكيفية التي يريدها، وكأنه يتوقع أن تأتيه الإجابة في شكل يراه بعينه ويلمسه بيده، ولذا عندما يحسّ الإنسان باستجابة الله لدعائه يحمده على ذلك، وقد لا يستجاب لدعاء الإنسان لخير أراده الله له فيؤجله له، وقد يحسّ الإنسان به بعد حين أو لا يحسّ به إلى الأبد.

إن الاستجابة تقع ضمن منطق السنن الجارية وبمقتضى شروط وليست خارج دائرته وإن كان هذا منطق الخوارق، لأنها،في منظور العقيدة، وعد من وعود الله الذي لا يخلفه،وفي منظور منطق السنن مشروط لابد أن يتحقق بعد تحقق شرطه، لأنه قد يكون مستحيلا في حكم منطق السنن أن يكون الشرط ولا يكون جوابه، ولكن الشعور بإجابة الله العبد يقتضي حسا إيمانيا مرهفا.

- **التقوى**: التزام التقوى بنص القرآن الكريم محقق لمقاصد الإنسان، ولكن ما هي التقوى التي تحقق هذه الغايات الكبرى التي تعجز اليد الطولى والعقول الكبيرة على تحقيقها وحل مشكلاتها، وأعتقد أنه، لفهم هذه الحقيقة،حقيقة التقوى وما يشبهها من قضايا أخرى كالاستغفار وغيره، لابد من عرضها في إطار ورودها في القرآن من خلال منطق مفهوم السنن مثل قوله تعالى:﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾[1].

- **التقوى حقيقة غير معتمدة**: يبدو أن إيمان منطق السنن العادية بالتقوى صار ضعيفا وإن لم يكن قويا إلا في مراحل ازدهار الإيمان بالغيب كمرحلة الصحابة والحواريين والأحبار والرهبان ومن على منهجهم في كل زمان، ولذا تحولت التقوى من دائرة منطق السنن العادية إلى دائرة السنن الخارقة وكأنها انسحبت من عالم الشهادة إلى عالم الغيب. ولذا قد يكون من وظائف السنن بشقيها العادي والخارق السعي إلى الاقتناع والإقناع باعتماد التقوى من خلال الاعتقاد بأن اللّه على كل شيء قدير، ومن ثمّ إخراجها إلى العالم العادي عالم الأسواق والإدارة والحياة العامة، لأن الحقيقة القرآنية تؤكد أنها مخرج من مخارج الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها من منطلق ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[2].

ولذا، فإن الإنسان مدعو عندما يخطط لأمر ما أن يضع في حسبانه تقوى اللّه، وينبغي أن يعترف أنه لم يرتق إلا باعتمادها والالتزام بها لتكون له حلا ومخرجا بمقتضى التزام شروطها لتتحقق مشروطاتها «من يتق ..... يجعل له» ومن هنا بات اعتماد التقوى، مثلما بات اعتماد مرادفات معانيها،

١- سورة الطلاق، الآية ٠٢. ٠٣.

٢- سورة الطلاق، الآية ٠٣.

مرهونا بالارتقاء إلى مستوى الالتزام بشروطها التي تقتضي جدا واجتهادا وقوة التمسك بالحق والاستقامة عليه.

- **الاستغفار**: أعتقد أن أكثر الذي قيل ويقال وسيقال في التقوى من منظور منطق مفهوم السنن يقال في الاستغفار الذي ينبغي أن لا يقدم فيه قول إلا بين يدي قول الله تعالى الذي هو خير قول، ومن خلاله يعرض ما قاله المفسرون في الاستغفار ولاسيما في صيغة الأمر مثل قوله تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾[1].

- **الاستغفار الحق غير الملتزم به**: إن مسالة الالتزام أمر هام في منطق السنن الجارية ولاسيما أنه مبحث من مباحثها، ولذا بات الاستغفار بابا من أبواب دخول منطقة السنن العادية، وتقرر الالتزام بأبجديات ما ينبغي أن يتوافر لمنطق السنن لتؤدي وظيفتها من خلاله، وحينما نبحث عن أثر الاستغفار ودوره في حياة الإنسان الخاصة والشعب والأمة عامة من خلال وظيفته لا نجد له أثرا مباشرا لعدم التزام شروط أداء وظيفته، في الوقت الذي يؤكد الوحي أن للاستغفار وظيفة بل وظائف: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾[2]. والذي ربما فهم من هذه الآية ومثيلاتها أن الاستغفار ألفاظ تردد وأقوال تقال، وإذا كان الأمر كذلك فما غاية الحديث عن حقائق كبرى ولاسيما في حياة المسلم كالاستغفار ومثله.

ومن هنا يبدو أن فهم الاستغفار صار فهما ناقصا أو غير صحيح، الأمر الذي عزز ضرورة دخوله دائرة منطق السنن العادية ليستقيم فهمه وإن كان

١- سورة نوح، الآيات ١٠....١٣.

٢- سورة نوح، الآيات ١٠....١٣.

ضمن دائرة منطق السنن الخارقة فإن له القابلية ليكون ضمن دائرة منطق السنن العادية فيخرج من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ليؤدي دوره في الاستنهاض الحضاري من خلال مفرداته السياسية والاقتصادية وغيرها، ولعل من سمات فهم الاستغفار فهما صحيحا توافر نية العمل والإصرار من خلالها على التراجع عن الخطأ والتزام الصواب، وحينئذ يظهر أثر الاستغفار في سلوك الإنسان وعمله.

- **التوكل**: والذي أكثر ما يأتي ذكره مقرونا بالتواكل، وأوضح ما بينهما من فروق هو أن التوكل معتمد سلوكه على الأخذ بالأسباب وتحمل المسؤولية الشخصية من سالكه، أما التواكل مفوض أمره إلى الله وقد أمر رسول الله ﷺ بسلوك التوكل وترك التواكل، فيما ورد في قوله ﷺ:«اعقلها وتوكل»[١] وإن كانت المناسبة خاصة فإن حكمة التوجيه عامة.

- **التوكل بين التواكل والأخذ بالأسباب**: لقد ترادف في تصور كثير من الناس معنى التوكل والتواكل، وحلّ أحدهما محل الآخر فصار يعتمد التواكل ويؤخذ به بدلا من التوكل، وينتظر أن يؤدي التواكل وظيفة التوكل فلم يؤدها فأشكل الأمر على كثير من الناس وغمّ عليهم ذلك .

إن التواكل الذي ساد أفهام أقوام كثيرين في الأمة الإسلامية دهرا قد أوهمهم بأن التوكل غير مقبول في منطق دائرة السنن، فلم يُؤَشر له بدخولها لعدم أخذه بالأسباب واكتفى بإحالة أمره إلى عالم الغيب، فاستقر هناك ضمن دائرة السنن الخارقة وإن كان للسنن الخارقة هي الأخرى منطقها، بينما من صفات التوكل الأخذ بالأسباب وهو أهم ما يتميز به عن التواكل شقيقه في اللفظ وربما خصمه في الأداء والغاية، فكان شكله مثله بينما اختلف عنه في المضمون بالمطلق، فالتواكل مشلول جامد والتوكل متحرك ذو فعالية شديدة.

١- رواه الترمذي.

الفصل السابع

مفهوم التداول بين مرادفاته

- **مفهوم التداول**: إن التداول نقطة تماس بين حدين، ومنطقة عبور بين ضفتين، وملتقى لقاء قوتي حضارتين، إحداهما تنهار وتتراجع إلى الوراء، وكأنها تنسحب من الحياة وفق مصطلح السقوط الحضاري ولها سنن كثيرة درست في مجالاتها. أما الحضارة الأخرى، فهي البادئة في النهوض، الزائدة في النمو والازدهار، ولها سنن تسمى سنن قيام الحضارات، وهي حضارة أو حضارات تستعد لأداء وظيفتها من خلال جملة سنن تجري على مستوى حياة البشر عامة أو على أحد مستوياته من منطلق أحد مجالات الحضارة التربوية أو الفكرية أو الأدبية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية وغيرها، هذه الحضارة قد تكون ولدت أول مرة في التاريخ أو تولّدت للمرة الثانية أو الثالثة بمعنى تجددت، والتجدد الحضاري هو الآخر له سننه، وعلى كل فإن الذي يقصده هذا البحث، ويراد الوصول إليه في خضم زخم السنن وتزاحم موضوعاتها هو معرفة سنن التداول، ولاسيما قراءة المستقبل من خلالها.

ولذا فإن تتبع سنن التداول في منطقة البرزخ والأعراف، وهي منطقة اللقاء من أجل الافتراق أو الالتحام لأن التداول الحضاري هو ما بين سقوط حضارة أو حضارات وقيام أخرى. إن منطقة التداول منطقة لقاء تستلم فيه أمة أو شعب حضارة في عمومها أو في أحد مفرداتها وأجزائها عن الأمة أو الشعب الآخر الآيلة حضارته إلى الانهيار، وكأنها تستقيل من الحياة أو تتقاعد إلى الأبد، فتتحول إلى مقبرة التاريخ وإلى الأرشيف الإداري وإلى متحف الآثار، أو قد تستأنف نشاط وظيفتها مرة أخرى وكأنها توقفت توقف استراحة محارب لتلتقي مع الحضارة الأخرى في حالة أيلوله إلى السقوط.

وهذا معنى التداول الذي مثله كمثل تداول الأيام بين الناس في حالة إدبار وإقبال، فهو وقفة إعلان عن استقالة واستئناف أو وفاة وميلاد، ولاشك أن

المصطلحات الأربعة تحكم معانيها ودلالاتها سنن قد تسمى سنن استقالة الحضارة أو استئنافها أو وفاتها أو ميلادها في المجالات التربوية أو الفكرية أو الاجتماعية أو السياسية أو العسكرية وإن بقي أفراد الحضارة في حالة وفاتها أحياء، ولكن يستبدلون بآخرين حين توليهم[1] عن الأداء الحضاري.

ويستطيع الباحث تتبع سنن قيام الحضارات وسقوطها وتداولها من خلال دلالة هذه المصطلحات وغيرها، وقد يستطيع حصر أهمها وضبطها في قوائم، وهذا ما ينبغي أن يعتمد في بحث سنن استحداث مشروعات النهضة، وبرمجة قيام الحضارات بالتزام سننها، وقد شاء الله أن يبث السنن في الوجود، ويزرعها في مناكب الحياة وحقولها في تقابل وتضاد، حتى تنشط سنن إبداع الإنسان الحضاري والاجتهاد الفكري والعلمي في اكتشاف سنن الحضارات، سيما وأن سنن الحضارات يكررها التاريخ بمعنى يداولها باستمرار في حقول الحضارة المعرفية الفكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية وغيرها، وإن كنت أرى أن دراسة سنن تداول الحضارة مازالت في بداياتها الأولى، ولم تدخل منطقة الاهتمام بقدر كاف لعدم وعي السنن عامة وسنن التداول بخاصة .

فالانهيار يشبه الاسقالة من العمل أو التقاعد منه، حيث تظل حضارة الأمة أو الشعب الذي كان يقودها ويدير شؤونها وقتا قد يطول، ولكن بالضرورة تصير الحضارة ومن خلالها أمتها أو شعبها إلى ما صار إليه الذين سبقوه حين تحكّمت فيهم سنن مآل السقوط الحضاري فأصبحوا لا يؤدون دورا مؤثرا إيجابيا في مجريات الحياة ولا يصنعون حدثا ولا يقرون قرارا، وهنا تكون قد تهيأت جاهزية الأمة أو الشعب الآخر وكأنه كان في انتظار التكفل بوظيفة الحضارة الناشئة ليأخذ بيد الإنسانية من خلال برنامج مشروعه الحضاري الجديد العام، والذي هو الآخر لا يعلن له عن

١- ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ سورة محمد، الآية ٣٨ .

شهادة ميلاد ولا يأخذ الاعتراف به إلا بعد حين قد يطول حتى تستكمل الأمة الجديدة شروط نهضتها ومبررات استلامها في مجال ما من الحضارة أو جملة مجالات فيما يسمى بمفردات الحضارة.

وأفضل من عبّر عن هذا قول الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[1] فطرفا المعادلة إيتاء وانتزاع، وفي الإيتاء فرح وفي الانتزاع قرح والفعل منسوب إلى الله جلّ جلاله مالك الملك، وهذا معنى من معاني مفهوم التداول وإن لم يذكر لفظه فقد ناب عنه معناه المبثوث في روح الآيات .

- **مستويات التداول ومجالاته:** التداول هو تحول شيء من مكان إلى مكان ومن وضع إلى آخر أفضل منه أو دونه، وتداول القوم الشيء بينهم إذا صار من بعضهم إلى بعض[2]، وفي العصر الحديث صار مصطلح التداول من مصطلحات الحضارة بعدما استخدم في القرآن الكريم في مجال المال في اشتقاق قريب منه[3]، وقد اشتق المصطلح من لفظ «داول» بمعنى تبدل وتقلب من حال إلى حال آخر آل إليه من بين ضدين، كأن يكون من السيئ إلى الحسن إلى الأحسن وفي الاتجاه الآخر من الحسن إلى السيئ، حتى داخل دائرة الشيء الواحد، مثلما هي تجربة تاريخ التداول الحضاري الإسلامي الذاتي بين جملة من عواصمه ولو عاصر بعضها البعض الآخر كالذي بين دمشق والأندلس ثم بغداد ثم تيه بين عواصم الدويلات ولكن في الإطار الإسلامي ثم اسطنبول ثم تيه آخر لم تجمع أشتاته بعد.

- **مستوى التداول العام:** استخدم لفظ التداول في النص القرآني بمعنى

١- سورة آل عمران، الآية ٢٦ .

٢-أبو الحسين أحمد بن فارس : معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، مادة "د . و . ل" .

٣-﴿ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ ﴾ سورة الحشر، جزء من الآية ٧ .

أن يستبدل الله بمقتضى سننه في الوجود قوما بقوم آخرين ليسوا أمثالهم في الأهلية الحضارية التي تبوئ أصحابها مواقع في التاريخ، وفي هذا وردت آيات كثيرة سنعرض بعضها، وإذا كان مصطلح التداول لم يتردد في الكتابات العربية إلا بمعنى الدولة، فإنه عرف في كتابات المحدثين شيئا من الاهتمام، ولاسيما حينما استعمل في ألفاظ المعارضة السياسية التي طالبت بتحقيق مبدأ التداول على السلطة والحكم.

ولعل من هنا بدأ يتكوّن الاهتمام بمصطلح التداول من حيثيات كثيرة، ذهبت تدرس مفهوماته ودلالاته ومرادفاته وفوائده، فجاءت هذه الدراسة إسهاما في ميدانها لتدرس التداول على المستوى الحضاري بين الأمم، فكاد يستقر مفهوم التداول في آخر مرحلة من نضج مفهومه على أنه يمثل المرحلة الانتقالية بين حضارتين، إحداهما تنهار بفعل سنن السقوط الحضاري والأخرى تنهض بمقتضى سنن قيام الحضارات، فالأولى إلى انسحاب و انزواء لتندثر فتصبح جزءا ميتا جوار المئات من مثيلاتها من الحضارات وأفكارها. أما الأخرى فتتقدم إلى ساحة الوجود الفعلي والأثر الإبداعي لتستخلف غيرها، فتأخذ مقعدها في مسار التاريخ على صهوة مجده إلى حين تتهيأ أمة أخرى أو شعب آخر، قد يكون جديدا وليدا أول مرة في التاريخ، وقد تكون حضارة قديمة تتجدد وفق سنن التجدد.

ويتضح من هذا أن الحضارات لا تموت كلها وتندثر إلى الأبد جميعها لتبدأ حضارة أخرى ناشئة من الصفر، وإنما تقتضي السنن أن تأخذ الناهضة خير ما أحيى الهالكة، كالذي حدث بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية المعاصرة حيث بدأت الثانية من بعض ما انتهت إليه الأولى، ولو أنكر الجاحدون هذه الحقيقة وادعوا أنهم ما أفادوا من الحضارة العربية الإسلامية وإنما استفادوا من حضارة اليونان قبلها، فذهبوا يلقنون تلاميذهم الفكر اليوناني وحضارته على أنه معجزة إنسانية ونموذجها الذي ينبغي الاقتداء به والاهتداء إليه لأنه أفضل ما أنجبت

البشرية وأبدع عقلها، وهذا خروج عن سنن مسار التاريخ، ونزع حلقة من حلقاته الكبرى، والتي تحس بها مناهج تفسير التاريخ، حيث وجود حلقة مفقودة وهي يد مرحلة التداول بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية المعاصرة بمقتضى سنة السند الحضاري التاريخية التي هي واحدة من سنن التداول.

ولعل من مشكلات الحضارة الوليدة أن تنشأ على شيء من العداء للحضارة السابقة المنهارة، وهو ما يفهم من آيات تحمل معاني التداول: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾[1] ولفظ «تنزع» في الآية يحسّ بشيء من الألم، وذلك: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾[2] في الإيحاء بالألم في لفظ «قرح» والفاعل ضمير المتكلم العائد على اللّٰه عز وجل، ولأمر هام وشاق على النفس كأن الفعل من اللّٰه ولكنها أحكام القدر وصرامة السنن، ولعل هذا الاستنتاج ودلالته فيهما ما يبرهن على محاولة تبرير سنة العداء بين حضارتي التداول، وخاصة الإيحاء في آية التداول «وتلك الأيام نداولها بين الناس»، وهي أكثر الآيات حمولة لمعنى التداول وسننه التي يقصد البحث تجليتها في ضوء سبب نزول الآية، وفي عموم ألفاظها، ثم يتوسع في المعنى العام للتداول الحضاري وما له من سنن تعدّ هذه الآية فكرته المركزية وحقيقته المحورية الكبرى.

فالآية وإن نزلت في أسباب خاصة في أعقاب غزوة أحد، فإنها حديث مفكري الحضارة الإسلامية حين يطرقون سنن التداول والتبادل الحضاري بين الأمم والشعوب فيجدونها محور حديثهم في التداول، وإن جاء أكثره مقتضبا وموجزا مثله كمثل أقوال المفسرين في السنن، ولعل سبب هذا هو أن ظروف العصور الحضارية لم تكن قد ألقت أنوارها على موضوع التداول

١- سورة آر عمران، الآية ٢٦.

٢- سورة آل عمران، الآية ١٤٠.

الحضاري واحداً من أكبر موضوعات الحضارة وأحداث التاريخ.

- **آية التداول وبعض أخواتها**: لقد استخرجت آيات كثيرة من القرآن الكريم صارت عناوين بحوث وربما قد تصبح يوما عناوين علوم بعدما استحقت أن تفرد لها دراسات خاصة، تقصدها قصدا مباشرا، لتجلي أبعادها اللغوية والإيمانية الفكرية والعلمية في ظلال تطور العصر العام وازدهاره الحضاري، ولذا ليست آية التداول فريدة في موضوعها في القرآن الكريم التي مرّ عليها المفسرون مرورا عابرا إلى غيرها، ولم تستوقفهم بقدر وافر، وإنما هناك آيات كثيرة مثل آيات الوعد والتمكين والاصطفاء والاستخلاف والتغيير التي ظلت تحتفظ بمعانيها منذ نزلت إلى أن كان العصر الحديث، فأسهمت معطياته الإبداعية واكتشافاته المعرفية في توضيح بعض مما ظلت تكتمه هذه الآيات وأخرى مثلها ولم تفصح عنه إلا حين أفردت لها دراسات متخصصة.

ولذا تبدو لأفكار الطرح الحضاري الجديد نكهة تؤهل المفكرين لاكتشافها أكثر مما تؤهل المفسرين، ولعل تجربة اكتشاف السنن دليل، حيث عرفها المفكرون، وفي مقدمتهم ابن خلدون ثم مالك بن نبي في العصر الحديث أكثر مما عرفها المفسرون، إذا استثني صاحب المنار وسيد قطب من خلفه، وكان يفترض أن يكون حظ المفسر في اكتشاف مثل هذه النظريات أوفر من حظ المفكر الكاتب لأنهم أكثر من تعامل مع القرآن.

- **مستويات التداول**: ليس التداول وحدة واحدة وإنما أجزاء وإجراءات، ولذا حين النظر في التاريخ يعرف أن أمما كثيرة تربعت على عرش الحضارة حينا من الدهر، وقد سلمت كل أمة سابقة للاحقتها مشعل الحضارة بمقتضى سنن عملت على مستويات أساس منها سنن قيام الحضارة وسنن سقوطها، وسنن تداولها بين أمة وأخرى أو شعب آخر، بل حتى بين عائلة وأخرى، وفرد وآخر، مثلما هي تجربة التداول الحضاري في القرآن الكريم

من خلال الوحي بين بني إسرائيل والعرب، بعد أن كان الناس أمة واحدة، ثم تداولت النبوة داخل بني إسرائيل وداخل العرب، حيث توالت أمم وشعوب وأفراد على صهوة شرف النبوة، ولذا فالقرآن الكريم أكبر مصادر التجربة البشرية المعرفية، وأوسع حقول دراسة سنن الحضارة من حيث انحراف الأمم، وعثرات التحضر التي حالت دون المزيد من السمو الحضاري.

ولعله من هنا لم تكن للسنن حتمية تاريخية، ولا قانون جبري في قيام الحضارات ولا في سقوطها ولا في تداولها، بدليل تفاوت أعمار الحضارات في الحياة ومستويات الإبداع، فبإمكان كل حضارة أن تعمر ما تشاء إن التزمت سنن الديمومة، واستمرت في التقدم والازدهار. ولعل هذا ما يبدو وراء الحكمة الربانية من الحث القرآني على الاعتبار بأخبار الأمم الخالية، وكيف سادت ثم بادت؟ وكيف استبدل بعضها ببعض، واستخلفت أمة أخرى؟ هذا إلى جوار أخبار الحضارات خارج دائرة النص القرآني، مما احتفظت به الذاكرة البشرية وبقايا الآثار،ومما يمكن أن يُستقرأ من الآثار والبقايا التاريخية من نقوش الأولين. وهو ما يدفع إلى محاولة استقراء التاريخ، وتلمس سنن الحضارة في مناكبه الواسعة، وبخاصة من خلال تاريخ الأمم القديمة، حيث مازالت تتنازع التاريخ قوتان منذ أمد إحداهما أقوى من الأخرى وأفضل، وكأن الأمة الواحدة غير قادرة على إدارة الحياة البشرية بمفردها وبمعزل عن الآخرين، أو كأن الأمة ذات المنزلة الثانية والثالثة في سلم التحضر تتأهب من خلال السنن في موقعها النيابي إلى الاستخلاف والاستبدال عن سابقتها، لأن السنن التي تحكم حركة التاريخ الحديث هي ذاتها التي حكمته من قبل.

وهذا مما دفع مفكري العصر إلى جعل التعبير الحديث يصنف مستويات الأمم والحضارات المعاصرة إلى أصناف ثلاثة، فيما يعرف بالعالم الأول والعالم الثاني والعالم الثالث الذي أضيف إليه مصطلح الأمم أو الشعوب

النامية أو السائرة في طريق النمو، وكأنها غير قادرة على النمو والسير بمفردها بمعزل عن الآخرين، وإنما بالضرورة أن تتكئ على غيرها ولو إلى أجل يستغرق فترة ينمو من خلالها العالم الثالث ليكون الثاني وقد يكون الأول يوما ما أثرا بعد عين، أو تنمو أمة من أممه أو شعب من شعوبه فيحدث التداول الذاتي الذي تشتغل آلياته هو الآخر على مستواها وتتأهب للمستوى العام.

وهذا ما يجعل التداول الحضاري إلى أمم العالم الثالث المعاصر أو إلى أحد شعوبها ضمن دائرة الممكن بشرط التزام سنن التحضر وهو ما ينبغي معرفته من خلال السنن التاريخية التي رفعت أمما وشعوبا كانت في آخر قافلة الركب الحضاري، والتي حطت شعوبا وأمما أخرى كانت في مقدمة قطار حركة التاريخ ذاتها، فليس حتما أن يكتب على أمة من الأمم أو شعب من الشعوب البقاء الدائم في مؤخرة الحضارة وأخرى في مقدمتها، وإنما هي السنن، ومنها سنن التداول الحضاري القديمة قدم الوجود والباقية بقاء الحياة من غير تبدل ولا تحوّل.

- **من تجارب تداول القوى**: لقد عرف التاريخ تجارب تداول قوى كثيرة بمقتضى سنن التداول، حتى كان مصطلح الدولة والدول والدويلات، ومن ضرورة سبل توضيح هذه الظاهرة الإشارة إلى قراءة سريعة لقريب التاريخ وبعيده، والتي تظهر كيف تنازعت قوتان وأكثر الحضارة فيما بينها في أسلوب من الازدواجية أو الثنائية المضادة، يترنح بينها وجود بشري ثالث يميل مرة إلى اليمين وأخرى إلى اليسار في وضع غير حضاري، وهو ما صار يعرف في العصر الحديث العالم الثالث، وهو وجود مستهلك غير منتج بقدر كاف تكمن فيه كثير مما يمكن اعتماده منهجا تلتمس من خلاله سنن التحضر قد يؤول إليه التداول الحضاري يوما ما، فيستبدل الموقعان الحضاريان بين أمة وأخرى أو شعب وآخر، فإذا نزل أحدهما صعد الآخر من خلال ارتقاء مستواه

الحضاري ونموه مرورا بالدرجة الوسطى أي العالم الثاني هبوطا وصعودا.

وهذا ما يفقه من سنن تداول التاريخ العام الذي احتفظ بقائمة أسماء أمم جرت عليها إجراءات السنن كالفرس الأمة المجوس الغارقة في التعفن العقائدي تعفن أفكار مازدك وسواه[1]، والروم بالقوة القانونية والعسكرية التي هيمنت على جزء واسع من خريطة العالم، ولكنها فقدت قيم العدل والحق والحياة الروحية،وانغمست في اللهو والظلم فجرت عليها سنن السقوط الحضاري، فآلت إلى ما آلت إليه، ثم خرجت الأمة الإسلامية من بينهما بعدما كانت شعوبا وقبائل، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، الوظيفة التي لم يؤدها الفرس والروم. وقل مثل ذلك في العصر الحديث مع الاستعمار الفرنسي والإنجليزي، ثم صعود القوة الإيديولوجية للاتحاد السوفيتي وهبوطها وهيمنة الحضارة الغربية الأمريكية.

- **التداول من خلال السنن**: لقد شاء القدر أن تجري سنن التداول بين مفردات المادة والروح والمبنى والمعنى، فكانت الحياة بين يدي أنواع السنن كلها الحتمية والجبرية العادية والجارية وحتى السنن الخارقة، حيث وظفت كلها في أداء ما أوكل لها في الوجود، فكان التداول من وظيفة كل منها.

- **تداول الكون**: منذ الأزل مازالت تتناوب مفردات الوجود سنن حتمية تكتشف من خلالها السنن الجبرية كالذي يحدث بين الشمس والقمر، والليل والنهار والفصول الأربعة على مدار السنة، فيما عبّر عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ

١- عبد اللطيف سلطاني: المزدكية هي أصل الاشتراكية، ط١، دار الكتاب، الدار البيضاء،المغرب، ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م.

ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[1].

تتضمن هذه الآيات القرآنية آيات كونية كسلخ الليل من النهار، وجري الشمس لمستقر لها أي في مدارها إلى جوار كواكب أخرى، وسنن منازل تدرج القمر منذ نشأته إلى أن يبلغ أعلى منازله، إلى أن يصير كالعرجون القديم في اضمحلاله. وإلى جوار هذا فإن من أبلغ ما تتضمنه هذه الآيات سنن تعقب الشمس القمر وتعقب القمر لها وعدم إدراك كل منهما الآخر، وهو دليل تناسق ودقة جري السنن الكونية، حيث لا تعارض ولا تصادم بينها بل انسجام مجالات عملها الكبرى والصغرى وتناسق بينها، مثل التعاقب الدقيق بين الليل والنهار: وهما آيتان تتعاقبان لفائدة الإنسان ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴾[2]، ويمكن للإنسان أن يصل من خلال دراسة سنن التعاقب أو التداول إلى فوائد كثيرة، قد تكون هي غايات حكمة التعاقب بين الليل والنهار اللذين كثر الحديث عنهما في القرآن الكريم كما في في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾[3].

وتبدو دلالة القسم في الآية عظيمة، حيث أن الله لا يقسم إلا لأمر عظيم، كالذي فهمه الأعرابي من قوله تعالى: فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ [4] حين سمع هذه الآية فقال من أغضب الجبار حتى أقسم.

ويتواصل الحديث في القرآن الكريم عن الليل والنهار في آيات كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ

١- سورة يس، الآيات ٣٧-٤٠ .

٢- سورة النبأ، الآية ١٠-١١ .

٣ - سورة الليل، الآية ١ - ٢ .

٤- سورة الذاريات، الآية ٢٣ .

خَبِيرٌ ﴾[1]، ويمكن أن ينتهي الدارس من خلال هذا إلى حقائق إيمانية وعلمية قد يستطيع إجمالها في أن الله هو المبدع الذي أتقن خلق كل شيء، ونظم سيره وفق سنن ثابتة لا يحيد عنها وإن حاد اختل نظام الكون، ثم إن هذا النظام يجري وفق مقاييس علمية دقيقة يعجز الإنسان عن الوصول إليها، وإن مثل الذي يجري في عالم الأشياء كالذي يجري في عالم الأفكار.

- **تداول النفس**: وهو ما يتناوب على النفس البشرية من تقلبات، وما يعتريها من أحوال، فمن سنن الله ألا يعيش الإنسان على حال واحد ولكن يتقلب كل حين بين فرح وقرح، وسرور وغضب، وقلق واطمئنان، وصحة وسقم، وقد ذكرت بعض هذه التقلبات في القرآن الكريم كامتحانات عبّرت عما يعتري النفس البشرية ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[2]

وفي هذا المجال، تبدو معاني الحسنات والسيئات أوسع مما استقر عليه تصور الإنسان في بعض مراحل التخلف الحضاري، حيث الحسنة تشمل كل حسن في الخلق والسلوك، والسيئة تشمل كل ما يسوء الإنسان في نفسه وفيمن حوله، ولذلك فمرادفات لفظي الحسنة والسيئة التي أوردها المفسرون للبيان والشرح تعتريها صفة الشمول والعموم، وحين العودة إلى كتب التفسير ذات الاهتمام اللغوي نجد أن معنى الحسنة والسيئة هو النعمة والنقمة[3] وليستا فريدتين في النص القرآني لعدم انفرادهما في الواقع وإنما مثيلاتهما كثيرة: ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[4].

١- سورة لقمان، الآية ٢٩ .

٢- سورة الأعراف، الآية ١٦٨ .

٣-الإمام الزمخشري : تفسير الكشاف، ج٢، ص١٤٤ .

٤- سورة الأعراف، الآية ٩٤ . ٩٥ .

إن هذا النص القرآني يفصح عن تبدل أحوال الإنسان فردا وجماعة وأقواما وأمما، حيث أَخْذُ السيئة والحسنة وأخذ السراء والضراء ليعيش بين الشدة والرخاء، والمرض والصحة، والفقر والغنى «حتى عفوا» بمعنى كثرت أموالهم[1]، فدخلوا بمقتضى سنن ما يشبه التقدم الحضاري من خلال ازدهار اقتصادي. وإلى جانب هذا، فإن السنة الجارية نفسها جرت في الذين سبقوا من الآباء، حتى قال قائلهم لمعرفته التاريخية ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾[2]، وهو ما يعني أن التداول سنة جارية منذ كان الوجود، ولذا قد يطول سرد آيات هذا الموضوع، وكأن هذه الآيات تكرر ذاتها عبر مسار التاريخ ذاته لتوكيد حقيقة سنن التداول النفسي والاجتماعي وغيره مما يمس تقلبات حياة الإنسان وتحولاته من خلال مفردة من مفردات الحضارة كالنفس والاقتصاد والسياسة، ولذا يستقبح الإنسان الشيء نفسه مرة ويستحسنه أخرى وإن لم تتحوّل الظروف وتتغير الأحوال، أما حين تتغير الظروف فإنه من المنطق أن يتغير ما بها، فيتداعى على مجالات الحياة الأخرى وعطاءاتها ونشاطاتها في كل شيء.. في الاجتماع والثقافة والسياسة وغيرها.

- **تداول السياسة**: هو أوضح مجالات التداول في الحياة المعاصرة، له قوانينه وسننه الجارية على لسان الإعلام والسياسة، لعل من أبرزها الاقتراع أو الانتخاب، ثم إن التداول السياسي أكثر حدوثا في العالم، وبخاصة لدى الدول المتقدمة التي يجدد فيها هرم السلطة ومسؤولياتها كل أربع أو خمس سنوات، فيستخلف اللاحق السابق في ديمومة واستمرارية بين طرفين أو أكثر على مستوى الهيئات والمنظمات والأحزاب في تنافس شديد بينها عسى أن يأتي أي منها بالأفضل.

١-عمر أحمد عمر : السنن الإلهية في النفس البشرية، ط١، دار حسان، دمشق، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م، ص١٠٠ .

٢- سورة الأعراف، الآية ٩٥ .

ولذا كان التداول السياسي أقرب إلى التداول الحضاري بل يجري أكثره من خلاله، لأن الحياة الحضارية بكل مكوناتها الاقتصادية والاجتماعية والفكرية تكاد تقاد من خلال العمل السياسي أكثر من غيره، ولأن جوهر سنن القيادة الحضارية سنن القيادة السياسة، أي حين إدارة شؤون الملك بمؤهلاتها التي أشار إليها القرآن الكريم قصصا وعبراعن أفراد وأمم تاريخية، وهو ما يمكن أن نستخرج منه سنن التداول السياسي، كالذي في سنن استخلاف آدم عليه السلام في الأرض في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[١].

فحين شاء الله أن يجعل آدم عليه السلام خليفة في الأرض قال ذلك للملائكة «إني أعلم ما لا تعلمون وعلّم آدم الأسماء كلها»، إذاً من خلال العلم دال أمر الخلافة إلى آدم عليه السلام وإن احتجّت الملائكة، وكأنها رأت أن آدم لا تتوافر لديه سنن الاستخلاف وشروط الخلافة، بل فيه عكسها وهي الفساد في الأرض وسفك الدماء، فعلّم الله آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فرضيت وقبلت آدم خليفة في الأرض لتوافر شرط الخلافة وهو العلم.

ومن هنا كان العلم أساس سنن الاستخلاف، وشرط أصلي في التداول السياسي الحضاري، يضاف إلى ذلك أن العلم طريق إلى تداول الملك السياسي، وهذا ما يستخرج من قصة طالوت، حين بعثه الله ملكا على بني إسرائيل، فاحتج الإسرائيليون ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا

١- سورة البقرة، الآيات ٣٠-٣٢.

﴿وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ﴾[1]، فظنوا أن من سنن القيادة والملك سعة المال أي الغنى، فبيّن الله أن سنن الملك وقيادته له شروط أخرى، ومنها الاصطفاء إلى جانب بسطة العلم والجسم في إطار المشيئة الربانية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾[2].

فيستخرج من الآية سنن التداول الحضاري من خلال تداول العمل السياسي وهي ثلاث في الآية الاصطفاء والزيادة في العلم والزيادة في الجسم، والعلم أساس السنن في التداول الحضاري العام، وفي كل مستوياته الجزئية، فكل الحضارات التي عبرت التاريخ كان منشؤها الأم العلم، والعلم أساس العدل، والعدل أساس الملك، لما جاء في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾[3]، ثم تتبع هذه السنة سنن أخرى في التداول الحضاري، كبسطة الجسم المقررة في الآية، ولعل القصد منها هو القدرة على تحمل الشدائد، وأداء الواجب رهبة للآخرين، وينتهى إلى أن التداول السياسي هو أوضح مستويات التداول الحضاري، حيث إبدال طاقم سياسي بآخر، وذهاب حكومة ومجيء أخرى، حتى كأن مصطلح الدولة اشتق من التداول لكثرة استعماله في المجال السياسي.

- **تداول الاقتصاد**: يبدأ تداول الاقتصاد من الفرد، حيث يتناوب عليه الغنى والفقر إلى جانب ما يتناوب عليه من الناحية النفسية كالفرح والقرح والناحية الاجتماعية كالشقاء والسعادة، والأصل أن يكون الإنسان غنيا غنى غير طاغ، ولذا حورب الفقر[4] من يوم فرض الشرع الإسلامي

١- سورة البقرة، الآية ٢٤٧ .

٢- سورة البقرة، الآية ٢٤٥ .

٣- سورة آل عمران، الآية ١٨ .

٤- يوسف القرضاوي: مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام.، ط٦، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

الزكاة، وهي حق معلوم في مال الغني للسائل والمحروم، مثلما حاربت الروح الإسلامية الشقاء، لأن الأصل في حياة الإنسان السعادة[1]، ولكن ظل هذا التناوب على الإنسان قائما لأنه سنة من سنن التداول الاقتصادي والمالي بين الغني والفقير، ومثله بين الفرح والقرح والسعادة والشقاء ولو تفاوت في فترات من الزمان بين كل مرحلة وأخرى تفاوتا في العدد والكم بين الغني والفقير والسعيد والشقي، ثمّ إنه قد أودِعَ في الإسلام ما به يتحقق الفرح وإلى جانبه السعادة في الحياة الاجتماعية ومثله الغنى، حتى كأن هذه الحالات ونظيراتها مما يعززها اعتبرت من أسباب سنن قيام الحضارات وازدهارها، مثلما اعتبرت أضدادها كالفقر والقرح والشقاء من أسباب سقوط الحضارات ومآلات انهيارها، ولذا نهى الإسلام عن احتكار المال بين أفراد دون آخرين، لئلا يظل يدور بين فئات دون أخرى، فكان محور التداول الاقتصادي من خلال القرآن الكريم: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡ﴾[2].

فمفتاح فهم هذه الآية إدراك معنى الفيء[3] واحدا من الأسباب الكبرى التي تجعل المال دولا بين الأغنياء دون الفقراء، ومع أن الآية نزلت في غزوة بني النظير تحدد أصناف الفيء، فإن معناها يبقى سائر المفعول فيما يستقبل من الحياة، لأن حرف التعليل «كي» يعلل التقسيم الذي قد يكون في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، فهو تعليل مطلق غير مقيد بزمان، وضمير يكون يعود على ما أفاء الله تعالى على الأصناف المذكورة في الآية[4]، أي كي لا يكون الفيء «دولة» بضم الدال وفتحها في قراءة أخرى، والمعنى في

١- ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ سورة طه، الآية: ٠١ -٠٢ .

٢- سورة الحشر، الآية ٠٧ .

٣- شهاب الدين محمود الألوسي : روح المعاني في تفسير القرآن الكريم، ج٢٨، م١٤، ص٤٩

٤- وهي الله والرسول وذو القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل.

الحالات كلها هو ما يدول، أي ما يدور على الإنسان من الغنى والغلبة على مستوى دائرة الأغنياء، يتكاثر بينهم، ويستأثرون به دون سواهم فيذهب أهل الدثور بالأجور أفضل ما في الحياة الدنيا والآخرة، فلا يصيب الفقراء من الأفراد أو الشعوب أو الأمم[1] غنى، كما هو شأن اقتصاد قوى الحضارة الأخرى في العصر الحديث بين الدول الصناعية أو ما يعرف بكبار العالم، ولا شك أن حدوث التداول الاقتصادي بين أغنياء العالم في هذا العصر دون أن يمس الغنى غيرهم هو خروج عن سنن التداول التي حددها التشريع الاقتصادي الإسلامي، فوضع من خلال توزيع الفيء قاعدة كبرى من قواعد التنظيم الاقتصادي.

إن قاعدة «كي لا يكون المال دولة بين الأغنياء» تنتهي إلى أن الزكاة فرضت كي لا يكون المال دولة بين الأغنياء، والغنيمة فرضت ووزعت في الشرع الإسلامي بالطريقة المعروفة كي لا يكون المال دولة بين الأغنياء، وكذلك الفيء الذي تقرر من خلاله هذه القاعدة كان كذلك «كي لا يكون المال دولة بين الأغنياء»[2] ومثله الاحتكار والكنز والادخار، وكل قواعد ما يدخل في إطار كي لا يكون المال دولة بين الأغنياء فيدور بينهم من دون الفقراء لتحقق العدالة الاقتصادية، والتوازن الاجتماعي بين الأغنياء والفقراء، وبين الحقوق والواجبات، فيحدث التناسق ولا يبقى الاقتصاد حكرا على فئة دون أخرى أو أفراد دون سواهم، بل يجري الاقتصاد وفق سنن التداول، فلا يكتب الغنى للغني طول حياته، مثلما لا يكتب الفقر على الفقير مدى حياته، فالتداول سنة تجري على الكل.

ولاشك أن وراء سنن التداول حكما ومقاصد، لعل منها ما يمكن أن يفهم من قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾[3]، فإن حكمة العدالة

١- شهاب الدين محمود الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن الكريم، ج٢٨، م١٤، ص ٥٠ .

٢- سيد قطب: في ظلال القرآن، ج٦، ص٣٥٢٠ .

٣- سورة العلق، الآية ٦ . ٧.

الربانية تقتضي أن يمس الإنسان بشيء من الفقر والجوع والحاجة، كي لا يطغى، لأن للسنن الربانية في الوجود مقاصد تحدد من وراء تصرف الإنسان وسلوكياته حتى ولو استخدمت ألفاظ أخرى مرادفة لمصطلح التداول، فإنها تكاد تؤدي وظيفته ذاتها ودوره نفسه، حيث ليس مصطلح التداول فريدا من نوعه وفي انتمائه وإنما له مرادفاته، مثل الاستبدال في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾[1]، ومع أن السياق فقهي له أحكامه الشرعية إلا أنه سنن تحكم الاستبدال الزوجي بمنطق العقل والمصلحة الإنسانية وفق مقاصد الشرع الإسلامي وروحه .

وقد ورد الاستبدال في العديد من الآيات في مناسبات تفعيل القيم العقدية والاجتماعية، وستعمل في مواقع منها:

- **موقع الإنكار:** لعل أفضل مجالات استخدامه في الحياة العقائدية والاجتماعية معرض الحديث عن بني إسرائيل ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾[2]، حيث يجري الاستبدال في عالم الأشياء، أي الطعام الذي طالب بنو إسرائيل من الله استبداله كان من المن والسلوى وهو خير من البقل والقثاء والثوم والبصل والعدس أدنى[3] من الذي طلبوه، وهذه ردة في التفكير لها سننها يتمّ بمقتضاها الاستبدال مثلما في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[4]، وليست هذه الآية هي الأخرى يتيمة في موضوعها، وإنما لها سندات كثيرة تتكئ عليها، وتعزز

١- سورة النساء، الآية ٢٠ .

٢- سورة البقرة، الآية ٦١ .

٣- تفسير ابن عباس، ص١٠ .

٤- سورة المائدة، الآية ٥٤ .

موضوعاتها[١]، حيث الردة أو الارتداد سبب من أسباب سنن التداول التي يؤول المآل الحضاري من خلالها نحو السقوط .

- **موقع التحريض**: ورد مصطلح الاستبدال بما يرادف التداول في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢]، فالآية تضمنت تهديدا لمن نزلت فيهم، ولمن سلك طريقهم من بعدهم في كل زمان ومكان، وقد قررت سننا ستظل سارية المفعول في كل من يتثاقل عن الجهاد والتزام سنن النصر الذي لن يكون إلا على يد من تأهل له وأعدّ له عدته ووفر له شروطه، وإذا كانت الآية قد نزلت لأسباب في مناسبة معينة فإنها غير مقيدة بها، وإن ظلت مناسبتها مقررة في التاريخ، وهي تثاقل قبائل عربية عن الجهاد، حين خرج رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك[٣]، والقبائل التي قعدت عن هذه الغزوة كانت لها مبرراتها، وإن لم تكن لأعذار مشروعة مقررة أحكاما في الدين، وهي الأسباب التي أثقلتها، ومنها أن الغزوة كانت بعد عودة رسول الله ﷺ من المدينة بقليل، في وقت أينعت فيه الأشجار، وطابت الثمار، ولذّ مقام الظلال مع بُعْدُ الشُقة، وشدة الحر حيث اشتاقت النفس المجبولة على الراحة إلى قدر كاف منها[٤]، وهنا نزل تهديد هذه القبائل بالاستبدال الذي يعني هلاكهم، هلاك إبادة واستئصال، أو هلاك قوة ومعنى، ليحل محلهم قوم آخرون ليسوا على تثاقل، وقد وصفوا بالمغايرة «قوما غيركم»[٥]، والآية مثل غيرها سائرة المفعول في الأزمان والأماكن كلها.

١- محمد فؤاد عبد الباقي : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة «ر . د . د»

٢- سورة التوبة، الآية ٣٩ .

٣- تفسير ابن عباس، ١٥٨ .

٤- شمس الدين ابن عبد الله محمد أبو بكر المعروف بابن القيم الجوزية : زاد الميعاد في هدي خير العباد، ج٣، ص٥٠ .

٥- شهاب الدين محمود الألوسي: روح المعاني والسبع المثاني، م٥، ج١٠، ص٥٩٥ .

ومن أمر استبدال قوم بقوم يتواصل المستبدل به والمستبدل منه في الأرحام والأولاد، حيث يجري على المُسْتَبْدِلِينَ والمُسْتَبْدَلِينَ مثلما جرى على الأولين أسلافهم، وقد تتوسع دائرته حتى يجري على العرب جنس الإسلام الأول فيستبدلهم بآخرين، فيكون الآخرون هم الفرس أو الترك[1]، وكل من يتهيأ للجهاد ويأخذ بأسباب سنن النصر في كل حين، ومثلما: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[2] الأولى فكذلك هو أعلم حيث يجعل رسالته مرة أخرى وهو على كل شيء قدير، قادر على الاستبدال بالإهلاك والإتيان بآخرين مغايرين للأولين عن طريق سنن الاستبدال وهي تغيير الأسباب والعوامل المؤدية إلى كل حال[3] وقادر على الاستبدال من غير هلاك الأبدان وإنما بفتور أو انحراف أو قعود عن سنن التواصل الحضاري وأداء واجباته والتزام مقتضياته.

ومن سنن الاستبدال أنه يجري بين سلب وعطاء، فيكون السلب على من يخرج عن السنن، والعطاء لمن يأخذ بها، ومن ثمّ لم يكن تهديد الاستبدال قصرا على قبائل تثاقلت عن غزوة تبوك، وإنما سائر المفعول لكل من سلك سلوكها وارتكب أخطاءها، لأن التهديد قابل للعموم قد يستغرق آخرين بالصفة وتوافق الأسباب والشروط، وهذا هو معنى التولي العام عن الجهاد بفهومه العام وعن مثله من المبادئ والقيم الأخرى، والله لا يعجزه أن يذهب بقوم، ويأتي بآخرين مغايرين في الصفات والمواقف، مثلما يفهم من سياق الآية الذي مازال مربوطا بسبب نزولها، مع أنه أخذ صفة العموم، فبعد أن نزلت الآية بالأمر بالنفير في غزوة تبوك ضد الروم، فإن المعنى ليس محصورا بين العرب والروم، حيث توقف عند حدود زمان يومئذ وموقعه في الخريطة الجغرافية، وإنما ظل قائما على أساس الصفات في المواقف،

١ – السنن ومرتقب العالم الإسلامي مخطوط

٢ – سورة الأنعام، جزء من الآية ١٢٤.

٣– شهاب الدين محمود الألوسي : روح المعاني والسبع المثاني، م٥، ج١٠، ص٩٦ .

وليس على أساس الأشخاص والأقوام والأحداث ذاتها، والحادثة يومئذ هي درس تطبيقي في ميدان ما جرى بين العرب والروم الذين تجمعوا حول أطراف الجزيرة العربية من ناحية الشمال، فالروم يريدون أن تستمر فيهم قيادة البشرية وقد فقدوا مبرراتها، والعرب المسلمون يريدون أن تؤول إليهم، لما توفرت فيهم من سنن التمكين ثم الاستخلاف بعد أن فقدت في الروم وهم القوم المُستبدَلُون.

- **موقع الثبات:** من عناوين الاستبدال آية: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴾[1]، فمن خلال مفردات هذه الآية تتكشف جملة معاني منها أن الاستبدال يكون في أعقاب التولي بمعنى بعد التراجع عن أداء الواجب من الأفراد والشعوب والأمم، وفي تعبير القرآن الكريم الأقوام، وأن المستبدل به يكون على غير المستبدل منه، وليس مثله حيث يختلفان فالأول يتصف بالسلبية والثاني يتصف يالإيجابية.

وتستشف من الآية خمس مفردات أساس هي: التولي، والاستبدال، والقوم، والغير، والأمثال، وهي مفردات لها حمولتها اللغوية والفكرية من خلال الاستعمال المجرد والسياق الذي يفيد هنا معنى عاما، هو أن من سنن الله حين يرى قوما أو أقواما قد تراجعت ونكصت عن أعقابها في العمل الحضاري فإنه يستبدلهم بقوم آخرين أو أمة أخرى مخالفة للأولى في العمل والسلوك الحضاري وأداء الواجب، حيث يهلك الأولى هلاكا استئصاليا بدنيا أو معنويا روحيا، مثل قوم عاد الأولى: ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴾[2]، وجملة «فما أبقى» يبدو أنها تعني هلاك إبادة، ويأتي الله بقوم آخرين خير من الأولين، وقد تكون الخيرية مطلقة أو في جانب من جوانب الحضارة في مفردة من مفرداتها في الاقتصاد

١ - سورة محمد، الآية ٣٨ .

٢- سورة النجم، الآية ٥١ .

أو السياسة أو الإدارة والتسيير أو البرمجة والتخطيط، والذي يقصد أكثر هو أن المستبدل به يكون بالضرورة أفضل من المستبدل منه، ولا يكون على ما كان عليه، وإنما يأتي مخالفا له في أهلية الخير التي فقدتها الأولى التي قد تكون فردا أو أشعبا أو أمة وإن عبّر عنها القرآن الكريم بالقوم قبل أن يعرف مصطلح الشعب والأمة والدولة إلى آخر ما أطلق على التجمعات البشرية، ومثله المعبّر عنه في القدم الفئة أو الطائفة أو الملأ أو القرية.

هنا ويواصل العصر أو الدهر تفسير القرآن الكريم في ميادين الحياة كلها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية وغيرها حسب حاجة الإنسان، مثلما حمل لفظ التداول في المسألة الاقتصادية في قوله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾[1]، حيث أصبح الاحتكار من أكبر أسباب التضخم مهدد الاقتصاديات المحلية والعالمية، ذلك أن قدماء المفسرين لم يستطيعوا استيعاب حقائق القرآن من خلال معطيات عصورهم، ومثلهم معه كمثل الإنسان مع المعادن، وآبار البترول التي ظل يغدو عليها ويروح صباحا ومساءا ولم يكتشفها ليستثمرها في اقتصادياته وخدماته التكنولوجية الحضارية وسواها إلا يوم توافرت شروط اكتشافها ثم استخراجها واستعمالها وفق سنن التطور الحضاري.

ثم إن القدامى حين كانت تعجزهم آيات من القرآن الكريم يمرون عليها قائلين في تواضع بين يدي الله الله أعلم بمراده، وإذا كانت عبارة الله أعلم بمراده تعني الاعتراف بالعجز فإنها في جانبها الآخر تعني الزهد في الاجتهاد، الأمر الذي أدى إلى بطء تحرك آليات الإبداع العلمي وتواصلها في دفع الازدهار الحضاري واكتشاف آلياته، ثم هناك أمر آخر يشبه الانحراف أو الانزلاق عن خط منهج البحث العلمي، وهو حمل جزء هام من الحقيقة على أنها مجاز، والأصل في الحضارة أن تتبنى الحقيقة أكثر من المجاز.

١- سورة الحشر، الآية ٠٧ .

ويبدو أن أمر التأويل وإحالة الحقائق على سبيل المجاز كان سبب نتيجة فقد وسائل فهم حقائق القرآن الكريم من خلال اللغة العربية، والاستعانة بمعارف العصر واكتشافاته المعرفية يومئذ، ثم إن استنطاق ألفاظ القرآن الكريم لتبوح بأسرارها لم يكن أكثر منه لغوي، أما استنطاق الألفاظ لتخرج أثقالها المعرفية الأخرى التاريخية والعلمية والفكرية ومنها السنن أنه أمر لم يحدث يومئذ وقد تأخر بعضه إلى يوم نشط بحث الإعجاز العلمي المعرفي بشموليته التي تحاول استنطاق ألفاظ القرآن الكريم واستلهام آياته في ميدان الطب والتكنولوجيا والنفس والمجتمع والاقتصاد وسواه من مفردات الحضارة الأخرى حتى ولو نقد الإعجاز العلمي في تعسفات استنطاقه آيات القرآن الكريم والتعسف في تقويلها ما لم يكن من مقاصد القرآن الكريم، وهذا لا يعني أن ألفاظ القرآن الكريم قالت كل ما لديها وباحت بكل ما عندها وقد استنطقت حق الاستنطاق، ولاسيما بعدما تحوّل الاستنطاق ومثله الاستقراء والتأمل إلى قصد دراسي في ذاته، وكان الاستنطاق في أفضل حالاته سباحة خيال في فضاء الآفاق والأنفس من خلال المجاز والإعجاز، هذا لأن العرب وحتى الذين استعربوا كانوا فيما يبدو أمة شاعرة أكثر منها أمة فكر وعلم، وفي النص القرآني القابلية للاستنطاق العقلي والعلمي، مثلما فيه القابلية لاستنطاق الخيال، حيث تسعِف مرونة قابلية ألفاظه إلى معاني كثيرة أخرى.

ومسألة استنطاق ألفاظ القرآن الكريم لاستخراج حمولاتها قضية هامة في النص القرآني، اكتشف القدماء مطلقها ومقيدها، وعامها وخاصها، والمنطوق والمفهوم منها، ولكن أكثر ما وظفت له ألفاظ القرآن المعنى اللغوي والشرعي والمجاز، ولم توظف لمعاني الفكر والعلم إلا في جزء يسير منها، الأمر الذي ظل كامنا إلى أن بدأ الإعجاز العلمي يأخذ موقعه في الدرس القرآني ولو بدأ من الإعجاز اللغوي الذي كاد يشيخ أمام فتوة الإعجاز الفكري والعلمي، هذا الأخير الذي أصبح يتأهل من خلال مفردات القرآن وألفاظه أكثر من ذي قبل لاتكائه على مكتشفات العصر الحديث ومعارفه

العلمية، مع أن ألفاظ القرآن الكريم القابلة للمطلق مازال بعضها ضمن المقيد وتحسب منه وعليه، وأن المنطوق منها مازال لم يفهم فهما واسعا[١]، وأن الآيات القرآنية مازالت تقيدها أسباب نزولها، مع أنه تقرر منذ أمد أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب إلا ما استثني من القاعدة أو القرار، مثلما قال القدماء في آية الاستبدال التي مازالت بين أيدينا أنها كانت بين القبائل العربية مع أنه ليس فيها ما يمنع من توسيعها على الأمم والشعوب الأخرى، وتنزيلها في مواقع من الجغرافيا والتاريخ لصلاحية القرآن الكريم لكل زمان ومكان.

وحتى المفسرين القدامى حين تعرضوا لآية الاستبدال من سورة محمد ﷺ لم يحكروها على أنها كانت بين أسد وغطفان، وجهينة ومزينة، وإنما قد تكون فيما بين المهاجرين والأنصار، والعرب والفرس، وقيل في أهل اليمن، وقيل في الروم، وقيل في العجم، ثم توسع المعنى حتى قيل في الملائكة، وإن كان هذا معنى مستبعد، لأن الملائكة جنس وليست قوما، ويظل التهديد بالاستبدال لكل المخاطبين، والشرطية فيه هي التولي، بمعنى كل من يتولى يستبدل بغيره[٢]، الغير الذي من الضرورة هو الآخر تتوافر فيه أهلية الاستبدال به، ليكون قادرا على النهوض بالتكاليف، وهي أمانة الاستخلاف الحضاري الذي له تجارب كثيرة في التاريخ الإسلامي، مثلما حين تولى الأمويون استبدلوا بالعباسيين الذين حين تولوا هم الآخرون استبدلوا بالعثمانيين ومازالت أقطار العالم العربي والإسلامي تنازع بعضها بعضا ومع يعتريها من ضعف فقد أكثرها شروط القيادة وأهلية الريادة في إطار فكر الأمة الإسلامية الحضاري التي هي الأخرى تتأهب لتستبدل بأمم، ليقضي الله أمرا كان مفعولا وفق سنة الأمثل فالأمثل وتقديم الأصلح على الصالح والأحسن على الحسن.

١- توسيع معاني علوم القرآن، مخطوطا.

٢- شهاب الدين محمود الألوسي : تفسير روح المعاني والسبع المثاني، م٣، ج٢٦، ص٨١ . ٨٢ .

ومن هذا يستنتج أن عملية الاستبدال والتداول الحضاري تجري بين الشعوب، مثلما تجري بين الأمم في إطار المشيئة الربانية، وقدرات الإنسان على الفعل الحسن والسيئ، والسنن غلابة فلا داعي إلى ادعاء مغالبتها أو التحايل عليها لأنها أقدار الله والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

التعاقب: فالأصل في معنى التعاقب استخلاف الشيء بعد نقيضه، وإن كان كل شيء يعقب شيئا فهو عقيبه، والعقيب هو الذي يعقب آخر الركب[١] مثلما يعقب الليل النهار، والنهار الليل، فهما عقيبان لبعضهما البعض، وفي القرآن الكريم: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾[٢] يعني ملائكة الليل والنهار، فيتلو الواحد الآخر فيتعاقب الفرد والجمع على الشيء الواحد أو الأشياء، أو الموقع أو المواقع، كالذي يحدث في تعاقب الشمس والقمر، وهو سنة كونية في عالم الأشياء وفي عالم الأفكار عرفت البشرية التاريخ الحديث يعقب القديم إلى أن يصبح قديما، فيعقبه حديث، ثم يتقادم الحديث فيعقبه حديث، حيث تيارات الفكر تسود ثم تباد وتندثر لتحل محلها تيارات أخرى، تجري عليها السنة ذاتها، فيعقب اللاحق السابق، ويخرج الخلف من رحم السلف في تعاقب مستمر، إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا، وفي القرآن الكريم ما يزكي هذا المعنى الذي يشتق من آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ﴾[٣].

وأكثر هذه الآيات جاءت في أعقاب الحديث عن الذين كفروا، حين انحرفوا عن سنن استمرارية التحضر، وفي الوقت ذاته هي دعوة إلى

١-أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا : معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، مادة "ع .ق .ب" دار الجيل، بيروت .

٢- سورة الرعد، جزء من الآية ١١ .

٣- سورة محمد، الآية ١٠ .

الاتعاظ والاعتبار بأحداث الأولين، واكتشاف سنن الحضارة في التاريخ ومآلاته، وإن أوحى الحس اللغوي من السياق أن السنن المطلوب اكتشافها سنن سقوط الحضارات، لأن العاقبة للمتقين والدائرة على المكذبين[1]، وإن كان التعاقب الحضاري يمكن أن ينطبق عليه ما يطلق عليه بعض المفكرين دورات الحضارة، حيث يعيد التاريخ نفسه، ويكرر ذاته، مثلما تعاقبت على البشرية مذاهب فكرية كثيرة أي توالت عليها، والتي لعل من أبرزها في العصر الحديث الشيوعية والرأسمالية والليبيرالية والديموقراطية والعلمانية، وكادت هذه التيارات تعلن عن إفلاسها حتى صار يطرح الإعلام ما صار يعرف بما بعد، مثل ما بعد الديموقراطية وما بعد الحداثة وما بعد العولمة إلا أنه لم يطرح ما بعد الإسلام، لأنه مازال لم تؤخذ خياراته في الهيمنة العالمية والحكم.

وأعتقد أن جملة ما بعد في التيارات تدل على تراجع هذه التيارات التي تكاد تنحصر من الناحية الفكرية في الدولة دون مؤسساتها العمومية، وإيمان شعوبها وتقاليدها، مما يعني ضرورة البحث عن بديل يعقب من يتولى قيادة البشرية بموجب سنن الله في التعاقب الفكري الحضاري الذي فقد في الحضارة الغربية بعض مبررات استمراره وعوامل بقائه وحوافز إبداعه الحضاري في مختلف ميادين مستوياته، والذي يبدو الإسلام مرشحه الأكبر الأكثر حظا، ولاسيما في جانب الحضارة الإيديولوجي.

مستويات التعاقب: من سنن الحياة أن أكثر الأشياء تتعدد مراحلها مثلما قد تكثر مستوياتها وتختلف نهاياتها ومآلاتها وكيفيات حدوثها، ولم يخرج عن هذه القاعدة التداول ومرادفاته ومنها التعاقب الذي هو فعل الحدث بين مُعَقِّبٌ وعاقِبٌ، وقد دعي الإنسان إلى النظر في عواقب الأشياء

١- ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ سورة الفتح، جزء من الآية ٦ .

ولاسيما عواقب الأقوام والأمم، وهو نظر غير مجرد وإنما قاصد، له غاية لعل جوهرها قصده تلمس أثر الماضين بنية اكتشاف سنن الحضارات في عواقب نهايات الأقوام، والنهايات التاريخية ذات مستويات:

عاقبة مطلقة: عامة غير مقيدة، والدعوة إلى النظر فيها مطلقة هي الأخرى في عاقبة الذين خلوا من قبل لقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[1]، والمعنى الخاص في الآية معرفة نهاية المرتدين من عاد وثمود وغيرهم من الأمم العاتية التي وصف بعضها بالأشد «كانوا أشد قوة» في البدن و«وأثاروا الأرض» أي حرثوها وقلبوها للزراعة والغرس أكثر مما حرثها أهل مكة، «وعمروها» أي عاشوا فيها عمرا طويلا[2]، والمعنى الآخر أنهم بلغوا مستوى من الازدهار الحضاري ورفاهيته ولو في جانب الزراعة أكثر من غيره، وهذا من سنن الحضارات التي تنمو في جانب أكثر من آخر، ولكن حين خروج الأمم عن سنن الاستمرار الحضاري وديمومته بتكذيب الرسل تهلك وقد تستأصل من الوجود الحضاري استئصال مادي.

وقد لا يكون الاستئصال بدني جسدي وإنما معنوي حضاري لأن الآثار المادية قد تظل بقايا تاريخية دليلا على ما وصلت إليه حضارة أمة ما، ومن هنا توافرت دواعي السير في الأرض ودعت مبرراته وليس بمعنى المشي والسياحة بقدر ما هو سير تأمل وتدبر في عواقب الأولين من خلال بقايا آثارهم قصد معرفة أحوال الأمم الأولى، وكيف سادت ثم بادت؟ وكيف تداولت على المجد الحضاري؟.

١- سورة الروم، الآية ٠٩ .

٢- أبي الطاهر بن يعقوب الفيروزابادي: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ص٣٣٩ .

ولعل هذا قصد الدراسات التاريخية الأساس وبخاصة في النص القرآني الذي تتسع مساحته الزمان والمكان كلهما ويشمل قائمة الأمم ذات التاريخ الحضاري جميعها بالمنطوق أو المفهوم، وهذا مما قد يجعل الباحث يعقد مقارنة بين مستويات الحضارات، مثل الذي يمكن أن يعقد بين قوة قريش المكذبة ومستوى إثارتها الأرض وعمارتها وبين قوة عاد وثمود وغيرهما كأصحاب الأيكة وقوم تبع.

ولعل هذا من أضيق ما يفهم من نص هذه الآية، حيث معرفة مستويات الحضارات القديمة قليلة خارج النص القرآني المطلق الذي أسس السنن التي تنطبق على حياة البشرية كلها وتهيمن على مراحل تاريخها جميعه، حيث من معالم حضارات الأمم القديمة سد مأرب في اليمن، أهرامات مصر، وسور الصين العظيم، وبقايا آثار الرومان المرسومة على خريطة العالم القديم، ومعالم حضارة الأندلس الخالدة في قرطبة وغرناطة وسواهما، يضاف إلى هذا الإبداع العلمي الأدبي والتشريعي والفني، وفي الحاضر آية الإبداع الصناعي التكنولوجي شاخصة، تزحف نحو المزيد من التطور والرفاهية.

هذا بعض ما قد يقرأ في ظلال معاني النص القرآني من خلال مفردات هذه الآية مثل: «أشدّ منهم قوة» و«أثاروا الأرض» و«عمروها أكثر مما عمروها» فيبدو أن ما تحمله هذه المفردات أكبر مما قاله مفسرون مَسّوا موضوعها مَسّا لغويا من دون تعريف معانيها الفكرية ذات الدلالة الحضارية التي هي من إعجاز القرآن الكريم الذي لا يحسّ منه أنه كلام محيط مطلق في المستقدمين والمستأخرين وكيف التزموا السنن ومقتضياتها حينا وانحرفوا عنها حينا آخر ولو ظلت الشواهد دلائل على ما بقي وعلى ما اندثر من إبداعات الحضارات التي مازالت تفصح عن بعضها الأبحاث الأثرية، وكلما تطورت آلياتها اكتشفت أن هناك مناطق قاحلة كانت في

أيام خلت وديان ومروج وقد صارت اليوم أثرا بعد علم، عرف الباحثون مستوياتها أم جهلوها فيما كيف بلغت مجدا أعلى في الإبداع الحضاري بمقاييس العصور الماضية وحتى بمقاييس العصر الحديث، ومع ذلك أهلك أهلها فتبروا تتبيرا ولم تغن عنهم إبداعاتهم شيئا، وكأن الله أراد أن يركز على حقيقة واحدة وهي إثبات قدرته على كل شيء، وأن بلوغ المستويات العليا من الحضارة لا يعصم أصحابه من السقوط الحضاري حين التعرض إلى سننه لأن السنن غلابة.

ومن مواقع الآثار الصامتة والناطق لسان حالها دعي الإنسان في القرآن الكريم إلى النظر كيف جرت السنن في الأولين مثل قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[1]، وهي إنزال العذاب على الذين كذبوا حين انحرفوا عن الصواب وخرجوا عن خط السنن المستقيم، والله تعالى يقول: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾[2]، فالآية خوطب بها رسول الله ﷺ، ومن خلاله أصحابه ثم من خلال كل سلف خلفه، وقصد بتقلب الذين كفروا في البلاد ذهاب وإياب تجار اليهود ومشركي قريش[3]، ولكن هذا لا يقيد المعنى لأن الباحث في معاني القرآن الكريم يحس أن دلالات مفرداته ومقاصده العامة أكبر من المعاني الخاصة، وهذا ما يجعل القرآن الكريم حاضرا ومساهما في التطور الحضاري في كل حين مما كان ومما سيكون، حيث خير مفسري القرآن الكريم بعد رسول الله ﷺ الدهر، المتضمن الماضي والحاضر والمستقبل، ولذا تضافرت الدعوة في القرآن الكريم إلى النظر في عواقب الأمم، ومع تشابه صيغ الدعوة إلى النظر في العواقب في القرآن، حتى كأنها نسخ عن بعضها بعض، إلا أن تكرار الدعوة له مقاصد وغايات معرفية هامة،

١- سورة فاطر، الآية ٤٣ .

٢- سورة آل عمران، الآية ١٩٦ .

٣- أبو الطاهر بن يعقوب الفيروز أبادي: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ص٦٣ .

وهي تتضمن مفردات مطلقة حمالة وجوه، فيها قابلية مسعفة للاستقراء، ومن ذلك ضمير الغيب المستتر، وتقديره «هم» في «ألم يسيروا» «هم» «في الأرض فينظروا» «هم» «كيف كانت عاقبة الذين من قبلهم» والضمير في الحالتين في موقع الفاعل الغائب، مع أن المخاطب هو قريش التي كانت تسير على بقايا الأمم العربية الأولى وآثارها مثل عاد وثمود وأصحاب الأيكة وقوم تبع وغيرهم، إلا أن الخطاب ليس مقصوراً على قريش أو العرب وحدهم، بل خطاب إلى العالمين، لأن من طبيعة السنن الشمولية والحياد.

ويبقى أنه مادامت صيغ الخطاب الأمر بالسير في الأرض مترادفة غير متكررة، حيث قد لا نجد في بعضها ما يميزه كثيرا عن بعضه الآخر، فإن الإحالة إلى مواقع هذه الآيات من القرآن الكريم تقتضيها مصلحة البحث لاستنطاقها وأن التحول إلى النظر في عواقب الأمم، وقد دعي الإنسان إلى النظر إليها وفي مآلاتها كنهايات تاريخ حضارات أمم، وكيف تداولت على المجد الحضاري وعواقب الأمم لم تكن على حالة واحدة، بل كانت حالات منها ما هو مطلق لم يفصح التاريخ عن حقيقته ومنها ما هو مقيّد والعقاب من جنس العمل.

عاقبة الظالمين: لقد ترددت آيات كثيرة تبيّن نهاية الظالمين على مستوى الأفراد والشعوب والأمم والحضارات، كالذي في قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]، فالحديث في الآية عن كفار قريش، والمخاطب بالدعوة إلى النظر في عاقبة الظالمين محمد رسول الله ﷺ والذين معه والناس من حوله ومن بعده أبد الدهر، بمعنى الأجيال الآتية كلها مخاطبة بما خوطب به رسول الله ﷺ بصفة عامة.

أما طبيعة عاقبة الظالمين، فقد كانت هلاك الحضارات ودمارها من

١- سورة يونس، الآية ٣٩ .

خلال سنن السقوط الحضاري، وهي سنن قائمة دائمة، تجري على الظالمين في العصور كلها، والسنن واحدة مادامت الأسباب واحدة، وما هذه الأقوام التي دعيت الأجيال إلى النظر في نهايتها إلا نماذج متكررة عبر التاريخ ليعرف من خلالها قدر الله في البشر وكيف جرت السنن في الحضارات الظالمة؟ وكيف كان الظلم سببا في افتكاك مجد الحضارات من بين يدي أصحابه، ليكون زمام الحضارة أمة أخرى أو شعب آخر من خلال سنن التداول الحضاري، مثلما كان بين الأقوام التاريخية.

ومن هنا كان التعاقب من مرادفات التداول فيه جزء كبير من المعنى اللغوي الفكري الحضاري، إن على مستوى الأمم والحضارات مثل هذه الآية التي نتحدث في امتداد معناها الفكري في الأمم والشعوب وظلاله على الحياة، أو على مستوى الأفراد مثلما تردد في القرآن عن فرعون وجنوده، كالذي في قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1]، والآية ضمن سياق يحكمها بما قبلها وما بعدها من الآيات، ومما ورد قبلها قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾[2]، ومما ورد بعدها قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾[3].

فالآية تتحدث في عاقبة الظالمين بين آيتين، يتضح من علاقتها بهما جزء هام من معناها، منه أن النظر في العواقب، أي في خواتم الأمم والأفراد ضرورة تاريخية، ينبغي أن تربى الأجيال عليها، فهي تتضمن مجمل أحداث التاريخ وحقائقه، وفي الوقت ذاته تحمل إشارات استشراف المستقبل الذي يمكن قراءته من معرفة آمال الأمم، وخواتم حضاراتها، ومنه يستنبط

١- سورة القصص، الآية ٤٤ .

٢- سورة القصص، الآية ٣٩ .

٣- سورة القصص، الآية ٤١ .

مسار التداول الحضاري والظلم مظالم وظلمات ولو قيل الكفر ملة واحدة، فقد يقاس عليه الظلم والجرم وهما ليس بالضرورة من الكفر وحده، وإنما قد يكونان من غيره ولو كان الظلم مراتب مثل الشرك الظلم العظيم.

عاقبة المجرمين: تكاد تكون عاقبة المجرمين الظالمين واحدة، غير أن معنى لفظ الظلم يبدو أشمل وأوسع من معنى لفظ الجرم، والذي يعني في عرف العصر الحديث الخروج عن القانون، أما الظلم فهو تجاوزه، وقد يكون يكون الجرم جزء من الظلم ويبقى لكل لفظ دلالته التي يستقل بها عن الآخر.

ولعل هذا يؤكد أن حديث القرآن الكريم عن الظلم ليس هو حديثه ذاته عن الجرم، وإن كان لكل منهما أثره في سقوط الحضارات، ولكن لكل واحد منهما أساليبه من سلوكياته على مستوى الممارسة الميدانية، وهذا يكشف عن القيمة اللغوية الفكرية في تعدد استعمال الألفاظ ذات المعاني المتقاربة والمترادفة في القرآن الكريم، كالذي في معنى التداول والتعاقب، والجرم والظلم، مثلما في قوله تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾[1]، فمعنى الآية حلقة في سلسلة سياق السورة، وقصص الأنبياء والأمم الماضية بصفة عامة، أما خصوصية معنى الآية، فهي الحديث عن قوم لوط عليه السلام، وكيف أجرموا في التاريخ في حق أنفسهم وفي حق الإنسانية، فجرت عليهم سنة الله في الجرم والمجرمين، مثلما جرت سنة أخرى بسبب آخر على قوم شعيب عليه السلام، والسنن تجري على مستوى الأقوام والشعوب، وعلى مستوى الأفراد، ولعل الفرق هو أن الجماعة تغتر بعددها أكثر من اعتزاز الفرد بقوته، وفي الآية مقابلة بين إرادة الجماعة، وإرادة الفرد، ولكن العبرة ليست في الأعداد والأفراد، وإنما في مقتضى السنة التي جرت بها على قوم لوط عليه السلام، لأن سنة

١- سورة الأعراف، الآية ٨٤ .

العقاب لا تجري على الأفراد والشعوب إلا من خلال أفكارها وسلوكها، ومادام العقاب وقع على الظالمين والمجرمين لا على شخصية الظلم والجرم المعنوية، فكان الطلب هنا النظر في عاقبة المجرمين، وليس في الجرم، كواقعة أو حقيقة مجردة، وسلوك اجتماعي في تاريخ الإنسان الحضاري.

وتبدو استنباطات هذه المعاني مما سكت عنه المفسرون لأسباب مستوى الحضارة يومئذ، الذي قعد بهم دون اكتشافها والتعرض لها، وإني أظن المسألة من اهتمامات المفكرين وليست من اهتمامات المفسرين الذين هم أكثر أكاديمية لحرج إبداء الرأي في فهم القرآن الكريم، بينما ليس الحرج ذاته في إبداء الفكر رأيه فيما سوى القرآن والحديث، اللهم إلا إذا كان اتجاه مفكري تفسير القرآن الكريم على منوال الاتجاه التاريخي والفقهي في تأويل بعض آياته، وقد يكون المعنى الأكبر في هذه الآية مثل مشابهاتها يكمن في خاتمتها ولو لم يهتم المفسرون كثيرا بخواتم الآيات والسور مثل اهتمامهم بفواتحها التي بددوا جهودا عظيمة انتهت أكثر آرائهم فيها بقولهم الله أعلم بمراده، ثم جاء المفسرون المحدثون وزهدوا أمام جهود سلفهم احتراما لهم وأبوا الاجتهاد بعد اجتهادهم تواضعا أو عجزا، ولذا لم يجرؤوا على اقتحام هذه الموضوعات وشبيهاتها إلا قليل منهم، وكأنهم التزموا مقولة ما ترك الأولون للآخرين ما يقولون التي أسسها المتأخرون ولم يؤسسها الأقدمون.

ولذا بات حين يقترب الدارس اليوم من ألفاظ خواتم الآيات لا يسنده تراث علمي فكري يتكئ عليه ليسعفه في الوصول إلى غاياته، والدليل حينما عدت أبحث في ألفاظ خواتم الآيات التي طلب النظر في عواقب الأمم والأفراد والحضارات من خلالها لم أجد عونا واضحا على فهم ألفاظها التي حملت عواقب تشير إلى نهاية قيادتها الحضارية إلا في مستويات ضيقة ولكنها تتفق على أن النهاية سيئة والألفاظ مترادفة المعاني ومختلفة

المباني، مما يؤكد على أن لفظ الطاغين – المجرمين – المكذبين المفسدين – والمنذرين – المستعملة في خواتم هذه الآيات ألفاظ لها استقلاليتها فيما تؤدي من معاني فكرية مقصودة من استعمال القرآن.

وهذا ما يكشف أن ألفاظ خواتم كثير من الآيات، مازالت لم تدرس من حيث دلالتها اللغوية لبيان حمولتها العلمية ومضموناتها الفكرية، والتي فيها مساعفة ومطاوعة إلى أن يحقق الدارس من خلال صفتها هذه مقاصد دراسته، وهذا لا يعدم أن هذه الألفاظ المشار إليها تحمل معنى عاما مشتركا، وهو أنها تؤكد نهاية دور الواردة فيهم حضاريا وقياديا إن على مستوى الأفراد أو على مستوى الأمم والأقوام، وفي الوقت ذاته تشير إلى استحضار أمة القيادة الحضارية الجديدة من خلال سنن التداول التاريخية، مثلما يتضح من: ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾[1]

وهنا نقطة اللقاء التاريخي بين حضارة تنهار وأخرى تقام، لتستأنف البشرية حياتها من خلالها وتحت إمارتها ليكون التداول ذاته أو من خلال مرادفاته، فيواصل طريقه نحو نهاية أخرى وبداية أخرى، والمرحلة الانتقالية نقطة تسلم المهام بين حضارة وأخرى، وهي سنة من سنن الحضارات تدعو إلى البحث في عاقبة المآل لتهيئ السير الحضاري لأمة جديدة من خلال السنن ذاتها، حيث من ما يقابل ألفاظ خواتم الآيات التي تحمل معاني العواقب الحسنى لفظ «المتقين» ولعله هو اللفظ الوحيد الذي يعبر عن المآل الحسن إلى جوار نحو خمسة ألفاظ تعبر عن عاقبة سوء مصير الأمم أو الشعوب أو الأفراد، وفي لغة القرآن التاريخية الأقوام.

عاقبة المتقين: ليست العواقب كلها مآل سوء في التاريخ، وإنما العواقب قد تؤول مآلات كثيرة ولو كانت من جنس العمل، مثلما ليست العواقب نهايات

١- سورة الأنعام، الآية ٨٩ .

وإنما مآلات قد تعمّر طورا أو مرحلة ما من الحضارة قد تكون جديدة، لأن من السنن أنه قد يعقب الخير الشر، والفرح القرح، والتقدم الانحطاط، أو الأحسن الحسن، أو الأفضل الفضل.

ومن ثمّ ترادفت ألفاظ قرآنية كثيرة تعرب عن هذه الحقيقة التاريخية، وفي الوقت ذاته تبشر أصنافا من البشر بمآلات خير ومصائر سعادة في الدنيا والآخرة، مثلما ورد في قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1]، فالآية وردت في أعقاب نهاية قصة قارون الذي كانت نهاية ملكه الدمار والاستئصال، وإن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم، وإن كانت الآية سكتت عن وصف العاقبة، ولكن هذا الوصف فهم من السياق العام الذي جاءت الآية في ثناياه تقرر العاقبة الحسنى في الدنيا والآخرة للمتقين، ولو أفاد السياق أن المراد بالعاقبة في هذه الآية يوم الآخرة ولكن ليس فيها ما يمنع من أن استغراق معنى العاقبة الحسنى الدنيا والآخرة إلا في حالات استثنائية، هي الابتلاء بالشر والخير في التفسير الإيماني للأحداث والوقائع، ذلك لأن المعنى العام للعاقبة الذي يستغرق الدنيا والآخرة وله ما يؤكد هذا المعنى ويعززه في آيات أخرى من خلال ما يسمى بمفهوم المخالفة عند الأصوليين، مثلما يفهم من قوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2]، ولقد دعي الإنسان إلى معرفة عاقبة الظالمين في آيات كثيرة ولو لم تفصح عن صفاتها لا بالتصريح ولا بالتلميح والإشارة لأنها عاقبة تكاد تكون معلومة بالضرورة، وإلى جوارها معرفة عاقبة المتقين هي الأخرى من خلال الصيغة العامة للآية، وإضافة إلى ما يعرف بمفهوم المخالفة هناك

١- سورة القصص، الآية ٨٣ .

٢ - سورة يونس، الآية ٣٩ .

ما يعرف بمفهوم الموافقة الذي جاء على صيغة معرفة عاقبة الظالمين، وهي النهاية السيئة لهم، حيث تعرف نهاية المتقين هي الأخرى بالبداهة من خلال صيغة أسلوب الآية، بأنها نهاية سعيدة يؤول إليها أمرهم في الدنيا والآخرة لما عملوا جزءا وفاقا.

والذي يعني أكثر في التفسير الحضاري لتاريخ الأفراد والأمم هو مآلها في الدنيا، لأننا نريد الوصول إلى معرفة سنن التداول الحضاري، والتي منها أن سنن الله تنزع الحضارة من الظالمين، ليستلم زمام الأمور المتقون لأن العاقبة لهم، وهذا بصريح ما تتضمنه آيات أخرى كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١]، ولذا يكاد ينتهي الحديث إلى أن لفظ التقوى ومثله ألفاظ أخرى أوسع مما شرحه المفسرون والوعاظ على أنه يعني التربية الروحية، وتزكية الأنفس، وإنما هو لفظ له دلالته اللغوية، وحمولتها الفكرية التي مما تعنيه أن التقوى في اللغة العربية مأخوذة من مادة الوقاية وهي حفظ الشيء مما يضره[٢].

ولذا كأن المتقين اتقوا أسباب الانحراف في الأعمال والأفكار الضارة التي تؤدي إلى مآل السقوط الحضاري أو الهلاك المادي وذهاب الريح[٣] بذهاب البأس، ولعل هذا مما يحمله ختم آيات كثيرة من آيات لفظ التقوى مثل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٤]، وأحسب أن المفسرين وعلماء الدراسات القرآنية لو اجتهدوا في بحث هذه الألفاظ حق الاجتهاد لاستخرجوا منها معاني كثيرة مازالت غائبة، ولكنها مستويات العصور وعدم الحاجة، حيث الحاجة أم الاختراع، وحتى لا يقول القرآن الكريم كل ما لديه ويستخرج

١- سورة الأعراف، الآية ١٢٨ .

٢- عفيف عبد الفتاح طبارة : روح الدين الإسلامي، ص٢٥٤ .

٣- إشارة إلى الآية ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ سورة الأنفال، جزء من الآية ٤٦.

٤- سورة البقرة، الآية ١٨٣ .

المفكرون كل ما فيه ولو قال ذلك لوقف عطاؤه، ولو حقق المفسرون كل ما أرادوا لصدق قول القائل ما ترك الأولون للآخرين ما يقولون ولا أصبح قولهم قاعدة يصعب الاستثناء منها، وبناء عليه يتوقف الإبداع عند فاصل عصر ما من التاريخ، ومن ثمّ فلا إعجاز للقرآن الكريم ولئن استطاع مناوئوه أن يأتوا بمثله[1]، ولكن يبقى للمفسرين وعلماء الدراسات القرآنية أعذارهم التي لعل في مقدمتها شح مستويات عطاء عصورهم التي لم تستفزهم لبحث هذه الموضوعات، وهي التي جعلتهم يمرون عليها مسرعين وكأنهم تعمدوا الترك للآخرين ما يقولون.

ولعل هذه الإشارة الخفيفة في محاولة قراءة خواتم الآيات قراءة حديثة معاصرة تستطيع استخراج جزءٍ مما تتضمنه، فننظر في عواقب أي خواتم الآيات، ليدرك كيف انتقلت الحضارة من أمة إلى أمة أو شعب إلى شعب وفي لغة القرآن من قوم إلى قوم؟ وكيف جرى التداول الحضاري بالتعاقب بين الأمم والشعوب التي كان لها شأن حضاري في التاريخ، فجاءت خواتيم الآيات تتحدث عنها وتحمل خبر شر أو بشارة خير.

وإن نقطة اللقاء التاريخي الحضاري بين قوة سنن تداول تعتمد نزع الملك بمقتضى الظلم ومؤثرات تداعياته وقوة سنن تداول أخرى تعتمد إيتاء الملك بمقتضى التقوى وما يترتب على الأخذ بها والتزامها منهج حياة، لأن الظلم سنة من سنن السقوط الحضاري والتقوى سنة من سنن نشوء الحضارات وازدهارها، وإذا كان معروفا لدى أكثر المفكرين والمؤرخين والمربين والوعاظ أن الظلم مؤذن بخراب الأمم فإنه يبدو غير معروف بالقدر ذاته لدى أكثرهم أن التقوى عامل بناء حضاري قد يكون أقوى من الظلم كعامل هدم، حتى ولو استصغر بعضهم التقوى واعتبرها لفظ وعظي بسيط وسلوك الضعفاء ولكنها في حس منظور الإسلام اللغوي الفكري لفظ

١- إشارة إلى ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ سورة الإسراء، الآية٨٨.

لا ينظر إليه في ذاته فقط وإنما ينظر إليه من خلال مؤثراته على أنه سلوك والتزام يُحَمِّلُ صاحبه مسؤولية الضمير المهني الداعي إلى الجد والاجتهاد والإتقان إلى آخر ما ينتج التقدم الحضاري الذي يعمل على التزام سنن المآل نحو الازدهار الحضاري التي تعتبر من سنن التداول والاستبدال.

التداول سلطان مرادفاته: ويُنْتَهَى إلى أن مثل التداول بين مرادفاته كالاستبدال والتناوب والاستخلاف كمثل الأشقاء يكبر بعضهم البعض الآخر أو كأولياء الأمر تتفاوت سلطاتهم وصلاحياتهم، فالتداول سلطان أشقائه بين مرادفاته في لغة استخدام القرآن واستعمال الاصطلاح اللغوي في حس الفكر الحضاري الإسلامي، فإنه أوسعها دائرة وأكثرها صلاحية، ولذا رشّح ليكون ضمن مفردات عنوان هذه الدراسة وتكون له الأولوية ففاز بما رشح له، فكان عنوانا على غيره من بين مرادفاته بين يدي هذه الدراسة وتحت أضوائها لتُكبِرَ جزئياته وتبيّن أبعاد دلالاته وتتبع علاقاته بما حوله من مرادفاته الأخرى، حتى تتجلى حقيقته وسننه، ويأخذ وزنه وموقعه في مقام كبير.

وإن باب دخول مفهوم التداول الحضاري من خلال استعمال القرآن، يعني سرد قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[1]، ولذا هو عنوان بحث موضوعات مرادفاته، وإن كان سبب نزول هذه الآية مرتبطا بغزوة أحد، فإن دلالات معانيها فاضت عن هذه المناسبة، وأصبحت أوسع من هذا الحدث التاريخي مع أهميته، والمعنى أن

١- سورة آل عمران، الآية ١٤٠ .

«وتلك الأيام» اسم إشارة إلى ما بعد، أي إلى ما هو آت وقادم من الأيام «والأيام» هي الأوقات، ولام التعريف في الأيام للعهد، إشارة إلى أن أوقات الظفر والغلبة جرت سننها بين الأمم الماضية وستجري على كل من يحذو حذوها في كل زمان ومكان، وهذا هو مطلق مفهوم القرآن غير المقيد في لفظه أو بمناسبته إلا من استثني من القاعدة، لأن الأصل في اللغة العربية أن تكون الإشارة لما مضى وفات، أما حينما تكون لما هو قام وآت فإنها تفيد التعظيم، وهذا ما يعني أن يوم بدر وأحد داخلان أوليا في الحدث التاريخي الحضاري وقد يتكرر مثلهما في مستقبل الأيام القريب أو البعيد ولو باسم آخر وفي موقع آخر من الخريطة الجغرافية وبوسائل أخرى وبين قوم آخرين في كيفيات أخرى.

ومادام بدر اليوم لهؤلاء إشارة إلى نكرة قد تكون معروفة لدى أهل الخبرة، وغدا لأولئك قد تنبئ أخبارهم عنهم، ولذا ليس بالضرورة أن يظل انتصار بدر ملازما للمسلمين في كل حين وهزيمته ملازمة للمشركين أبد الدهر، وإنما الأيام دول، أي «نداولها بين الناس» بمعنى نصرفها بينهم، فنديلها لهؤلاء مرة أو مرات، ولأولئك أخرى وأخر، لأن المداولة في اللغة العربية تعني نقل الشيء من واحد إلى آخر، ويقال تداولته الأيدي إذا انتقل من يد إلى يد، أو من أحد إلى جمع، أو من جمع إلى جمع، ولفظ «الناس» في الآية يفيد العام، وإعراب اسم الإشارة «تلك» مبتدأ و«الأيام» خبره و«نداولها» في موضع الحال، ويصح أن تكون «الأيام» صفة أو بدل أو عطف بيان، و«نداولها» هو الخبر و«بين الناس» ظرف لنداولها، ويجوز أن يكون حالا من الهاء والتقدير و«تلك الأيام» حالة كونها تتداول بين الناس، وصيغة الفعل المضارع في «نداولها» تفيد التجدد والاستمرار للإعلام أن المداولة سنة كونية مسلوكة بين الأمم قاطبة، ومن كلام العرب الأيام دول والحرب سجال، وفي «وليعلم الله الذين آمنوا» تعليل لمطلق المداولة المشار إليها، وهي مداولة معهودة جارية بين فريقي المؤمنين والكافرين، وكأن المعنى يقول

الأيام «نداولها» بين الأعداء والخصوم، ليظهر أمر كل فريق، وليعلم أن العلل غير مقصورة في عدد من الأمور، وإنما وراء كل حدث تاريخي علة أو علل، والسنن جند من جنود الله تجعل الأمور دولا بين الناس لتكون حِكَماً وفوائد من الدرس التاريخي الذي من عادته وسننه أن يجعل الأيام دولا[1]، وللإمام فخر الدين الرازي في آية «وتلك الأيام نداولها بين الناس» إلى قوله تعالى : «ولا تهينوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون» مسائل منها :

– أن المداولة هي نقل الشيء من واحد إلى آخر، أو من جمع إلى جمع أي تنتقل من قوم إلى آخرين ثم عنهم إلى غيرهم، ويقال دال الدهر بكذا إذا انتقل إليه، والمعنى أن أيام الدنيا دول بين الناس، لا يدوم سراؤها ولا ضراؤها، فيوم فيه سرور وآخر فيه هموم.

– أما المعنى الثاني فهو أن الأيام تبلي كل جديد لقوله تعالى:«تلك الأيام» إشارة إلى جميع الوقائع التاريخية، إن على مستوى تاريخ الإنسان العام، أو على مستوى التاريخ الإسلامي، وليست مختصرة في يوم بدر أو أحد، ولذا فلا ينبغي أن يفهم أن المراد من المداولة نصر الله المؤمنين تارة ونصر الكافرين تارة أخرى، بل المراد أنه تعالى يشدد تارة المحنة على الكفار وأخرى على المؤمنين.

ولهذه المداولة سنن هي سنن النصر وسنن الهزيمة التي لا تحابي أحدا، لأنه تعالى لو شدد المحنة على الكفار في جميع الأوقات وأزالها عن المؤمنين في الأوقات جميعها لحصل اضطراب في توازن الحياة وموازين العدل، ولحسب أهل الإيمان أنهم على حق مطلق وسواهم على باطل مطلق[2] من حيث السلوك والعمل مثل الإيمان والاعتقاد، ولو كان الأمر كذلك لأنكر معلوم من الواقع بالضرورة، ولجحدت آيات الإبداع والتقدم الحضاري

١- شهاب الدين سيد محمد الألوسي : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، م٢، ج٤، ص٦٧ . ٦٨ .

٢- فخر الدين الرازي : التفسير الكبير، م٥، ج٢، ص١٤ . ١٥ .

الذي يجري بمقتضى سنن على يد المسلمين وعلى يد غيرهم، بل قد يجري بقوة أو أكثر على يد الكفار، مثلما الحال هذا العصر بمعزل عن الإيمان والتوحيد، لأن الأيام تؤول في التقدم والتخلف على السنة التي تؤول من خلالها في النصر والهزيمة لأهل الإيمان على الكفر، أو لأهل الكفر على الإيمان، لأن لفظ الأيام في الآية مطلق مستغرق معاني السياق كلها أي أيام النصر والهزيمة، مثلما هو مستغرق أيام التقدم والتخلف، لأنه ليس من سنن الله دوام الحال، والسير على وتيرة واحدة فيه، وإنما من سننه التقلب والتبدل والتعاقب.

فلا غَرْوَة أن تكون دولة الحق مرة ودولة الباطل أخرى، ولكن من سنن الله أن تكون العاقبة للحق، لأن الأعمال بالخواتم، وهذه قاعدة السنن بصرف النظر عن الحق والباطل، لأن المداولة تقوم على أعمال الناس لا على نواياهم ولا على إيمانهم[1]، فلا تكون الدولة لفريق من دون آخر، وإنما تكون لمن عرف أسبابها، وأخذ بسننها، وكأن المعنى يرى أنه مادام التداول سنة جارية فعليكم ولكم: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[2]، لأن الأيام تدول، والعبارة تومئ إلى شيء منطوي كأنه معلوم، وإذا كانت المداولة منوطة بسلوك الإنسان وأعماله التي تفضي إليها كالقوة والعزيمة وصحة النظر والإعداد فإن الأيام ستؤول إلى أصحابها، وقد مضت سنة الأولين في هذا المسار ولم تتخلف عنه لأن السنن تكاليف ملزمة الأداء لابد أو توضح من خلال عرض إبداع واقع حضارات في حقل التاريخ العام ومن خلال القرآن الكريم ليتجلى جوهر السنن ويتضح سبيلها ويدرك أداؤها بمواصفاته وأثره في تحولات الحضارة وتقلبات الشعوب والأمم بين العزة والذلة والتقدم والتخلف والقيادة والتبعية، وقد أخذ كل بسنن ما آل إليه من حيث يدري أو لا يدري، لأن أحداث الحضارات

١- محمد عبده ورشيد رضا : تفسير المنار، ج٤، ص١٤٧ . ١٤٨ .

٢- سورة الحديد، الآية ٢٣ .

مثل قيامها وسقوطها وتداولها وتجددها تجري بمقتضى منظومات أصناف السنن كلها ولو لكل منها ميدانه، فالسنن الجارية ميدانها التزام الإصلاح بل الأصلح والإعداد والتخطيط والبرمجة والتماس الصواب بل الأصوب وانتهاجه، أما السنن الجبرية فوظيفتها التحكم في اجتهادات العلم واكتشافاته واختراعاته وآليات إدارة تكنولوجياته، والسنن الخارقة تعني إحالة الأمر إلى عالم الغيب وإرجاعه إليه بوعي ويقين وثقة في استجابة الله بتوفيقه.

هذا لما يشهد التاريخ به أن وظائف السنن كلها أسهمت في إنشاء الحضارات وتحولاتها ولو كان لفكر كل أمة ما يشبه التخصص في السنن، فالبادي من الفكر الإسلامي أنه نبغ في السنن الجارية العادية أكثر من غيرها، فوفق في بناء الجانب الإيديولوجي من الحضارة أكثر مما وفق في بناء الجانب الإيديولوجي منها الذي وقف به اجتهاده فيه عند بداياته الأولى يوم دال التخلف الحضاري على الأمة العربية الإسلامية ولو كانت تلك البدايات هي ما بنى عليها الفكر الغربي جانبه التكنولوجي من الحضارة من دون توثيق منطلقاته العلمية الأولى بمصادرها العربية الإسلامية.

ولذا بات في حكم التاريخ أن الفكر الإسلامي لم يهتم بالسنن الجبرية قدر الاهتمام ذاته بالسنن الجارية، ولم يبدع من آلياتها مثلما أبدع من آليات السنن الجارية، ولذا فالعالم الإسلامي مرشح إلى تبوء مقعده في المرتقب الحضاري بين الأمم من خلال السنن الجارية وربما الخارقة أكثر من السنن الجبرية الذي ذهب الغرب في الاهتمام بها بعيدا، قد يشق على غيره إدراكه فكيف إليه تجاوزه، لأن الفكر الغربي حظه من السنن الجبرية أوفر من غيرها، حيث من يوم اعتمدها دال إليه الدور الحضاري الراهن فزاد تحكمه في إجراءاتها أكثر، فتفوق في الإسهام من خلالها فيما تحقق له من تقدم حضاري ولو مازال يضطرب في فهم السنن العادية وفي فهم السنن

الخارقة أشد التي هي الأخرى لم تنل حظها مما تستحقه من اهتمام حتى الفكر الإسلامي الذي احتفل بالسنن العادية لاعتبارات... منها: أنه مازال يؤثر إنشاء التصور وبناء المنهج، ويُليهِ الأولوية على إجراءات التنفيذ، فيقدم الفكرة على الأداء، وربما يفضل القول على الفعل ولو من حيث لا يدري، مثلما يهتم بالتاريخ أكثر من الاهتمام بالمستقبل، وكأن الفكر الإسلامي فكر تعليمي دعوي أكثر من كونه فكر علمي عملي حيادي، ولذا آثر الماضي على الحاضر والمستقبل لأن الماضي كان له، ولكن المعركة على المستقبل أكثر مما هي على الماضي، أما الفكر الغربي الذي اهتم بالسنن الجبرية اهتماما شديدا فاق اهتمامه بغيرها لاعتبارات يبدو أنه رأى أنها أقرب طرق تحقيق أغراضه، وربما لتشبّعه يومئذ بالفكر الفلسفي التجريدي وخرافات الكنيسة فكان رد الفعل منه انتهاج منهج العلم العملي، فكانت السنن الجبرية سبيل غايته في الاكتشاف العلمي واختراعاته.

ولذا فإن استدراك الفكر الحضاري على ما فات، والاهتمام بما هو آت ومما غاب عن أطروحات الأفكار إسهام السنن الخارقة في التداول الحضاري ومآلاته باعتبارها إحالة أمر إلى الغيب، ولكنه فات أفكار كثيرة أن السنن الخارقة تجري على يد الإنسان الفاعل المسخر لتنفيذها أو نائب الفاعل المكلف بتطبيقها، وهذا ما يؤكده تاريخ تداول الحضارات بين الأمم.

الفصل الثامن:

تداول الحضارة في القرآن الكريم

- **الحضارة الأولى**: لم يعرف فجر البشرية حضارة حقا بمعايير العصر وبمفهومات الحضارة له – وإن اتفق علماء القرآن الكريم ومفكرو بحوثه على أن إنجاز الحضارة الأول كان على يد آدم عليه السلام . وإن الحديث من خلال مسار تاريخ الحضارات وعدّه مصدرا من مصادر السنن يدعو إلى الإجابة عن أسئلة كثيرة قد تكون علامات استفهام في خيال الشعر وتدبر الفكر وتخميناته، ولعل أبرز هذه الأسئلة ما سنن إبداع الحضارة الأولى التي كانت قبل فجر التاريخ؟ ثم إن وراء هذه الأسئلة أسئلة أخرى منها: ما هي أول الشعوب التي أسهمت في قيام الحضارة الأولى ولماذا؟ ثم كيف تكدست معارف أخبار التاريخ وتراكمت تجاربه على مر الدهر لبنة لبنة؟ حيث أضاف المستأخرون إلى إبداعات المستقدمين كل حين في مجال أو مجالات حتى تشكل نهر الحضارة العظيم[1]، لتنبت على شواطئه معارف علمية وفكرية وفنية وتشريعية على مناطق من الخريطة الجغرافية، والتي مازالت مناطق منها شواهد تاريخية، تتلمس فيها سنن الحضارات من خلال الآثار وبقايا الأطلال التي قد تزيد في تعميق الأسئلة وتكثيرها، وهو ما يجعل الإجابة عن الأسئلة المؤرقة لأهل الفكر والتاريخ وعلماء الآثار والحضارات مهمة صعبة، قد لا ينال السائل من ورائها كثيرا مما يريد، وإن كان الجواب على الأسئلة المطروحة والمتوقعة والضمنية، مع صعوبته، يبقى في دائرة الممكن الذي من منطلقه مازالت تطرح مناقشة الأسئلة.

وفي هذا الصدد توجد حقائق لعل الاتكاء عليها يساعد على محاولة الوصول إلى معرفة معنى ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[2]، هذه الآية التي كثر اجتهاد المفسرين فيها هي الحجر الأساس في محاولات الوصول إلى الحقيقة، ولاسيما حين تساند تفسيرها معارف العصر وفلسفته[3].

١ – شوقي أبو خليل: الإسلام نهر يبحث عن مجرى، ط١، دار الفكر المعاصر، دمشق وبيروت، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.

٢ – سورة البقرة، الآية ٣١ .

٣ – تنظر كتب التفسير أو كتب دراسات هذه الآية.

- **سنن قيام الحضارة الأولى في القرآن**: إذا التقى منهج التاريخ في القرآن وخارجه مع ذاته في مواقع كثيرة فإن تميز شقه في القرآن على شقه الآخر أو توأمه الثاني بما انفرد به مما قد يكون عنوانه سنن قيام الحضارة الأولى في القرآن ومنها سنن الاصطفاء[١] وفي نص القرآن: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٢] .

ومن هنا تكوّنت حضارات كثيرة بفعل دعوة نبي أو رسول أو ظهور مفكر أو عالم أو مصلح تتوسع دائرة قدرته الذاتية لتستقطب صفوة أو نخبة خيرية، قد تكون حوارية لنبي أو صحابة له أو ربيون معه ولذلك كثرت صيغ الذين معه في هذا المقام[٣]، أو تلاميذ مفكر مصلح، أو جنود قائد غازي، وقد تتوسع دائرة الإرادة عن طريق تربية الذات الجماعية لشعب أو أمة وإعدادها فتزيد في الاستقطاب لتستقوي قدرة إرادتها أكثر، حتى ينهض قطاع عريض من قوم أو شعب أو أمة بمسؤولية أمانة التحضر[٤] وواجباته نحو ذاته ونحو الآخر الذي قد يتأثر أكثر، فتتكوّن لديه إرادة حضارية يبدع من خلالها بأثر من الاحتكاك، حيث التأثر والتأثير الذي هو الآخر سنة من سنن التداول الحضاري بين الأقوام والأمم والشعوب عن طريق الغزو الحضاري الثقافي أو الفكري أو السلوكي أو الاقتصادي أو السياسي وغيره أو عن طريق سنة المد والجزر[٥] في مسيرة التاريخ الحضاري سواء على مستوى الحضارة البشرية العامة، أو على مستوى حضارة ما من حضارات الأمم أو الشعوب المتداولة حتى تأتي عليها سنن السقوط الحضاري فتقعدها في محطة الانتظار للإقلاع مرة أخرى، أو تدفنها في مقبرة التاريخ

---

١ – مذكرة تخرج، إشراف الدكتور محمد هيشور .

٢ – سورة آل عمران، الآية ٣٣ . ٣٤

٣– مثل ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾سورة الفتح جزء من الآية ٢٩ ومثل ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾سورة الممتحنة، جزء من الآية ٠٤

٤– عبد المجيد النجار: فقه التحضر الإسلامي عوامل الشهود الحضاري مشاريع الإشهاد الحضاري.

٥– أبو الحسن الندوي: المد والجزر في التاريخ الإسلامي .

إلى الأبد[١]، كالحضارات المنقرضة أو البائدة[٢] التي ذهبت ولن تعود، والتي يرى أرنولد توينبي أنها ماتت وصارت غير قابلة لاستئناف رسالتها مرة أخرى[٣]، أو هي حضارة نائمة ينتظر صحوها لاستئناف رسالتها من جديد، لتطبق نظرية التاريخ يعيد نفسه، لأنه في الوقت الذي تحط حضارة ما رحالها وتنام إلى الأبد أو إلى حين تنطلق حضارة أخرى لتتولى زمام الأمر وقيادة الركب الحضاري.

ولذا، لابد أن يعبر التداول الحضاري من خلال سنن كثيرة ولو غير مباشرة، لأن جريان سنن التداول صامت وهادئ لا يعبأ به إلا ذوو الحس الحضاري الفكري والأدبي والعلمي المرهف المعروفون بخبراء قراء المستقبل المتنبؤون بتحولات المجتمع من خلال تتبع مؤشرات القادم المرتقب في تحولات الأمم والشعوب.

وإني أتصوّر تداول الأنبياء على التاريخ ومثله تداول الأمم فيه ما يشبه ما يطلق عليه في العصر الحديث البرنامج الذي يُطْلَبُ من المؤسسة حين تتولى مهمة في الدولة أو في العالم، مثل برنامج الرئاسة أو الحكومة أو المنظمة المحلية أو الإقليمية أو العالمية، وهذا يقتضي أن حفاظ مسؤولها الجديد على القاسم المشترك بينه وبين سلفه في الوظيفة نفسها، ثم يتمايز عنه، فينفرد بجديد تقتضيه وجهة نظره والمرحلة من حيثيات كثيرة كطبيعة المكان والزمان وخصوصية الأداء، وميزة الفئة أو الشعب أو الأمة أو البشرية، وهذا مثلما كان لكل قوم ميزة، فجاءها الأنبياء بما يصلح فسادها ويحقق أغراضها، وهو ما يعني أن معجزة النبي لا تكون إلا فيما تفوّق فيه قومه، مثلما كان إصلاح إبراهيم عليه السلام في التوحيد، ويوسف وشعيب عليهما

١- مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي.

٢ - سلسلة مقالات عنوانها حضارات سادت ثم بادت، إعداد يوسف الزغبي، مجلة العربي، ص١٥٦، ع٣٣٦ وما بعده، س٢٩، ١٩٨٦م .

٣ - أبو الحسن الندوي: إلى الإسلام من جديد، ط١، دار المختار الإسلامي، القاهرة، ١٣٧٠هـ ١٩٥١م.

السلام في الاقتصاد، وتحدي موسى عليه السلام قومه في السحر، مثلما تحدى محمد عليه الصلاة والسلام قومه البلغاء في الفصاحة ...

وهذا ما تطلق عليه هذه الدراسة إنجاز الأنبياء الحضاري فوق إنجاز أقوامهم، والذي أدوه وفق منطق السنن الخارقة وإن صار جزء منه من السنن العادية الجارية والجبرية، وهو الذي حين نقرّبه إلى لغة تعامل العصر يكون فيه ما يشبه برنامج مشروع مؤسسة الحكومة الجديدة الذي تقترحه على شعبها من خلال ممثليه للموافقة بعد المناقشة أو عدمها أو حتى سحب الثقة.

ولذا، فالتداول لا يعني توقف الأول وانعدام أدائه ليستأنف الثاني مهمته من الصفر، وإنما يعني امتداد شيء من السابق في مهمة اللاحق، وأخذ الثاني من عطاء تجربة الأول، قصد المحافظة على القاسم المشترك الوطني والقومي وغيره من ثوابت العهود والعقود السابقة، حيث تؤسس بدايات الثاني على توقف الأول، مثلما تأخذ أمواج البحر وتراكمات السحب من بعضها البعض الآخر، وهذا تداول لاستمداد الثاني فيه من الأول، ولعل كل هذا من معنى قوله ﷺ: «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَكْمَلَهُ، إلا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ : هَلا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ ؟ قَالَ : فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ»[1] وحديث «أفضل الدعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير»[2]، فتلقين لا إله إلا اللّه والدعوة إلى الإيمان بها والتزام مقتضياتها أفضل إنجاز الأنبياء.

---

١ – رواه البخاري.

٢ – رواه أحمد والترمذي.

- **إنجاز الأنبياء الحضاري:** إن دعوة الأنبياء إلى التحضر ووضع أسسه، بل إبداع ما يعتبر من الحضارة بمفهومها المعاصر حتى في جانبها المادي أكبر مما انتهى إلى مدارك الإنسان في تصوره لوظيفة الأنبياء والرسل، مثلما يبدو من قول البعض أن محمدا رسول الله ﷺ قد أسس دولة بينما الواقع أن رسول الله بنى أمة مما هو أكبر من دولة، وقد أنشأها بيده والذين معه فازدهرت في ظلال الوحي وفق مقومات التحضر وطبقا لمعاييره وبمقتضى سنن قيام الحضارات، فاحتضنها المؤمنون بدعوته من الأنصار والمهاجرين والذين اتبعوهم بإحسان من خلال السنن الجارية،وإن وظفت فيها سنن خارقة، حيث تجلت أعمال الإنسان وجهوده في الحضارة العربية الإسلامية حتى تساوت مع جهود الآخر وأعماله من غير المؤمنين بدعوات الأنبياء والرسل،بل أرجحها التوافق وكلمة سواء[1]، وهذا ما يجلي من صفات السنن في تحول الحضارات كالحياد، مع أن بدايات الحضارات الأولى على يد الأنبياء ربما كانت على منطق السنن الخارقة كالمعجزات التي أدت وظيفة الإقناع الأولى، ثم تخلت عنها لتجري إبداعاتها واختراعاتها واكتشافاتها وفق السنن العادية الجارية بعدما أخذتها عن السنن الخارقة.

ومن ثم، يرجح أن بداية التحضر الأولى كانت من منطقة ما يسمى الشرق الأوسط لأنها مهبط الوحي ومهد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين خدموا الإنسانية وبنوا مجد حضاراتها بتوجيه من الوحي الذي منه كانت أفكار الحضارات الأولى ونظريات اختراعاتها واكتشافاتها، فنمت حتى استوت على سوقها، فبلغت شيئا من الكمال عبر سنن التطور وتحسيناته، لأن اختراعات الحضارات ليست وليدة عشية وضحاها، بل بذورها الأولى قديمة قدم تأمل الإنسان وتدبره ثم إبداعه وإنتاجه.

ومن هنا، لا يصح الادعاء أن كل ما وصلت إليه الحضارة الغربية

---

١ - ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ سورة آل عمران، جزء من الآية ٦٤ .

هو من إبداعها قد أوجدته من العدم أو اشتقته من إبداع اللاتينية، وإنما لكل سابق فضل على اللاحق، حيث للأول الإبداع وللثاني الإضافة. ولذا فإن إنتاج الحضارات ميراث إنساني تظافرت من أجله جهود تاريخية كثيرة تلاقحت أفكارها فتلاحقت نظرياتها، مثلما يبدو من نموذج أثر فضل الحضارة الإسلامية على الحضارة الغربية، الموضوع الذي طرقه كثير منهم مثل كتاب «شمس العرب تسطع على الغرب» لزنغريد هونكة، حيث أكثر نظريات علوم الحضارة الغربية كالطب بداياتها الحضارة العربية الإسلامية، مثل: نظريات ابن الهيثم في طب العيون، واكتشافاته التي عنها أنشئ علم البصريات والتصوير، فكانت آلات التصوير، ومثل نظريات أبي حامد الغزالي في النفس البشرية، ومنها عرف علم النفس، ونظريات عبد الرحمن بن خلدون في العمران وعلم الاجتماع، ونظريات الخوارزمي في الخرائط والخطوط البرية والبحرية والجوية، وغيرها.

وإذا لم تتوافر شروط مواصلة الإبـداع وتحسينه للحضارة العربية الإسلامية، فإنه يبدو أن شروط معاودة الإقلاع الحضاري في إطار مشروع العالمية الإسلامية الثانية[1] قد توافر بعضها داخل خريطة العالم الإسلامي وخارجها، حيث مناطق هجرة رجال الفكر والرأي والعلم والإعلام وغيرهم.

ولذا، قد يتفق مفكرو التاريخ وفلاسفته المنصفون منهم أن آدمية الحضارة كانت من أثر دعوة الأنبياء والرسل وأعمالهم وسلوكياتهم في منطقة ما يعرف لدى البعض اليوم بالشرق الأوسط الذي يعدّ مهد الحضارات الأولى بفعل ما تلقوه من وحي وتأييد رباني ولو بمقتضى السنن الخارقة، ثم بفضل ظروف المنطقة وأحوالها المعتدلة وبيئة جغرافيتها الاستراتيجية، فهي ملتقى البحار والأنهار، وهذا مما أجبى إليها ثمرات كل شيء، فتأهّلت لتكون مصدر عطاء ونشر أفكار، حيث عرفت المنطقة حضارات كثيرة، ففي

١- محمد أبو القاسم حاج حمد: العالمية الإسلامية الثانية، ط٢، دار ابن حزم، بيروت، ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.

المنطقة صنع نوح عليه السلام سفينته، وهي أعظم إنجاز حضاري مادي يومئذ، وفيما حولها بني أعظم معلم حضاري تاريخي على يد إبراهيم عليه السلام وهو الكعبة الشريفة، يضاف إلى هذا إنجازات عاد التي لم يخلق مثلها في البلاد، وإبداعات أصحاب الأيكة، وقوم تبع وغيرهم من الأقوام الذين أسهموا في بناء صرح المجد الحضاري، وهذا لا ينكر الحضارات الأخرى التي أشار إليها القرآن الكريم وجاء ذكرها خارجه، مثل حضارة بابل[1] التي جذبت إليها شعوبا وقبائل من مناطق نائية في الجزيرة العربية، كما هو الشأن في تاريخ العصور الحديثة، حيث تعرف الحياة النزوح من المناطق المتخلفة إلى المناطق المتقدمة، فتسهم الشعوب المهاجرة في ازدهار حضارة البلاد المهاجر إليها وتطويرها، ولذا فالهجرة سنة من سنن تداول الحضارة كالذي يشهده التاريخ المعاصر فيما يعرف بهجرة العقول أو هجرة الأدمغة وهي سنة قديمة قدم التاريخ وليست بدعا من العصر الحديث.

ولذا يبدو أن التوارث الفكري والتراكم المعرفي التاريخي هو الذي جعل الشرق اليوم صاحب حجة إيديولوجية فكرية قوية لها مساهماتها في نمو الحضارات عبر التاريخ، وازدهارها كل حين بفضل موروثه التاريخي الغزير الذي تجلى واضحا في كثير من الأحقاب التاريخية منذ عهد حمورابي بل من قبله، مما ترك بصمات إبداع الشرق التاريخية واضحة على جسد الحضارة الإنسانية منذ كانت حتى ولو كان أصل دعوات الأنبياء التوحيد وتوجيه الناس إلى الخير، ولم يبعثوا لإقامة المدن وهندسة بساتينها وشق طرقها وبناء قصورها، ولكن كان لهم حظ في الصناعة والبناء والاستطباب، وهذا لم يخرج دعواتهم عن وظيفتها الأصل ولم يصرفها عن مسارها ويصدها عن مقاصدها حتى لا تعيش رسالات الأنبياء غير واقعية من بعدهم على

١- ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾.سورة البقرة، الآية ١٠١ .

هامش الحياة وتغيب عن الواقع وتختفي عن الأنظار، وهم الذين جاءوا ومن معهم لإقامة الدين والدنيا معا.

- **إنجاز آدم عليه السلام**: عند دراسة تاريخ البشرية الحضاري يطرح سؤال ماذا أنجز آدم عليه السلام لذريته؟ وما إبداعه فيما يصطلح عليه في لغة العصر الحضارة؟.

وحتى تساهم هذه الدراسة في الإجابة عن هذا السؤال ينبغي أن يعرف أن أهم ما أنجزه آدم عليه السلام وضع أسماء المسميات التي تحدد وظائفها في الحياة، فيما تعلّمه آدم عليه السلام عن الله من الأسماء كلها، بمعنى فيما أقدره الله عليه، وعن آدم تعلم أبناؤه بمقتضى سنن التسخير وتهيئة الوجود وقابلية الإفادة منه والتوارث عنه.

ولعل أهم ما قام به آدم عليه السلام أداء وظيفة الخلافة في الأرض، المصطلح الذي حمل بعد تطوره ولاسيما على مستوى اللغة معنى واسعا، فتضمن النظام السياسي، والنهج الحضاري[١]، وفي القرآن الكريم ما يحقق كثيرا من معاني مقاصد إطلاق مصطلح الخلافة الذي قد يكون أهم ما فيه في هذا سياق وظيفته، فوظيفة خلافة آدم عليه السلام ومن خلاله وظيفة البشرية في الأرض هو تحقيق غاية الوجود الإنساني، لأن آدم عليه السلام هو مؤسس الحياة البشرية، ومادام الأمر كذلك فإن طبيعة نهج الحياة البشرية بميزاتها مازالت ممتدة في البشرية حتى اليوم.

ولعل من الأدلة امتداد صفة آدم عليه السلام وطبيعته في البشرية، حيث أحب الخلود الذي وسوس له الشيطان به عندما دلّه على شجرته في قوله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ

١- نظام الخلافة الذي يفترض أن يكون نظاما سياسيا في العصر الحديث إلى جانب النظم السياسية الأخرى كالجمهوري والملكي.

شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴾[١]، ولذا نشدت أمم من بعده الخلد مثل عاد ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ﴾[٢]. والفراعنة الذين انتهجوا التحنيط وسيلة لتحقيق هذه الغاية، ومازالت الأمم تعتمد التحنيط ولو بمصطلح آخر كحفظ الجثث ولو إلى حين قريب، ومثل تماثيل قوم نوح عليه السلام ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر، وحفظ الجثث عن طريق الصور، وتماثيل عائلات، مثل الذي أثارته تماثيل بوذا في أفغانستان[٣]، والحضارة ليست هي بناء المصانع وإنشاء الجامعات وإقامة العمارات والمؤسسات التجارية والإدارية ونحوها بقدر ما هي قيم ومبادئ ونظم وإدارة وتسيير ومناهج تمكين وأدوات تنفيذها في الحياة والسيطرة على دواليبها[٤].

ومن هذا المنطلق أسس آدم عليه السلام بدايات الحضارة الإنسانية الأولى من موقع الخلافة أو الاستخلاف الذي يعني سياسة الخلق، وعمارة الأرض وفق سنن مناهج الحق والعدل والحرية، ومثلما انطلق إنجاز محمد عليه الصلاة والسلام الحضاري الأول من **إقرأ**، فكان إنجاز تجربة الحضارة العربية الإسلامية، انطلق إنجازآدم عليه السلام الحضاري الأول في الحياة البشرية من قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ﴾[٥] فمن الفعل الماضي «**علم**» وفعل الأمر «**إقرأ**» وما بينهما كان الرصيد الحضاري البشري العام، والذي تعززت روافد إبداعاته بعضها ببعض منذ آدم إلى محمد عليهما الصلاة والسلام إلى ما في امتداد رسالة الوحي من مشكاتهما، ومازال يتواصل الإنجاز الحضاري من خلال تداولات الأمم وشعوبها عليه، والذي قد يكون أولى في حديث هذا المقام هو الموازنة بين

١- سورة طه، الآية ١٢٠ .

٢- سورة الشعراء، الآية ١٢٩ .

٣ - التي أثارت ضجة كبيرة يوم دمرتها حركة طالبان.

٤ - بهي الخولي : آدم عليه السلام فلسفة تقويم الإنسان وخلافته، ص٣٣ .

٥- سورة البقرة، من الآية ٣١ .

«وعلم آدم الأسماء كلها» فيما أوحي لآدم عليه السلام و«إقرأ باسم ربك» فيما أوحي لمحمد ﷺ به.

ومن الموازنة بين «**علم**» فيما أوحي به لأول الأنبياء، و«**إقرأ**» فيما أوحي به لخاتمهم، تعرف دلالة الفعل الماضي «**علم**» في سياق الآية بمعنى أقدر آدم على أن يسمي الأشياء، ومن القدرة ما هو ظاهر وما هو مستتر، والإنسان حين يخرج الاسم من دائرة المستتر إلى دائرة الظاهر يكون قد أبدع، والإبداع لا يكون إلا من خلال اللغة، وإلا ظل مستترا أبكم لا ينطق، وتائها من دون عنوان، حتى يوضع اسم المسمى، فيدخل دائرة الاستعمال والخدمة[١].

ومن سنن الله أن العلم مرتبط بالقراءة، فلا علم من دون قراءة، ولا قراءة من دون علم، واللغة هي التي استطاعت أن تحبس العلم في وسائل القراءة، ولولا اللغة لعجزت القراءة عن الإفصاح عن العلم والإخبار به، ولذا أمر محمد رسول الله ﷺ بالقراءة بعد تعليم آدم عليه السلام، فجاءت القراءة بعد العلم، وذكر العلم بعد القراءة في قوله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾[٢].

ولولا القراءة لضاع العلم، ولولا العلم ما عرفت القراءة، ولضاعت الأفكار، ونسيت التجارب، ومن سنن الله في الوجود أن يكون العلم والقراءة مصدري المعرفة والعمران.

ومن هنا كانت بداية إنجاز آدم عليه السلام وحيا من الله، فكان أصل الحضارة الأول السماء، وقامت على التوحيد العالم والاستخلاف المسؤول.

ولعل من هنا كانت حكمة دعوة السير في الأرض ليعرف كيف بدأ الخلق: ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ﴾[٣]، وحتى يعرف

١- جودت سعيد: إقرأ وربك الأكرم، ط١، المطبعة العربية، الجزائر، ١٩٩٠م، ص٦٤ . ٦٥ .

٢- سورة العلق الآية ٣ . ٤ . ٥ .

٣- سورة العنكبوت، الآية ٢٠ .

ما حققه الأنبياء، وقد ظل التوحيد الحقيقة التي دعا إليها الأنبياء كلهم وتداولوا عليها[1]، أما الأمم فإن يكفر بها بعضها يوكل بها البعض الآخر ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾[2] والقصد بالذين «إن يكفر بها» هم قريش والموكلون بدلا عنهم هم المهاجرون والأنصار[3] ومثل هذه الآية ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴾[4]، ومفهوم الاستبدال بعد التولي هو مفهوم التداول ذاته ولأنه من مرادفاته الذي يتحقق بين أمة وأخرى أو شعب وآخر حين يفقد الأول مبررات تواصله الحضاري فيأخذها الثاني عنه ليتبوأ ريادة التمكين.

- **إنجاز نوح عليه السلام:** لقد استخلف نوح آدم بعد نحو ٢٠٠٠ سنة، بحسب بعض المعطيات، وسمي آدم الثاني، واستخلف الذين آمنوا به عمن كذب به من قومه ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴾[5]

وإن أهم إنجاز نبي الله نوح عليه السلام الحضاري في جانبه المادي صناعة السفينة الذي يبدو أنه سبق حضاري عظيم في تاريخ البشر، لعل منه بدأ بناء السفن خلفة لمن بعده، ومع ما تطلبه صناعة السفن من مهارة وإتقان ربما لم يفاضله فيه يومئذ إلا ﴿ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ﴾[6] ولعل لفظ أتقن يتأصل مصطلحه في الاستعمال العربي من

---

١ – حيث أنه ما من نبي إلا وقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره.

٢ – سورة الأنعام، الآية ٨٩ .

٣– محمد سليمان عبد الله الأشقر:زبدة التفسير من فتح القدير، ط٢، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة الكويت، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م، ص١٧٦ .

٤ – سورة محمد، الآية ٣٨ .

٥ –ـ سورة يونس، الآية ٧٣ .

٦ – سورة النمل، الآية ٨٨ .

استخدام هذه الآية، والذي يبدو منه نحت مصطلح التكنولوجيا الذي منه صناعة نوح السفينة الذي هو بالاتفاق أفضل ما فيه من الناحية المادية صناعة السفينة المعبّر عنها في القرآن الكريم بالفلك، والفلك المشحون، وذات ألواح ودسر[1]، والجارية[2] بالضمير الغائب العائد على الفلك.

ومن أمر نوح عليه السلام بصناعة الفلك ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴾[3]، يفهم أن نوح عليه السلام عُلم صناعة السفينة، بإلهام من الله، مدة طويلة استعدادا ليوم الطوفان، وإذا كانت صناعة السفن معروفة في تاريخ الإنسان قبله فإنها كانت صناعة بدائية، ولذا يكون نوح عليه السلام قد طوّرها، وبصرف النظر عما قيل في وصف سفينة نوح وحجمها فإن من الأسئلة التي تطرح كيف صنع نوح سفينته؟ وهو ما قد يعرف من ألفاظ الآية «واصنع» فعل أمر يفيد الوجوب، ولكن هل يوجب على الإنسان ما لا طاقة له به؟ ثم لفظ «بأعيننا» الذي يفيد الإشراف والمراقبة، ولفظ «ووحينا» الذي قد يحمل جوابا عن أسئلة كثيرة، لأن من معاني الوحي اللغوية الإلهام، أي الاقتدار على فعل الشيء من غير خبرة سابقة، ولعل من روح الوحي الموهبة، ولكن إذا أراد الله أمرا هيأ له أسبابه، ومن تهيئة الأسباب ذكاء المعني بالأمر، ومع أن القرآن الكريم أخبر عن صناعة نوح إلا أنه لم يخبر عنه أنه علّم المؤمنين به صناعة السفن ودعاهم إليها مثلما علمهم التوحيد ودعاهم إليه، ثم هل صنع سفينته بيده؟ وهل ظل يتمتع بخبرة صناعة السفن بعد الانتهاء منها معجزة؟ إلى آخر الأسئلة والإجابة عنها التي لم يذكرها المفسرون وكأن صناعة السفينة ليست من دعوة نوح وإنما هي معجزة

---

١ - ﴿ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ﴾ سورة القمر، الآية ١٣

٢- ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ﴾ سورة الحاقة، الآية ١١.

٣- سورة هود، الآية ٣٧ . ٣٨ .

تؤيدها فقط، ومثلها صناعة داود عليه السلام ورفع إبراهيم عليه السلام قواعد البيت وقراءة محمد ﷺ من غير بيان الكيفيات مع أنه أميّ. ومن المعروف أن الأنبياء لا يتحدون أقوامهم إلا بمعجزة تفوقوا في علومها على أقوامهم مثل معجزة السحر مع موسى عليه السلام في قومه والطب عند عيسى عليه السلام مع قومه والفصاحة لدى محمد ﷺ مع قومه.

وأعتقد أنه لو كانت صناعة السفن جزءا من دعوة نوح لعلّمها قومه مثلما علمهم التوحيد وقيم الحق والعدل والقيم الإنسانية الأخرى، ولأدمج إبداعه الحضاري المادي في التجربة البشرية الصناعية ولصارت جزءا منها مثلما صارت دعوته إلى التوحيد جزءا من دعوة الأنبياء من بعده، وهذه أفكار وأسئلة تستحق البحث التاريخي الدقيق ليستقرأ منها كيف استخلفت الأمم بعضها البعض الآخر تجربة الإبداع الحضاري؟ وكيف دال إليها أمره من خلال نص القرآن الكريم أو خارجه؟ وليعيها مفكرو التاريخ سنة من سنن تداول الحضارة ماضية منذ كانت إلى أن تنعدم فتؤول نهاية العالم إلى مستقرها.

- **إنجاز إبراهيم عليه السلام:** إذا كان إبراهيم أبا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإنه لم ينجز أشياء الحياة من عدم، بل عرفت البشرية قبله نظما وفنونا حضارية، حيث عاش عمرا في بلاد بابل التي كان بها ما تستحق به مصطلح الحضارة حتى بمعايير العصر الحديث من حيث نظم الحكم، ووسائل العيش والعمران والمركب ومعرفة الزراعة واستغلال خشبها وثمارها وظلالها، فكانت قد اكتشفت الحياة الحضارية يومئذ من سنن الكون ما يبدو من علم إبراهيم بالكواكب في الآية الكريمة ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي

﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[1].

وقد كانت سنن بزوغ الكواكب وأفولها منذ جعل الله في الأشياء سننا تسيرها بالكيفيات التي أرادها الله بما يخدم الإنسان، حيث لكل شيء ناموس يظهر صفاته ووظيفته لن يستطيع مخلوق تعطيل أدائه أو تبديله، ومن سنن الله أن جعل الشمس تشرق كل صباح وتغرب كل مساء وإن غطتها الغيوم أحيانا والكل يجري لمستقر له، ولكن حين يشاء الله تعطيلها يعطلها وفق سنن خارقة مثلما عطلت وظيفة النار وهي الإحراق بأمر من الله في قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[2]، فتعطلت وظيفتها في الحياة استثناءا، ثم استأنفت وظيفتها الإحراق بعدما أدت خلال وقت محدد محجوز وظيفة البرد والسلامة، مثلما أدت عصا موسى عليه السلام وظيفة الحية وقتا حققت فيه الغرض المرجو منها، ومجال المعجزة ميدان واسع آخر تجري فيه السنن الخارقة استثناءا من السنن العادية القاعدة الطبيعية التي أدى الأنبياء من خلالها هي الأخرى وظائفهم في الحياة.

وهذا يفترض أن يطرح مفكرو التاريخ، وبخاصة من خلال الرؤية الإسلامية، سؤال كيف كان تاريخ إبراهيم عليه السلام أبي الأنبياء؟ ومثله تاريخ الأنبياء الآخرين وقد ابتلاه الله بكلمات، وجعله إماما، وعهد إليه وإلى اسماعيل أن يطهرا بيته للطائفين والعاكفين ويرفعا قواعد البيت؟ وماذا صنعته سيرته من أحداث في مجال السنن العادية وقد كان إماما ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا

١- سورة الأنعام، الآيات : ٧٥ ....٧٨ .

٢ - سورة الأنبياء، الآية ٦٩ .

﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ
لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا
ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ
قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ
مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1].

وحين قراءة تاريخ إبراهيم عليه السلام من خلال هذه الرؤية، فإن الفكرة التي جمع إبراهيم الناس حولها هي توحيد الله سبحانه وتعالى، أما المؤسسة فهي البيت الحرام الذي كان بمثابة مؤسسة الدولة الكبرى، كرئاسة الجمهورية ورئاسة الحكومة في لغة العصر، ولله المثل الأعلى، ولكن مادامت الأفكار أو الآراء تطرح خارج الرؤية الإسلامية، فإن الرؤى الأخرى تحقر إبداع الأنبياء ولاسيما في ميدانه المادي، فتعرض أعمالهم وكأنها لم يكن لها أثر عظيم في تاريخ البشرية، وإن كان لها فهو في مجال الوعظ والإرشاد.

و من مقاصد هذه الدراسة تعريف إنجاز الأنبياء الحضاري وإبداعه المادي الذي كان أبرزه في تاريخ إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام رفع قواعد البيت أي بناءه بعدما هدمه الطوفان، وهو إنجاز عمراني كبير ولاسيما بمعيار يومئذ، وهنا يطرح سؤال هل رفع إبراهيم قواعد البيت بإلهام له مثلما يلهم العامل أداء حرفته، فاستخدم عقله وفق منطق السنن العادية؟ أم بوحي فبنى إبراهيم عليه السلام البيت وفق السنن الخارقة؟ بما يشبه ما تصنعه كائنات حية مثل صنيع النحلة الذي تقوم به منذ القدم بأمر دوافع الغريزة، ولكن بوحي من الله أي بإلهام منه، لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾[2].

١- سورة البقرة، الآيات: ١٢٤ ....١٢٧ .

٢- سورة النحل، الآية ٦٨ .

فالنحلة مثل كائنات أخرى ليس لها عقل تستخدمه فيما تبدعه، مما قد يتساوى مع ما يطلق عليه الإبداع الحضاري لدى الإنسان الذي يستخدم عقله ويجهده، وهذا ما يميز بين إنجاز الحيوان في صنع بيوته واستطباب نفسه وحمايتها، وكسب رزقه وغيرها من الوظائف التي يؤديها في أجمل إنجاز، كالذي تصنعه النحلة والعنكبوت والنمل وعش الطير بالغريزة من غير تعلم، ولذا فرفع إبراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام قواعد البيت كان من خلال السنن العادية التي يوظف فيها العقل أفكاره ويستخدم ذكاءه فيعتريه الصواب والخطأ، ويجهد البدن ذاته فيصيبه التعب لأن حياة الأنبياء ليست كلها معجزات.

وقاعدة سنة «إذا أراد الله أمرا هيأ له أسبابه» ليست غائبة، وقد جعل الله للأنبياء صفات تعينهم على تحقيق مقاصد الحياة، كالذكاء والفطنة والبداهة، وهي مقومات الإبداع الحضاري، وكان يفترض أن تمتد هذه الصفات ومثيلاتها في الإنسان، ولاسيما في المكتسب منها، ومن المعلوم أن المؤمن بطبعه فطن كيس، ملتزم بالتي هي أقوم، راغب في التحضر.

فالإنجاز الحضاري المادي في رسالة إبراهيم عليه السلام ميدانه العمران المادي، وإلى جانبه إنجازات أخرى ميدانها ما يعرف بالعمران الاجتماعي،وهي التي أنجزها إبراهيم عليه السلام حول البيت العتيق حين أذن في الناس بالحج، ودعا ربه أن يجعل البلد آمنا، وأن يجلب أهله الأمن والثمرات، فكان أن تحققت حول البيت الحرام الوفرة الاقتصادية والسلم والأمان من الدعاء والآذان له.

وحين نقرأ قصة إبراهيم عليه السلام من خلال هذه الآيات بمنظور منطق لغة العصر ومصطلحاتها فإن الآذان يعني الإعلام والإتيان من كل فج عميق بحثا عن الخير النفسي والبيئي والديني، والأمن يعني السلام،

والثمرات تعني الاقتصاد[١]، أما ﴿ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ ﴾[٢] فإن لام لفظ ليشهدوا هي لام التعليل بمعنى من أجل، أما لفظ منافع مطلق، والنكرة تفيد العموم.

وإذا تواصلت الدراسة على هذا المنوال ومن هذا المنظور، فإن ترجمة ألفاظ القرآن الكريم إلى ألفاظ لغة اليوم المتداولة تقرب صورة الإبداع الذي أنجزه إبراهيم عليه السلام إلى تصور القارئ المعاصر وذهنه أكثر، مما قد يقرأها في القرآن الكريم من غير أن يتدبر معانيها، ويحاول تمثلها في الميدان المعاصر، لتتفتح له بصائر في الآفاق وفي الأنفس.

– إنجاز داوود عليه السلام: لقد قامت حضارة داوود عليه السلام[٣] بمقتضى السنن الخارقة مثلما قامت حضارات الأنبياء الآخرين من دون أن تنفصل عن الواقع أو تبتعد عنه، وإلا لما كان لها حظ في السنن العادية ولأصابتها سنن السقوط الحضاري فدمرتها تدميرا، ولذا طورها العقل البشري فأدخلها سنن الازدهار الحضاري وإن ظل يذكر إبداعها المادي والمعنوي مضافا إلى نبي الله دوود عليه السلام ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿١٩﴾ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ﴾[٤].

إن السنن التاريخية جارية في الآخرين مثلما مضت في الأولين فأبادت أقواما وأمما مثلما مازالت تبيد مدنا وشعوبا تخلت عن التزام سنن استمرار الأمن والهناء فتخلى عنهم مدد السماء وتوفيق الغيب، ولم يكن

١– سورة البقرة، الآية ١٢٦ .

٢– سورة الحج، من الآية ٢٨ .

٣ – ولد داوود عليه السلام في بيت لحم في فلسطين عام ١٠٨٥ ق.م ومات ١٠٠٠ ق.م بعدما حكم بني إسرائيل ٣٣ سنة وقيل ٤٠ سنة، وأسس دولة العبرانيين الثانية: محمد توفيق السبع: قيم حضارية في القرآن، ص١٨٢ .

٤– سورة ص، الآيات: ١٧ –٢٠ .

لهم نصيب في الحظ الذي فاز به الأولون عندما التزموا هدي الأنبياء، كالذي يفصح عنه في هذه الآية ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[1] وكأن داوود عليه السلام كان أول من امتهن مهنة الحدادة في التاريخ، ومن ثمّ انتشرت صناعته لتستخدم في الحروب والزراعة وغيرها، حيث تعرض هذه الآيات صورا حية معبّرة عن حضارة اكتنفها حنان السماء فكان لأهلها حظ تسخير الطير، ولين الحديد، والهدي إلى صناعة الدروع.

وقد جعل اللّه مؤسسها داوود عليه السلام نبيا خليفة وملكا على بني إسرائيل في فلسطين وما جاورها، بعد ما هزم جالوت وجيوشه ﴿ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2].

وقد استمدت ملامح حضارة داوود عليه السلام من صفاته ومعجزاته، وأنه كان محاربا شجاعا، ولهذا قتل جالوت الطاغية «وقتل داود جالوت وآتاه اللّه الملك والحكمة»، والذي منه يبدو أن نظام جند عسكره كان دقيقا قويا، فتوافر لحضارة داوود عليه السلام ما لم يتوافر لغيرها من الخوارق الجبارة التي ساعدتها على النماء والازدهار وتحقيق مشيئة اللّه في الأرض، ولذا كان فن الإعجاز في حضارة داوود عليه السلام كبيرا كتسبيح الطير والجبال ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾[3]، فهي حضارة سنن خارقة استثمرت في المعارف فأفادت في

---

١ - سورة سبأ، الآية ١٠ . ١١ .

٢ - سورة البقرة، الآية ٢٥١ .

٣ - سورة ص، الآية ١٠ .

بناء عالم أفضل ازدهر فيه حكم شريعة الله، وانتصرت إرادته، فتعززت مشيئة الإنسان ورغبته في إطار مشيئة الله، وذلك مثل تأويب الجبال مع داوود والطير، وفقهه معنى منطقها، وإن كان من أهم إنجاز داوود عليه السلام المادي الصناعة الحربية ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ﴾[1] والتي يتساءل فيها الأسئلة نفسها التي سئلت في تعليم آدم الأسماء وصناعة نوح السفينة ورفع إبراهيم قواعد البيت، وهي هل أنجزت وفق سنن عادية تعلمها داوود الإنسان أم وفق سنن خارقة تلقاها داوود النبي وحيا يوحى؟.

وإن الذي يتفق عليه أن صناعة داوود عليه السلام الحربية اكتنفتها طبيعة قومه ومرحلة البشرية التاريخية، والتي كأنها طغى الجبابرة فيها وكثر غزوهم الأمم والشعوب، فكان لابد أن تكون المعجزة من جنس ما تقووا فيه وتفوقوا، فبعث الله داوود عليه السلام نبيا خليفة وملكا مقدامت ذا بأس شديد يجيد فن الحروب والقتال بوسائل متقدمة عن عصره، فتعلم داوود عليه السلام هذه الصناعة ليقي المؤمنين بأس الحرب، وهم الذين سألهم الله سؤال توجيه وتحريض فقال «فهل أنتم شاكرون»[2].

ولذا، يفهم أن حضارة داوود عليه السلام كانت ذات صبغة صناعية عسكرية لها معامل السلاح ووفرة الذخيرة، وإن كانت صناعة قائمة على السنن الخارقة.

- **إنجاز سليمان عليه السلام:** لم يكن إنجاز حضارة سليمان عليه السلام[3] بعيدا في مقاصده ومستوياته عن حضارة أبيه داوود عليه السلام، حيث قامت أكثر حضارة سليمان هي الأخرى على السنن الخارقة

١- سورة الأنبياء، الآية ٨٠ .

٢- سعيد حوى : الأساس في التفسير، م٧، ص٣٤٨٤ .

٣ - لقد عاش في القدس ما بين ١٠٤٣ ق.م إلى ٩٧٥ ق.م

في مظاهر إعجاز رائع، فهي حلقة أخرى في تسلسل الحضارات التاريخي، حيث تكاد الحضارتان تكونان ذات الملامح نفسها، إلا أن حضارة سليمان يبدو قد أوغلت في الخوارق أكثر، وفي وصفها جاء قول الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ [1] سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا [2] مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ [3] وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ [4] إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[5] ويبدو أن أشد ما يصرف النظر إليه في الآية جملة «وأوتينا من كل شيء» حيث لفظ الكل يفيد الإطلاق الذي قد يكون حدد في الآية، وقيّد بأنه كان جندت من الجن والإنس والطير لسليمان عليه السلام، وقد يدخل القول في «شيء» حضارة أخرى هي حضارة سبأ.

وإن من أعظم إنجاز سليمان عليه السلام الحضاري المادي ما شيّده من هياكل وقصور وتماثيل قد احتوتها حضارته، وتحوّل المجتمع في عهده إلى مصنع كبير انصهرت فيه قوى البناء، وعملت الأيدي بالكد والمعاناة حتى اختلط صنع البشر بصنع الجن، فكانت مواكب العمل وفرقه تتألف من الإنس والجن، ولهذا كانت حضارة سليمان عليه السلام حضارة خوارق، يدل على ذلك: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ

١- الإرث انتقال ما كان للميت إلى الحي سواء كان مالا أو علما أو ملكا أو مجدا والمراد هنا النبوة، تفسير ابن باديس لسورة النمل ص٢٢١.

٢- أعطينا.

٣- نطق الطير.

٤- على سبيل التكثير .

٥- سورة النمل، الآيات: ١٦ -١٩ .

أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ
ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ
بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ
بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[1]، وقوله ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ
مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ
[2] وَتَمَٰثِيلَ [3] وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ [4] وَقُدُورٍ [5] رَّاسِيَٰتٍ ﴾[6] فليس له أو لأحد
في مملكته أن ينسى نفسه أو يتخاذل في عمله.

ولقد ارتكزت فلسفة حضارة سليمان عليه السلام على العلم والحكمة والعمل مثلها مثل حضارة داوود، وإن من عمال حضارة سليمان وبناة هيكلها الحضاري الإنس والجن والطير والريح، ويتمّ التنسيق بينهم بواسطة قيادة سليمان عليه السلام، ومن حكمة الله أنه سخر لسليمان طاقة من كل هؤلاء، بدليل تفقده الطير في قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾[7]،وإن الله جلت قدرته قد طوّع لسليمان كائنات وذلل له نواميس فجعل له كل شيء ميسرا سهلا في يده، فالهدهد يأتي بالأخبار والرسائل، والريح تستخدم وقت الحاجة في دفع السفن وذلك ما جعل حضارة سليمان نموذج ثراء وبهاء لا يبعد عن الله بل يزيد صاحبه قربا من ربه وشكراً لآلائه وتسبيحا له بالغدو والآصال.

ولذا فإن حضارة سليمان عليه السلام رغم ما تهيأ لها من وسائل الإعجاز لم تقعد أصحابها عن العمل، وقد صار التكليف العام من السماء لآل داوود

١- سورة ص، الآيات: ٣٤-٣٩ .

٢- مساكن وقصور ومساجد

٣- صور من طين ونحاس وزجاج

٤- جمع جفنة وهي قصعة كبيرة للأكل والجواب جمع جابية وهي أحواض ماء كبيرة .

٥- جمع قدرة وهي ما يطبخ فيه الطعام وهي قدور عظيمة وراسيات لا تبرح مكانها.

٦- سورة سبأ، الآية ١٣ . ١٤ .

٧- سورة النمل، الآية ٢١ .

ومنهم: سليمان ابنه ليكونوا قدوة في العمل[1] ولم يتواكلوا ويتكئوا على الخوارق لحديث رسول الله ﷺ «ما أكل أحد طعاماً خير من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داوود كان يأكل من عمل يده»[2] .والأصل أن تزدهر الحضارات وتتألق في رحاب الإيمان، مثلما تندثر وتذهب ريحها في ميدان الكفر والفسوق عن أمر الله.والمتتبع لحضارة سليمان عليه السلام يجزم أنها حضارة علم ترجمت إلى عمل، سددتها الحكمة الراشدة، وأنشأتها السواعد المؤمنة، وغشيتها السنن الخارقة، وأنجزتها السنن العادية.

- **إنجاز أنبياء آخرين:** بعد بيان شيء من إنجاز الأنبياء نوح وإبراهيم وداود وسليمان عليهم السلام يجدر بيان إنجاز أنبياء آخرين، كإدريس عليه السلام، وقد كان أكثر ميادين إنجازه ثلاثة: أنه أوّل من خطّ بالقلم بعدما خطّ بالحجارة والمسمار ثم كان القلم أهم أدوات كتابته، ولذا قيل سمي إدريس لكثرة درسه الكتب، وكان إدريس عليه السلام أول من خاط الثياب ولبسها فهو خياط، وقيل خطّ بالقلم وليس بالإبرة[3]، وكان أول من تعلم علوم الفلك والحساب وعلّم قومه فسنّ سنن الكتابة والتعليم والخياطة وعنه أخذها قومه حتى كانت سنن الأمم كلها من بعده.

أما إنجاز عيسى عليه السلام الحضاري فقد كان في الطب، حيث من معجزاته ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ﴾[4]، والشاهد إبراء عيسى عليه السلام الأكمه والأبرص وهي أمراض لم يصل إلى إبرائها الطب إلى اليوم، والسؤال هو كيف تمّ له عليه السلام ذلك؟ هل وفق السنن

١- جودت سعيد: العمل قدرة وإرادة، ط١، دار الثقافة للجميع، دمشق، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.

٢- رواه البخاري

٣- أبو الفداء إسماعيل بن كثير: قصص الأنبياء، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م، ص٧١.

٤- سورة المائدة، الآية ١١٠ .

الخارقة التي لا دخل لعقل الإنسان فيها ولا طاقة له بها أم وفق علم السنن العادية التي يستخدم العقل في إنجازها وإبداع الأخذ بأسبابها؟.

وأما يوسف عليه السلام[١] فقد كان له في التخطيط الاقتصادي ما يستحق الاهتمام ولو خارج نبوته عليه السلام، سيما وأنه تولى خزائن ملك مصر فطبّق من التخطيط ما جنّب به بلاده أزمة اقتصادية، ومن طبيعة التخطيط التحليل العلمي لوقائع الأزمات واعتماد الخبرة، يعرف هذا من أمر يوسف عليه السلام قومه ليذروا ما حصدوه في سنبله حتى لا يفسده السوس، فمن أين له هذه الحكمة التي جنّب قومه من خلالها أزمة اقتصادية؟ حين طلبوا منه الفتوى ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾[٢]، ثم أطلعهم على المستقبل فقال ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾[٣] . فهذه، بلغة العصر، قراءة مستقبل نصح بها يوسف قومه لإعداد سياسة مواجهة مجاعة تتطلب مخازن حفظ الحبوب، ولذا قرر الملك أن يستخلص يوسف عليه السلام لنفسه ويقرّبه منه، ويوافقه على جعله على خزائن الأرض، بعدما قدم نفسه عليه السلام فقال ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾[٤] ولفظ حفيظ وعليم بهما مكّن ليوسف: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ

١- ولد ٢٠٠٠ ق.م .

٢ - سورة يوسف، الآية ٤٧ .

٣- سورة يوسف، الآية ٤٨ . ٤٩.

٤- سورة يوسف، الآية ٥٥ .

﴿يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُ﴾[1] حيث هذا من أفضل إنجاز يوسف عليه السلام الحضاري والذي كان مجاله الاقتصاد وما أدرك ما الاقتصاد في العصر الحديث ومثله العصور الأخرى كلها.

ومن إنجاز موسى عليه السلام السحر الذي ربما كان يؤدي دورا حضاريا يومئذ في إحقاق الحق وإبطال الباطل، وهو في ذاته علم يدرس ويتعلم، والذي لعله عندما خرج عن نطاق السنن الخارقة إلى السنن العادية صار علم الكيمياء، ويستخدم في خدع الكاميرا والحيل السنيمائية وغيرها مما يوهم العين، ولذا ما خلت رسالة نبي من إنجاز حضاري مادي ملموس.

والسؤال الملح هو: هل إنجاز الأنبياء الحضاري، فيما ليس من العقيدة في تصور البعض، قام على تخمين عقلي واجتهاد فكري مطلع على علاقة الأسباب بمسبباتها وقادر على الربط بينها أم هو تنفيذ لأمر الله والتزام محض بالوحي ولا دخل لتدبير العقل وإرادة الإنسان فيه؟ ويبدو أن جواب هذا السؤال ينشطر شطرين أحدهما يرى أنه من المعجزة وهي أمر خارق للعادة يظهره الله على يد نبي من أنبيائه فيما لا طاقة له به وأنه لو أراد تكراره من تلقاء نفسه لما استطاع إلى ذلك سبيلا مرة أخرى، ولكن أقدره الله عليه مرة واحدة ولو شاء إقداره عليه مرة أخرى بل مرات أو إقدار غيره عليه أو على ما وساه لكان قدرا مقدورا، ولذا فالمعجزة بحث من بحوث السنن الخارقة قد يطول الحديث فيه.

أما الشطر الثاني من الجواب فمنه أن السنن الخارقة ليست في متناول أكثر الناس لكنها في متناول صفوة إما عن طريق المعجزة أو الكرامة أو خارق آخر كالتوفيق والحظ فيما لا يتحكم الإنسان في أسبابه ولا يتحقق له عن طريق تخطيطه، وعلى هذا يترتب سؤال آخر ضمن جواب الشطر الثاني من السؤال الأول هو هل يمكن أن يقوم الإنجاز الحضاري من دون

---

١ – سورة يوسف، الآية ٥٦ .

الأنبياء وفق مقتضيات السنن الخارقة؟ ويبدو أن الجواب بنعم ليس بعيدا عن الصواب بل هو من جوهره لأسباب منها: أن الخوارق حق والحق لابد أن يسنده دليل والدليل لابد أن ينشأ من بين الأسباب والمسببات وهذا عين منطق العقل وقاعدة العلم ولو لم يدركه إلا قليل من الناس إلى اليوم، وهو ما قام عليه الوجود منذ كان، وأن الخوارق مازالت تتكرر في التاريخ ولو لم تتوسع دائرتها ولم تحدث إلا على يد قليل من الناس من ذوي الكرامة والتوفيق والحظ والبركة وما سوى المعجزة التي انتهى عصرها بانتهاء عصر النبوة لتوقف أمر السنن الخارقة على التزام السنن العادية واعتماد السنن الجبرية، فهما مقدمة لها، وفي التاريخ الإسلامي ما يصدق هذا الرأي، حيث كثير ما يتوصل إلى مستويات من الإنجاز الحضاري عن طريق توفيق الله من خلال حكمة إصابة القول والفعل لتقوى الله، ولورع إنساني وزهد أخلاقي، وهذا مما لا يؤثر على العلاقة بين أداء التربية الروحية والإعداد والتخطيط والبرمجة، لأن الخوارق تبدو معارف وعلوما لم يهتد الإنسان إلى كثير منها، وفي إنجاز علوم العصر ما يشبه المعجزات مثل إبداع مجال السرعة ونقل الصورة والصوت، وكيف يشبه قصة معجزة الإسراء والمعراج مما يعني أن الموازنة قد توصل إلى قاسم مشترك بين المشبّه والمشبه به، وإلى إمكانية إنجاز مشبه مثل المشبه به عن طريق العقل، لا سيما إذا كان في الأمر توكل على الله حق توكله.

- **إنجاز الأقوام الحضاري:** إن أساس الإبداع الحضاري حوافز الإيمان بالغيب التي تعني،في العقيدة الإسلامية، اليوم الآخر وجزاءاته وعقوباته الجنة والنار، إلا أن من الإبداع ما كان من حوافز ومقاصد أخرى كالتفاخر وحماية النفس بمقتضى منطق السنن العادية التي لا تنحاز لأحد لعقيدته أو لقوميته أو لوطنيته أو لغيرها، وهذا ما كان لأقوام وشعوب عاشت خارج الإطار الإيماني، مثلما هي تجارب أقوام ذكرها القرآن الكريم كعاد وثمود وأصحاب الأيكة وقوم تبع وأمم أخرى، ومثلما هي تجربة الحضارة

الغربية التي أساسها غير ديني فيما تزعمه من العلمانية وفصل الدولة عن الدين والعلم عن الإيمـان، وأن لا دخل للعقل في الدين ولا للدين في العقل، وإن ادعت غالبيتها المسيحية .

١- **إنجاز عاد:** نسبة إلى عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام[١]، وقد ورد ذكر عاد في مواطن من القرآن الكريم مجملها آيات تصف طبيعة حضارتها، ولذا فالقرآن الكريم مصدرها التارسخي الحق الوافر أكثر من غيره إلا ما كان من أقوال المفسرين مما التمسوه خارجه كالتوراة ثم بعض الآثار وبقايا الأقوام فيما بعد[٢]، ومن الناحية الجغرافية فإن «عاد» قوم سكنوا جزيرة العرب واستقروا فيها بعد الطوفان، فكانوا في جنوبها اليمن وإن كثرت الآراء في تحديد موقع عاد فإن القرآن الكريم ذكر أنهم سكنوا بالأحقاف[٣] ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[٤].

ومن الناحية التاريخية عرفت عاد بعد طوفان نوح عليه السلام ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾[٥] حيث إن معظم الأزمان تحدد بين الأقوام في القرآن الكريم من خلال لفظ قبل وبعد، وإن استخدم لفظ بعد أكثر من قبل مثلما يبدو من هذه أن قوم عاد كانت بعد قوم نوح، مع التذكير بأن الاستخلاف من مرادفات التداول.

١- لقد أوردت سلسلة هذا النسب أكثر كتب التاريخ التي اهتمت بهذا الموضوع.

٢ - محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن، ج١ في بلاد العرب، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٩٥م.

٣- الأحقاف جمع حقف، وهو الكثب من الرمال، وقد كانت منازل عاد على المرتفعات المتفرقة في جنوب الجزيرة العربية، يقال في حضرموت، سيد قطب : في ظلال القرآن، م٦، ص٣٢٦٦ .

٤- سورة الأحقاف، الآية ٢١ .

٥- سورة الأعراف، الآية ٦٩ .

ومن خلال آيات القرآن الكريم، تظهر « عاد» وكأنها تخصصت في جوانب من الحضارة أكثر من أخرى، ومنها العمران وهندسة البناء والصناعة ﴿ أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ[1] ءَايَةً[2] تَعۡبَثُونَ[3] وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ[4] لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ[5] وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾[6]، ومثلها آية أخرى ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗ﴾[7] وهذا مستوى حضاري وصف في القرآن أنه لم يخلق مثله في البلاد يومئذ ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾[8] مما قد يوقف القارئ أمام جملة ألفاظ هذه الآيات مثل لم يخلق مثلها في البلاد التي مما قاله المفسرون فيها بصرف النظر عن معنى العماد هل هي عماد الخيم أم كناية عن طول قوم عاد الجسدي، فإن من الأقوال في معنى إرم أنها مدينة ذات منازل جميلة بالأحقاف بين عدن وحضرموت سموها باسم جدهم الأول بعد عوص بن سام بن نوح، وقد بناه شداد بن عاد عندما سمع بوصف الجنة فقال أبني مثلها واستغرق بناؤه لها ٣٠٠ سنة، ولما بناها وكان منها مسيرة يوم وليلة قبل دخولها أهلكها الله بريح صرصر عاتية، ومن هنا جرت عليها سنن السقوط الحضاري لعدم اتخاذها ما يسمى في العصر الحديث بالضمانات والاحتياطات المحصنة لها من أمر الله بطاعته وتقواه.

١- المكان المرتفع .

٢- البناء الضخم الشاهق المدهش هادي السائرين وملفت أنظار السائحين.

٣- تلعبون من غير الحاجة إليه، بل لمجرد اللعب واللهو، وإظهار القوة سعيد حوى : الأساس في التفسير، م٧، ص٣٩٣٤ . ولم ينكر القرآن على حضارة عاد الوسيلة المنتهجة بل أنكر الغاية المرجوة تفسير ابن باديس ص٥١٢.

٤- قال قتادة هي البروج المشيدة وقال الشيخ عبد الحميد ابن باديس هي القصور ص٢١٢.

٥ - طلب التأبيد والبقاء وهو فضول ناشدته أقوام منذ القدم.

٦- سورة الشعراء، الآيات: ١٢٧-١٣١ .

٧ - سورة الأعراف، من الآية ٦٩ .

٨- سورة الفجر، الاية ٦ .

وفي إطار مستوى عاد الحضاري حديث طويل عن ازدهاره الصناعي والعمراني والزراعي مثله كمثل ما بلغته ثمود عاد الثانية وفرعون الذين فيهم ورد قول الله تعالى﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾[1]، وبات في ذمة التاريخ أن أكثر ما ذكرت به عاد في القرآن الكريم القوة[2] وبناء المصانع.

ب- **إنجاز ثمود:** إن حضارة ثمود نسبة إلى ثمود من الثمد وهو الماء القليل، وقيل سميت ثمود ثمودا لأن أباهم هو ثمود بن عاد بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام. ومن الناحية الجغرافية ورد أن ثمود سكنت الحِجْرَ بوادي القرى بين الحجاز وتبوك من جزيرة العرب. والحجر هو سهل وجبل، وهم الذين سموا بأصحاب الحجر ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[3] ومازالت تعرف الحجر بمدائن صالح عليه السلام. ومن الناحية التاريخية ذكرت ثمود بعد عاد في القرآن الكريم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ ﴾[4] وثمود هم الذين نجوا مع هود عليه السلام يوم الأحقاف، ولذا فإنه من المؤكد بالنص القرآني أن صالح بعث بعد هود وقبل موسى عليهم السلام ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾[5].

وقد تمثل جوهر مجد ثمود الحضاري في العمران والزراعة، حيث القصور

١- سورة الدخان، الآيات: ٢٥ -٢٩ .

٢- عبد الحميد بن باديس: تفسير ابن باديس، ص٥١١ .

٣- سورة الحجر، الآيات: ٨٠ -٨٤ .

٤- سورة الأعراف، الآية ٧٤ .

٥ - سورة إبراهيم، الآية ٠٨ . ٠٩ .

والجنات والبساتين والحدائق ذات البهجة، وكلها ازدهرت بمقتضى سنن التخطيط فبلغت مستوى حضاريا عظيما بمعايير يومئذ :﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾[١] .

ومن خلال هذا الوصف الرائع تتضح ملامح حضارة ثمود متميزة ولو شبهَت حضارة عاد، لأن من سنن التداول أخذ الخلف الحضاري عن سالفه ثم إضافة إبداعه فيما لم يبدع فيه السلف، ولذلك أطلق على ثمود عاد الثانية وإن لم يكونوا في الأرض ذاتها. ومما يلفت النظر في حضارة ثمود أنها نشدت الرفاهية مثلما نشد غيرها الخلد، ومازال ينشده إلى اليوم وإن كان أحد أسباب سنن السقوط الحضاري ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴾[٢] .

وإن من أهم ما برعت فيه ثمود النحت[٣]، حيث استطاع قوم صالح النحت من الجبال قصورا فارهة بقصد التمتع والترف، ومازالت مدائنهم مدائن صالح بالحِجْر شاهدة تدهش من يراها، حيث هي من المدينة المنورة على بعد نحو ٤٠٠ كلم،وهي التي مر النبي ﷺ بها في غزوة تبوك في العام ٩هـ ومنع أصحابه دخولها وشرب مائها، ولعل الحكمة من وراء ذلك الابتعاد عن ديار الظالمين[٤] .

١- سورة الأعراف، الآية ٧٤ .

٢ - سورة الإسراء، الآية ١٦ . ١٧ .

٣ - فن حضاري تاريخي قديم قد يكون لثمود فضل تأسيسه ومازال يطوره اكتشاف السنن ويزيد في رونقته يوما بعد يوم

٤- توفيق محمد السبع : قيم حضارية في القرآن الكريم عالم ما قبل القرآن، ج١، ص١٦٧ .

وبالإضافة إلى براعة ثمود في العمران، فقد برعت بالمستوى ذاته أو أكثر في الزراعة، فتفننت في إنشاء الحدائق وغرس الجنان والبساتين ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ[1] ﴾[2] .ومع هذا المبلغ الحضاري من العلم والخبرة انخرطت ثمود مثل أمم أخرى في سنن سقوط الحضارات ولو من دون وعي، فلم تشفع لها براعتها في العمران والنحت والزراعة، وكأن ازدهارها الحضاري وقوته هو الذي استدرجها إلى مواطن الهلاك وأحلها دار البوار حين تنكرت لصوت الحق فأفسدت في الأرض مع ما ذكّرهم نبيهم به ونهاهم عنه ﴿ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[3].

وتستوقف الباحث ألفاظ كثيرة فيما مر من آيات، مثل «بوأكم» و«تتخذون من سهولها قصورا» و«تنحتون الجبال بيوتا فارهين»، هذه الألفاظ وغيرها حين تستقرأ في ضوء التطور اللغوي الحضاري المعاصر ستشعر القارئ بالمستوى الحضاري لأمم الحضارات التاريخية القديمة، ومثلها أخرى في السقوط الحضاري كالرجفة والصيحة والريح الصرصر وغيرها، ولذا كان حظ هذه الأمم من السقوط الحضاري واحدا، كادت تكرر أسبابه ذاتها فتمضي فيها السنن ذاتها، ولكن هذا لا يعدم إنجاز الأمم الحضاري، حيث كلما غلب الشر كان السقوط الحضاري، وإذا ما غلب الخير أذهبت الحسنات السيئات فاستمر ازدهار الأمم الحضاري ولو إلى حين من الدهر، فيما يظل التاريخ يحتفظ للأمم بآيات إنجازها ولكن تظل سنن التداول تقلب الحضارات بين الأمم، ومن هنا تشكلت أهمية التاريخ في

١ – الفاره: هو الذي يعمل بنشاط وخفة ولا يأتيه ذلك إلا من خبرته بما يعمل وعلمه بدقائقه واعتياده عليه، تفسير ابن باديس، ص٥١٦.

٢– سورة الشعراء، الاية ١٤٦ .

٣ – سورة الأعراف، الآية ٧٤ .

بيان وظيفة السنن الماضية إلى أقدارها.

- **إنجاز مدين:** حضارة مدين نسبة إلى مدينة مدين بين الحجاز وفلسطين حول خليج العقبة، حيث تقع على أهم الطرق التجارية القديمة التي تبدأ من جنوب الجزيرة العربية مرورا بمكة المكرمة والمدينة المنورة وتبوك ونهاية بالشام، ولذا قام اقتصاد مدين على التجارة[١] أكثر من غيرها، وأهل مدين هم أصحاب الأيكة[٢]، ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴾[٣] .

ومن أهم ما يميز إنجاز مدين الحضاري الاقتصاد والتجارة الواسعة التي عرفت فسادا كبيرا مثل تطفيف الكيل والميزان، وبخس الناس أشياءهم، فلم تخضع لنظام تعامل صحيح، ولذا دعاهم أخوهم شعيب إلى تصحيح هذه الأخطاء ومثلها: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾[٤].

فكانت هذه هي الأسباب التي أجرت على مدين سنن السقوط الحضاري ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾[٥]،والرجفة زلزال شديد أصابهم فرجّت الأرض رجا وذلك عاقبة الظالمين.

١-جمال عبد الهادي محمد مسعود ووفاء محمد رفعت جمعة : أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ جزيرة العرب، ج١ .

٢- لقب سميت به مدين قوم شعيب .

٣ - سورة الحجر، الآية ٧٨ .

٤- سورة الأعراف، ألاية ٨٥ . ٨٦ .

٥- سورة الأعراف، الآية ٩١ .

- **إنجاز سبأ**: وسبأ مدينة **موقعها** جنوب اليمن[١]، وعاصمتها مأرب، وملكتها بلقيس التي حكمت المنطقة حكما شوريا في منتصف القرن ١٠ ق.م[٢]، وبلقيس هي إحدى ملوك حمير، وقد وجدت في منطقتها حضارة زاهية تقوم على الزراعة وبناء السدود، وقد تزامن حكمها وحكم سليمان عليه السلام الذي حكم نحو سنة ٩٥٠ ق.م. ويشهد التاريخ أن أمم الحضارات اليمنية كانت من أسبق الأمم إلى بناء السدود المنيعة لحصر المياه والانتفاع بها في تعمير الأرض، وإقامة السدود لا تتم بالفكر البدوي والعمل اليدوي بل تتوقف على علوم فكرية منها: الهندسة، والهندسة تتوقف ثمراتها على علوم كثيرة، وعلوم العمران كعروق البدن يمدّ بعضها بعضا[٣].

وبناء سد مارب يمثل إنجازا حضاريا، فقد وصف بأنه أحد سدود اليمن التاريخية العظمى، وأن له حائط ضخم أقيم في عرض وادي، ويبلغ طوله ٨٠٠ ذراعا وعرضه من أسفل ١٥٠ ذراعا وارتفاعه بضعة عشر ذراعا. والظاهر أن سد مأرب بني بالتراب والحجارة، وكان يتسرب من منافذه الماء إلى الجنان عن يمين وعن شمال مقفلة بعوارض ضخمة من الخشب والحديد، وقد نسب إلى مأرب وهي مدينة تقع في الشمال الشرقي منه، وبينها وبينه متسع من الأرض تبلغ مساحتها ٣٠٠ميل مربع، وقد كانت مدينة مأرب قفرا قاحلا، فأصبحت بعد بناء السد رياضا وبساتين عبّر عنها بالجنتين عن اليمين والشمال ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾[٤].

ومع ما يفوح به وصف حضارة سبأ من مستوى ممتع معطر بروائح

---

١ – سميت سبأ نسبة إلى جد العرب اليمنية حمير تفسير ابن باديس، ص٣٤١.

٢– أنظر تفسير ابن باديس، ص٣٤٤.

٣– أنظر تفسير ابن باديس، ص٥١٨.

٤ – سورة سبأ، الآية ١٥ .

البساتين وهناء الأمن وسعادة وفرة الاقتصاد[1]، وهو الذي إذا ترجم إلى لغة العصر في أسلوب شيق أفصح عن مبلغ من العلم والحضارة، ولكن آفات الحضارات أن أصحابها هم الذين يهدمونها بعدما بنوها ولو من دون وعي، حين تجري عليهم سنن السقوط الحضاري كسبأ الذين أعرضوا عن نهج الله وانصرفوا عنه ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾[2].

وأعتقد أنه من يؤتى قدرة استنطاق ألفاظ القرآن الكريم وحسن استخدامها في الإخبار عن إنجاز الأنبياء الحضاري وإنجاز الأمم القديمة يتكشف له مستوى من مبلغ العلم الذي أنجزه التاريخ الحضاري، والذي أسندت ألفاظه إلى فعل الأنبياء، مما يطرح سؤالا ربما تكرر طرحه في هذه الدراسة كثيرا، هو هل الفعل الحضاري العلمي كان وفق منطق السنن العادية أم السنن الخارقة؟ مثل لفظ الفعل «صنع» الذي أسند إلى نوح عليه السلام ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾[3] والفعل «رفع» في حق إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾[4] والفعل «علم» في حق داود عليه السلام ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾[5] ؟

وهذا ما تستنبط منه سنن قيام الحضارات وسقوطها وتجددها وتداولها بين الأمم والأقوام والشعوب بموافقة السنة الجارية والتعرض لنفحات السنن الخارقة، وهي السنن التي تأسست عليها الحضارات منذ كانت،

١ – لعلهم كانوا مثل قريش الذين أطعمهم الله من جوع وآمنهم من خوف.

٢– سورة سبأ، الآية ١٥ . ١٦ .

٣– سورة هود، الآية ٣٧ .

٤ – سورة البقرة، الآية ١٢٧ .

٥– سورة الأنبياء، الآية ٨٠ .

ومازالت تجري عليها إلى أجل غير مسمى وإلى قدر مقدور، حيث التاريخ ميدان تطبيقها واستنباطها والمستقبل فضاء يقرأ من خلالها، وإن كان الإنجاز المادي ليس هو أفضل ما يذكره التاريخ لأن إلى جواره من قيم المعنى ما قد يفوق قدر الإنجاز المادي.

- **حضارات أخرى في القرآن**: هناك من الحضارات التاريخية ما ذكره القرآن بدون مصطلحه ومنها ما أشار إليها إشارة واضحة أو عابرة. ومنها:

١- **حضارة بابل**: لقد ذكرت بابل في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾[١]، والذي ازدهر من هذه الحضارة بالصفة التي ذكرها القرآن تعليم السحر على يد هاروت وماروت، ويعتقد أن هاروت وماروت ملَكان نزلا ليظهرا للناسِ الفرقَ بين السحر المطلوب تجنبه، وبين المعجزةِ التي هي دليلُ نبوّة الأنبياء عليهمُ السلام، فكانا يُعَلّمَان تعليمَ إنذارٍ لا تعليمَ نصح وتوجيه، كأنهما يقولان: لا تفعل كذا، والقصد التجنب أي فلا تتعلم السحرَ معتقدًا أنّه حقّ فتكفُرَ[٢]، والواضح من الآية أن هذا كان في عهد سليمان عليه السلام.

ولعل ثمّة حكمة في إنزال هاروت وماروت في بابل لأنها كانت عاصمة الحضارة العظمى يومئذ ببلاد العراق وغيرها، مما يدفع الباحث إلى التوسع في أخبارها فيما سوى القرآن الكريم من كتب الآثار وقد يكون منها التوراة، ولكن هذا البحث مقيد بإشارة القرآن لهذه الحضارة فقط.

١- سورة البقرة، الآية ١٠٢

٢ - محمد سليمان عبد الله الأشقر: زبدة التفسير من فتح القدير، ص٢٠.

ب- **حضارة الروم**: لقد كان للعرب الذين ذكرت أكثر حضاراتهم في القرآن الكريم صلة بحضارة الفرس والروم، حيث الفرس وثنيون في الشرق والروم نصارى في الغرب، وقد كانا يتناوشان جغرافية العرب والحبشة، ومن حسن حظ العرب أن عاشوا بين الدولتين ولو كان بعضهم تبعا للروم كالغساسنة والآخر تبعا للفرس كالمناذرة، حتى جاء الإسلام وبشر بغلبة الروم ثم غلبة الفرس في بضع سنين[1]: ﴿ الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[2] ومن بين قوة الروم والفرس انبثقت الحضارة العربية الإسلامية بعد أن طحنتهما الحروب وكأن القدر مهّد بهزائمهما لبعضهما البعض لانتصار الإسلام عليهما، حيث ما هي إلا سنوات حتى صارت القسطنطينية عاصمة الروم بين يدي العرب المسلمين ومثلها فارس العاصمة الأخرى.

ج- **حضارة فارس**: لم يذكر القرآن الكريم هذه الحضارة وإنما سكت عنها لحكمة ولأسباب، حيث من أساليب مناهج القرآن ألا يجعل اهتماما كبيرا للأسماء بقدر ما يهتم بالمفهوم ويشتدّ اهتمامه بأخذ العبرة واستخلاص الفائدة.

وقد كان في قدر الله أن الفرس ستسلم يوما حينه لا تكون أخطاؤها معرة تنعت بها، ولذلك، لم تذكر حضارة فارس في القرآن الكريم أو شيئ منه، وإنما فهم ما فهم وما سيفهم من موقع إضمارها في آية غلبت الروم، حيث

---

١ – وكان البضع أربع سنوات بعدما ظل الأمر جدلا بين المسلمين والمشركين العرب. أنظر: عمر فروخ: الإسلام والتاريخ، ص٢٣.

٢ – سورة الروم، الآيات: ١-٦.

بني فعل غُلِبَتْ للمجهول وهو ما يجعل الدرس يبحث عن الفاعل والذي ربما يتفق المؤرخون أنه هنا الفرس، وأن الغالب لابد قد أهلته قوة الغلبة قهر بها الروم وفق منطق السنن العادية أو حكم السنن الخارقة بعدما أخذت بقوة أضمرها القرآن الكريم استولت بها على مساحة واسعة من خريطة العالم يومئذ.

- **الحضارة الإسلامية**: لقد غَنِمَ الإسلام من خريطة الروم والفرس كثيرا وصحح من إيديولوجيتهما ما صحح، ومن ثمّ هيمنت عقيدته وأحكام شريعته وأفكاره على أجزاء مما كانتا عليه، ولذا صار الإسلام يتأهب من خلال إيديولوجيته للهيمنة مرة أخرى مثل الأولى لاقتداره على الربط بين الدين والحياة وصبغ الحياة بالصبغة الإيمانية، والجمع بين الوحي والاجتهاد، والأصالة والمعاصرة، والصلح بين متناقضات الوجود الفكرية والعلمية والإيديولوجية والتكنولوجية تصالحا يأخذ من كل طرف حسناته وإيجابياته، ليشكل تيارا فكريا حسناته أكثر من سيئاته، ومنافعه أكثر من أضراره، والقدرة على احتواء رعونة إيديولوجيات العصر وتكنولوجياته لانتهاجه نهج الوسطية والاعتدال والتزامه التوازنات واعتماده أساليب الإقناع ومحاججة الآخر، وفي الوقت نفسه فإن الإسلام قوة روح تدفع للإيمان به مثلما يتبنى العلم الذي يستخدم آليات دعوته ومنها آلية الإعجاز العلمي الذي أصبح بابا كبيرا يدخل منه الناس إلى الإسلام أفواجا، إلى جانب حق فرض الجهاد على المؤمنين به كل من موقعه بقصد الدفاع، ومن هنا صار الإسلام منتظرا في كل ميدان لينازل غيره، حيث يجمع قواه بقصد تصدر العالم من خلال سنن التداول الحضاري وتحقيق مرتقب الإنسانية.

أما المسلمون فقد ورثوا عن قرب وعن بعد أجزاء كبرى من الحضارات القديمة، وأبدعوا هم الآخرون حين أسهموا في الحضارة البشرية بما

أنجزوه بحوافز إيمانية وتوجيهات الوحي وأوامر تكاليفه[١] وما ورثوه عن الآخرين في شتى حقول المعرفة، ثم أضافوا إبداعات أخرى اقتضتها ضرورة إدارة الدولة الإسلامية مثل معرفة تقديرات الزمان الفلكية لمراقبة أوقات الصلاة وضبط مواعدها، هذا الذي أدى إلى الضبط الإداري لمواقيت العمل، فازدهر علم الفلك وحساباته الزمانية، والتنظيم الإداري من خلال أداء فريضة الصلاة والزكاة والصوم والحج.

وإلى جانب هذا، ازدهر علم الحساب والرياضيات لمعرفة مقادير الزكاة والخراج والجزية، ونصاب حقوق الميراث، وبالإضافة إلى ذلك، عرفت طرق الخرائط الجغرافية التي اقتضتها رحلة الحج والعمرة، مثلما ازدهرت الخطط الحربية والعسكرية استجابة لفريضة الجهاد ونداءات الفتوحات الإسلامية، ولذا فإنه من أثر نداء عقيدة التوحيد ومقتضياتها والاستجابة لها ولدت حضارة متكاملة الجوانب منفتحة على تجارب الآخرين.

وإن باتت الحضارة العربية الإسلامية في نظر مهندسي الفكر الإيديولوجي جزءا من التاريخ وأخباره، ولكن يبدو أن هؤلاء غفلوا حقيقة هي أن حوافز إبداع الأمة الإسلامية الحضارية الأولى مازالت قائمة تتوثب لتجديد الإبداع ذاته واستئنافه من حيث انتهى إليه الآخرون بعدما انطلقوا مما انتهت إليه لئلا يكرروا الإبداع ذاته فيما لا يعقل في منطق المسار التاريخي الحضاري، ولذا، فإن مرتقب العالم الإسلامي من سنن التداول الحضاري سيستأنف إبداعه الجديد فيجدده من حيث ما انتهت إليه تجارب فصائل الحضارة العالمية على مستوى مناطقها الجغرافية وأفكار مناهجها الإيديولوجية وقوتها التكنولوجية ومصالحها الاقتصادية وغيرها، مع إضافة طرح ضروريات العصر الحديث ومقتضياته.

وإذا تساءلنا عن تخصص الحضارة الإسلامية، فأعتقد أنه ليس

١- سنن الحديث في قيام الحضارات وسقوطها، مخطوط، الدكتور محمد هيشور.

للحضارة الإسلامية تخصص تعرف به وتتميز به عما سواها من الحضارات الأخرى، وإنما لها في كل مقال قول وفي كل منبر خطاب مثلما كان لها في دور العلم ومخابره إبداع ومازال لها في كل ميدان إسهام، وهذا ما ينتهي إليه الباحث في إبداعها والمتتبع لآثارها، ذلك لأنها الحضارة المآل التي أودعها التاريخ أمانته وحطّ بين يديها رحاله، ولكن يبدو أن التأريخ قد جنى عليها يوم ذكر من إبداعها بعضا ولم يذكر البعض الآخر لأسباب منها: زهد علماء الإسلام في فترات من تاريخه في الاهتمام بما صار يسمى علوم الطبيعة، وحتى فيما سمي بالعلوم العقلية والشرعية أغلقوا باب الاجتهاد فيه، ومن هنا ضاق اهتمامهم حتى صار لا يعمل أكثر من اجتراره الماضي، بل واختصار علومه في الفقه والنحو والصرف، فكانت ظاهرة الشروحات والمختصرات والحواشي تبدأ من حيث انتهت وتنتهي من حيث بدأت، تدور في حلقة مفرغة وكأن بوصلة طريق الإبداع ضاعت أمامه، مثلما ضاعت سنن الاكتشاف بين يديه.

ومن طبيعة التاريخ أن يسود فترات منه هذا الذي حدث لأمة الإسلام مما يسمى بفترات التيه، فتعتم أيامه وتُظْلَمُ كأنها ليل ثم لا تلبث غير بعيد تشرق شمس يوم أفضل من أمس، ولم يكن التاريخ الإسلامي بمنأى عن هذه الظاهرة، وقد أعطت كل مرحلة من مراحله بما جادت به قرائح أبنائه من إبداع حضاري، فقد أعطت المرحلة الأولى منه النفخة الروحية فهبت ريح الإيمان الذي تربت عليه أجيال القرون الخيرة الأولى منذ بدء الوحي إلى أن كادت تتوقف في معركة صفين عام ٣٨هـ في نظر مالك بن نبي، ثم كانت مرحلة العقل و الإبداع العلمي في العصر العباسي، حيث أكثر علماء العلوم الطبيعية من مواليد العصر الأموي ولاسيما في دمشق والأندلس، وفيه عاشوا وإن لم يذكر التاريخ من علمه إلا قليلا.

ولذلك استقر في مطاف التاريخ أن الحضارة العربية الإسلامية حضارة

علوم إنسانية أكثرها في الفقه والبلاغة والنحو، وحين الاستدراك على هذا يعرف أن هناك إبداعات في ميدان الفكر وعلوم المادة والطبيعة، ولكن حينما دال الأمر الحضاري من الحضارة العربية الإسلامية إلى الحضارة الغربية الحديثة لم يبدأ علماء هذه الأخيرة من حيث انتهى علماء الإسلام ولاسيما في ميدان علوم المادة والطبيعة، بل تنكروا لانتماء إبداع هذه العلوم إلى الحضارة العربية الإسلامية وضيعوا حقوق المؤلف والمخترع، لأن علوم الحضارة العربية الإسلامية أشدّ ارتباطا بانتمائها العقدي ولا يمكن فصلها عنه، حيث الروح الإيمانية العقدية تجري في معارفها العقلية والعلمية، أما معارفها الشرعية فإنها واضحة الانتماء حتى ولو آمنوا ببعضها وكفروا ببعضها الآخر، مثلما هي تجربة القانون الفرنسي في الإفادة من فقه الإمام مالك أثناء الحملة الفرنسية على مصر فيما سمي بالرسالة الحضارية[١] سنة ١٧٩٨م، ومثل تجربة بريطانيا في الإفادة منعلم الميراث، وغيرها مما يرشح فرص المآل الحضاري الحديث إلى العالم الإسلامي ويعظّم حظه فيه أكثر من غيره.

١ - محمد جلال كشك: ودخلت الخيل الأزهر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨م، ص١٢٣.

الفصل التاسع

مآلات مستقبل الحضارة

- **مفهوم المآل**: إن الاهتمام بمصطلح المآل ومفهومه ضعيف، ولذا قد لا يكون بين يدي الباحث ما يستعين به لتوضيح ما يريد تحقيقه في موضوع المآل، خاصة و أن مصطلح المآل قليل الاستخدام[١]، ولذا ظل موقعه شاغرا، وإن كان لفظ المآل مشتقا من فعل آل يؤول بمعنى صار إلى مصير وتحول إلى حال آخر إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

إن سنن إيتاء الملك مثل نزعه هي الأخرى تستنبت في ذات الأمة ولا تستوردها من خارجها، فهي سنن ذاتية عادية وجبرية وخارقة تبدأ من تغيير ما بالنفس[٢] نحو الأحسن[٣] وترسو عند سنن إعداد القوة الذاتية، وهذا ما يقتضي بيان بعض سنن استنبات مآل السقوط الحضاري.

- **سنن استنبات مآل السقوط الحضاري**: من السنن أن تجري السنن العادية من خلال سلوكيات الإنسان وتصرفاته وأعماله السلبية العقائدية كادعاء الخيرية العرقية حتى تحاول أمة الحضارة اقتحام مجهول مستحيل كطلب الخلود، والاقتصادية المالية كحب الترف وانتهاج موارده،والسياسية كالرغبة في الهيمنة، وهذه سنن مستنبتات سنن مآل السقوط الحضاري الذي لا يحصل في زمن قصير،وإنما يحتاج إلى حين قد يطول حتى تكتمل أكثر قدرات الحضارة الجديدة وتستكمل أدواتها وتتأهل لخلافة الحضارة المنهارة.

ومن الجدير الإشارة إلى أن السقوط الحضاري يستنبت من خلال جملة سنن منها:

١- مالك بن نبي: الحقيقة والمآل، جمع وتقديم نور الدين خندودي، ط٢، دار عالم الأفكار، الجزائر، ٢٠٠٨م.

٢- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ سورة الرعد جزء من الآية ١١.

٣- لقد تردد لفظ "أحسن" في القرآن الكريم كثيرا مما يعني أن أهل الإبداع والتجديد مناشدون بتحقيقه، مثل ﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ سورة العنكبوت، جزء من الآية ٤٦. ومثل هذا ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ سورة النحل الآية ١٢٥. وغيرها .

١- **ادعاء الخيرية:** مازال ادعاء الخيرية في ذاكرة الأمم والشعوب كالنار في الرماد لا تلتهب إلا عند الاقتضاء حين تثيرها أسباب الالتهاب والاتقاد، ولذا قد لا يعبأ إلا قليل من أهل الفكر والوعي بأثر ادعاء الخيرية في سلوكيات النفس البشرية وتوجيه أفكارها الإيديولوجية وتحوّل المجتمعات والحضارات وصنع أحداث التاريخ.

وأعتقد أنه من حق الإنسان أن يدعي ولكن لن يكون لادعائه احتراما وتقديرا إلا إذا أورد له أو عليه دليلا، ولذا فإن ادعاء الخيرية والأفضلية لدى الأمم والشعوب والأفراد والجماعات لابد أن يقدم دليل عليه ليسنده في الواقع ويكسبه مصداقية وإلا لا معنى له مثلما هو ادعاء بني إسرائيل حين قالوا: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ ﴾[١]، وهذا مما يزيد بهتان ادعاء الخيرية لدى الإنسان إلا بشروط، ولذا يبدو أن وهم ادعاء الخيرية ليس إلا تضخما للأنانية . ومع أنها ظاهرة تاريخية قديمة فندها النقد ولم تصمد أمام حججه شيئا إلا أنها مازالت تتبع، مثلما يذهب بنو إسرائيل إلى أنهم شعب الله المختار، الزعم الذي أساموا بسببه من استطاعوا ظلمه من الشعوب سوء العذاب حتى اعتقدوا فقالوا ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ ﴾[٢] والآية واردة في سياق ضياع الأمانة، والأميون هم العرب وغيرهم من الأمم مما سوى أهل الكتاب،فلا حرج في ظلمهم ماداموا خالفوا دين اليهود والنصارى[٣]. وهذا ما يشبه ما كان يعتبره اليونان بربرا[٤]، ومازال مثله في التمييز العنصري في الغرب بين الأبيض

١- سورة المائدة، جزء من الآية ١٨.

٢- سورة آل عمران، الاية ٧٥

٣- محمد سليمان عبد الله الأشقر: زبدة التفسير من فتح القدير، ط٢، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م، ص٧٤.

٤- فؤاد محمد شبل: منهاج توينبي التاريخي، ص١٩.

وغيره، ولعل العديد من الحروب شنت بسبب ادعاء الخيرية التي اعتقدها الألمان فيما سموا أنفسهم به العرق الآري.

ولكن الخيرية في الأمة الإسلامية ليست في العرق ولا الجنس وإنما هي في القيم والمبادئ أي ليست في الموصوف وإنما في الصفة، ولذلك هي مشروطة ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾[1]. ولذا حتى تكون لخيرية الأمة إسلامية مصداقيتها، لابد أن تلتزم شروط إخراجها للناس كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[2] والإيمان بالله، وهي الشروط التي إذا فقدتها فقدت خيريتها.

– **السعي إلى الخلود**: لقد سعى الإنسان منذ القدم إلى الخلد،ولكن انتهى إلى طريق مسدود، ولم يحقق من خلده إلا أنه استطاع أن يحافظ على جسده في إنجاز نادر عرفته الحضارة الفرعونية، حيث نجح علم التحنيط في الحفاظ على جثث الفراعنة، ولذلك كان علم التحنيط علما عظيما وإن انقرضت أكثر أخباره حين ضاعت حقائق تجاربه ودفنت أسراره، وإن مازالت نتائج التحنيط شاهدة على هذا المبلغ العلمي الحضاري، إن لم يُقْرَأ هذا النجاح قراءة إيمانية وفق منطق السنن الخارقة لقوله الله تعالى في حق فرعون: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾[3] أي ننجيك بجسدك بدون روح بعدما قذفه البحر لتكون لمن سيأتي من الأمم عبرة، حينما ترى جثتك مطروحة في العراء لا روح فيها[4] . ثم كأن الله شاء

---

١ – سورة آل عمران، جزء من الآية ١١٠.

٢ – لقد أسس أحد الدعاة مشروعا في معنى هذه الآية سماه وزارة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣ – سورة يونس جزء من الآية ٩٢.

٤ – محمد سليمان عبد الله الأشقر: زبدة التفسير من فتح القدير، ط٢، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م، ص٢٨٠.

أن يظل علم التحنيط في تجربة الحضارة الفرعونية بين السنن الخارقة والسنن العادية، ولذلك ما كاد يتكرر التحنيط ويتعلم من الحضارة الفرعونية فينتقل إلى الحضارات الأخرى مع أنه رغبة قديمة قدم الإنسان منذ آدم عليه السلام من يوم أن وسوس له إبليس حين قال له: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٍ لَّا يَبۡلَىٰ ﴾[1] . ومن ثمّ بات وكأن الخلد فطرة تراود الإنسان فيبتغي تحقيقها وإن عجز عن نيل مناه فإنه يحمد له عدم اليأس في سعيه إلى الخلد، مثلما لم ييأس في ميادين أخرى، حيث الإصرار سر من أسرار تواصل الإبداع الحضاري، ولذا تكرر سعي طلب الخلد في حضارات أخرى كحضارة عاد.

وقد حكى القرآن الكريم عنهم فقال: ﴿ أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعۡبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ﴾[2]، ومن هنا يفهم أن قوم عاد حين حصنوا منجزات حضارتهم وبنوا بكل ريع آية واتخذوا مصانع متينة شديدة القوة فقد سعوا إلى الخلد. ومازال يتكرر السعي حتى كان العصر الحديث، فنجحت الحضارة الغربية في التحنيط هي الأخرى، حيث استطاعت تجميد الأجسام وكل المواد الحية الرخوة القابلة للفساد والتعفن عن طريق اكتشاف سنن التجميد باكتشاف سنن التبريد، مثلما استطاع الإنسان في العصور الخوالي، وقد زادت استطاعته في تخليد أفكاره وعلومه ومعارفه عن طريق التأليف والتدوين ثم جاءت مرحلة التسجيل بالصوت والصورة.

ولكن إذا عجز الإنسان عن تخليد جسده فإنه قد أصبح أكثر قدرة على تحنيط علومه وأفكاره وآرائه، وإن اقتدر على هذا منذ القدم فإن جديد اقتداره الحديث أشدّ وأبقى، وقد منّ اللّه على رسوله ﷺ فقال له: ﴿أَلَمۡ

١ – سورة طه، الآية ١٢٠.

٢ – سورة الشعراء، الآية ١٣٠ .

نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ﴾[1]، والشاهد أن رفع الذكر تخليد معنى، وهو التخليد الذي ينبغي أن يكدح الإنسان من أجل تحقيقه والذي من خلاله تخلّد مآثر الحضارات، وتخليد ذكر حمورابي في القانون أفضل من تخليد جسد فرعون، وعلى هذا يقاس تخليد العظماء بعد تخليد ذكر الأنبياء والرسل، مثلما قال الشاعر:

فاحفظ لنفسك بعد الموت ذكرها   فالذكر بعد الموت عمر ثان

- **انتهاج الترف**: الترف آفة مما يصيب الحضارات من الآفات حين تبلغ مستوى الازدهار، وهو مؤذن بالأنانية والتفاوت الاجتماعي في الحضارات، وهو مبتدأ من مبتديات سنن سقوط الحضارات، وهو عندما يتضخم يستولي على جزء واسع من سلوكيات الإنسان في حياة الشعوب والأمم وبخاصة الحياة الاقتصادية والاجتماعية إلى أن يبلغ مبلغا كبيرا فيؤدي إلى انهيار الحضارة، لذا كانت حكمة الوصية الإسلامية «اخشوشنوا فإن الحضارة لا تدوم»، لأن الترهل والبذخ ورقة العيش ولطف المعاملة في غير محله من علامات الترف، ولذا زهد المسلمون في طيبات الحياة في مراحل استقامة سلوكياتهم وانطباق أقوالهم على أفعالهم مع ما أباح لهم دينهم من الطيبات وملذات العيش، ووعدهم بأنها خالصة لهم يوم القيامة.

ولذا، لم يكن الترف سلوكا إسلاميا يحكم حياة المسلمين أيام عز الأمة الحضاري واجتهاداته، إلى أن أصبح المسلمون يتخلون عن أخلاق دينهم، فدخل الترف حياتهم الخاصة أفرادا ومنها تسرب إلى الحياة العامة، وانخرط فيه كثير منهم ناسين التحذير القرآني: ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾[2]، فدخل المسلمون في حكم قبضة سنن سقوط الحضارات، والذي تظهره هذه الآية أن السقوط

---

١ – سورة الشرح، الآية ١......٤.

٢ – سورة الإسراء، الآية ١٦ .

الحضاري يبدأ من رأس الأمة وليس من قاعدتها وشعبها، وإن سار أهل القاعدة وراء أهل القرار والرأي حق السقوط عليهم كلهم، وهذا لا يعني أن ظاهرة الترف تبدأ بالضرورة من رأس الشعب أو الأمة وإنما قد تنشأ من القاعدة ثم تصعد حينما يصبح أهل القاعدة هم الملأ الأعلى، وكأن معنى الآية :حينما يريد الحق سبحانه هلاك قرية بعدما توفرت أسبابه في أصحابها يجعل بعض الرعية أمراء فيهلك الكل لعدم أخذ البعض بيد البعض الآخر لينجو الجميع.

وإن لفظ القرية مستخدم في القرآن الكريم بمعنى المساكن المجتمعة مما يدلّ على الجمع[1] بما يرادف معنى المدينة والأمة والحضارة، والمصطلحات كلها تعني الكيان المنظم في وحدة ما من وحدات التجمع البشري السياسية أو الاجتماعية إلى آخر ما تبدع فيه الحضارات، ثم كيف كان الترف سنة من سنن المآل الحضاري نحو السقوط وهو دليل ازدهار الحضارات؟ ذلك لأن حال الترف في الأمة بقدر ما هي مرحلة سمو وازدهار حضاري، فهي مرحلة بداية الانهيار لأن الترف يعني الفساد والفسوق عن أمر الله بالتحلل من ضوابط الأخلاق الإنسانية التي قام الحكم وسادت الحضارات عليها منذ كانت الحضارة الأولى، وصدق الشاعر شوقي إذ يقول:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هُمُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وإن لفظ الفسوق المستخدم في القرآن الكريم كثيرا ما يوصف به سلوك أقوام بما يعني الخروج عن الشيء الذي جوهره الخروج عن أمر الله بالانحراف عنه والتحلل من التزامات أحكامه، الأمر الذي لا يكون إلا بعد أن يتخلى الإنسان عن ضوابطه الإنسانية التي تميزه عما سواه بالإفراط في اقتراف خطإ ما من خطايا الحياة، والتخلي عما به يكون التقدم الحضاري، لأن السنن تؤدي إلى مقصد المآل الحضاري.

١- عبد الحميد بن باديس: تفسير ابن باديس، منشورات المعارف، الجزائر، ص١٦٠.

- **سلوك الفضول**: الفضول هو زائد الحياة في المبنى والمعنى كالطعام والملبس والمركب والمسكن والسلوك من غير زهد كالذي في العبادات، ولعل الفضول يشبه ما سمي في الفقه النافلة وإن دعا الفقهاء إلى الأخذ بها من غير زهد ومن دون التخلي عن الالتزام، لأن القناعة بالزهد طوعا مدرج من مدارج السالكين[1] خشية الله من غير غلو ولا تطرف حتى لا تكون في المسلمين رهبانية[2] كالتي ابتدعها نصارى بني الأصفر في الروم، وقد سعى الفقهاء إلى غلق باب الجانب السلبي من النافلة فيما سمي عندهم بالأحوط، وهو ترك ما لا بأس به اتقاء شر ما به بأس لأن اشتداد رغبة الإنسان في تحقيق المزيد كلما نزل منزلة من التفوق وأدرك سلما في التألق، الأمر الذي يتلو نشوة الانتصارات فيقصد الإنسان المزيد نحو الأفضل والأرقى والأقوى في حساباته، فينتفخ فضوله ويكبر طموحه أكثر فأكثر حتى كأنه يطارد ما لا طاقة له به أو مجهولا ليحوّله إلى معلوم ثم يبدو مجهول آخر له فيطارده، حتى تتوالى انتصاراته يوما بعد يوم . والشعوب والأمم مثل الإنسان في رغبات طموحاتها المشروعة كلها مادامت تلتزم الوسيلة الشريفة وتبتغي مثلها الغاية الشريفة حتى ولو كانت طموحات زائدة عن الضروري من الحياة، وهي المعبّر عنها بالفضول أو الترف، وإن كانت رغبة الفضول الحضاري العام جامحة ولا حصر لها، ولذا لابد من قيدها واشتراط الشروط عليها لتواصل رسالة التحضر الحق وإن كان في الفضول ما هو مباح، ولعله هو الذي اشتق لذاته من ذاته ما صار يطلق عليه الفضول المشروع، وهو ما يكافئ قدرة الإنسان ويكفي ذاته ويؤهله إلى تولي مسؤوليات الحياة السياسية أو العلمية أو العسكرية، حيث من هنا يأتي الإبداع الحضاري ويواصل رسالته نحو المزيد من التقدم والازدهار، ومن

١- ابن القيم الجوزية: مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين.

٢- عبد المنعم عبد الشفيع: نماذج من الحضارة القرآنية في سورة الروم، دار البيان، مصر، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م، ص٧١.

ضده حين يكون في غير محله يأتي سقوط الحضارات ويؤول من أمة إلى أخرى أو من شعب إلى آخر..

- **رغبة الهيمنة**: الهيمنة لفظ أصيل في اللغة العربية، ورد ذكره في القرآن الكريم صفة من صفات الله[1] وصفة للقرآن الكريم ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[2]، فالهيمنة هي الاشتمال المؤتمن على الشيء والقيام بشؤونه ومراقبته والحكم في أمره بحق[3] .ولكن يبدو أن مفهوم الهيمنة خرج بسلوك الغرب له عن هذا المعنى وأصبح يعني السيطرة والاستيلاء على الآخر من أجل إدارة شؤونه وتصريف أعماله والتحكم في أداءاته والإفادة من ثرواته وقدراته وكأنه قاصر أو سفيه، ولذا ما كانت ترجمة الهيمنة في الواقع من الغرب إلا بمعنى الاحتلال قصد الاستيلاء.

والهيمنة نية وفكرة تراود كل أمة وشعب بل تراود حتى القائد والمفكر عندما يحسّ بالقدرة على العطاء وغلبة الآخر، لأن الهيمنة مركب عقدة تنشأ عند كل مقتدر فيريد أن يكون لغيره ما له ولكن في إطار هيمنته.

وتجارب رغبة الهيمنة كثيرة ومنها تجربة العولمة الحديثة وما صار يطلق عليه الوضع العالمي الجديد، والذي له سوابق تاريخية مهدت له فتدرج من خلالها نحو ما يريد حتى خرج مولودا جديدا من أصلاب أسلافه القدامى، فهو خلاصة تجارب النظم العالمية التاريخية القديمة التي أرادت السيطرة على العالم بالقوة العسكرية كالرومان أو الإيديولوجية كاليونان، والهيمنة غاية قد لا تدرك وإن أدركها بعضهم فإنها تقاوم ولو بعد حين،

١- ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾ سورة الحشر، جزء من الآية ٢٧.

٢ - سورة المائدة، جزء من الآية ٤٨ .

٣- محمد سليمان عبد الله الأشقر: زبدة التفسير من الفتح القدير، ط٢، إصدار دولة الكويت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م، ص١٤٦.

مثلما تُريَ تجربة احتلال فرنسا للجزائر، ثم خرجت تجرّ أذيال الخيبة، وتجربة الشيوعية الروسية ولو تحت شعارات براقة كشعار فرنسا التي رفعت عنوان الرسالة الحضارية يوم دخلت مصر فيما سمي حملة نابليون سنة ١٧٩٨م لتجعلها منطلقا نحو الشرق، ثم انكمش المد الفرنسي عن خريطة المشرق العربي لصالح بريطانيا وامتد على خريطة المغرب العربي وإفريقيا السوداء، وكأنه كان هناك تفاهم في تقسيم خريطة العالم وتوزيع ثرواته في اتفاقية سيكس بيكو سنة ١٩١٦م. وفي الوقت ذاته كانت هناك محاولات أخرى تشتغل بأساليب غير عسكرية للهيمنة العالمية يعززها السلاح أحيانا وتخفيه أحيانا أخرى، فتعتمد غيره كالإعلام ولعل أبرز هذه المحاولات: الحركة الصهيونية، والحركة التبشيرية، والحركة الاستشراقية .

ومن هنا، فإن الهيمنة تظل حلما إذا لم تتوافر شروط تحققه، أما وأن الهيمنة محاولة أو محاولات أو مبادرة أو مبادرات، فقد راودت منذ القدم كثيرا من الأمم والشعوب بل حتى الجماعات والأفراد فهي إما رحمة إنسانية أو مظلمة تاريخية، أما وأن الهيمنة مبادرة حضارية فهي مشروع رسالة إلى الآخر لتخرجه من التخلف إلى التحضر ومن الظلمات إلى النور، مثلما هي تجربة هيمنة الحضارة العربية الإسلامية، والذي يميز بين الهيمنة الاحتلالية والهيمنة الحضارية معناها ووسائل تحقيقها وسلوكيات أصحابها ومقاصدها.

ولذا فالهيمنة قد تكون بمعنى العالمية التي هي انتشار تلقائي يشمل ما تقتدر عليه قوتها، أما العولمة فهي تعسف استخدام من أجل اشتمال الآخر، ولذا فالإسلام هيمنة عالمية، بالمعنى القرآني لمفهوم الهيمنة، والاحتلال هيمنة عولمة، ومن هنا كانت العالمية والعولمة فكرتين متميزتين في المضمون والمنهج ولكل منهما مبرراته التي يحقق بها ادعاءاته ويبرهن على مصداقيته، ومن هنا كان للهيمنة مبررات وشروط هي سننها وإلا ظلت ادعاء لا سند لمصداقيته ولا فائدة ترجى منه.

وفي العصر الحديث ظهرت نظم الهيمنة لتصنع تكتلات تسعى من خلالها إلى تعزيز قوتها أكثر فأكثر، ولعل من أبرز هذه التكتلات من هو مرشح إلى هيمنة التداول الحضاري الذي ظلت تطلبه القوى العالمية ولو بلسان حالها أكثر من قولها وتبيّت نية الهيمنة والرغبة التاريخية فيه، والتي انحدرت من أقصى التاريخ إلى الوضع الحديث مثلما انبعثت من كوامن النفس لتكون طبيعة النفس البشرية الحريصة على الهيمنة والسيطرة وحب الاستغلال مصدرا من مصادر السنن منذ كان الوجود إلى الأبد إلا من استثني من القاعدة، وإن حاولت القوى العالمية تلوين أعمالها وسلوكياتها وصبغها بصبغة الشرعية الدولية تحت شعارات براقة، ولكن رغبة الهيمنة وهي جملة وساوس أفكار مازالت تراود القادة الإيديولوجيون السياسيون والعسكريون، وقد تعززت هذه الرغبة في العصر الحديث عندما توافرت شروط إمكانية تحقيقها أكثر، فأراد قادة محدثون توحيد البشرية في إطار إرادتهم، وتطويعها لرغباتهم، وتوجيهها وفق مصالحهم الخاصة.

وأعتقد أنه من حق كل قوة ترى الكفاءة والجدوى في نفسها أن تسعى إلى الهيمنة العالمية ولكن بشروط منها اعتماد مبررات إنسانية مقبولة ومقنعة للآخر إيديولوجيا بمقاصدها وإلا كانت المقاومة مثلما هي تجربة الاحتلال في كل زمان ومكان.

- **منطق السنن ومؤشرات المستقبل**: من المتفق عليه أن المستقبل يقرأ من مؤشرات الحاضر فهو ابنه، مثلما كان الحاضر مستقبل الماضي يوم كان الماضي حاضرا، فمراحل الزمان وأقسامه يخرج بعضها من بعض مثلما يلج بعضها في البعض الآخر، وبناء على ذلك، فإن المستقبل لن يقرأ إلا من مؤشرات الحاضر وملامح النمو فيه التي تتجلى يوما بعد يوم، فبعدما يتوفر الشرط يطلب مشروطاته وبعدما يطرح السؤال يلحّ على إجاباته، مثلما يعرف السبب ليبحث عن مسبباته والعامل عن معمولاته والفاعل عن مفعولاته.

ولذا أعتقد أن تجربة الماضي توفر وسائل لقراءة المستقبل من خلال ما تحقق، أو من خلال ما كان يفترض أن يتحقق، وحتما فإن المستقبل كله سيصبح حاضرا مثلما أصبح حاضر الأمس ماضي اليوم، ولكن الأمر في كيف سيكون المستقبل يوم يصبح حاضرا وفيه من المؤشرات ما يهدي إلى النجدين إما خيرا وإما شرا، لأن الناحية النظرية حسمت أكثر أمورها بالسلب وسيئاته أو بالإيجاب وحسناته ولكن من سنن الله أن النظرية لا تكفي وحدها في تحقيق المبتغى وإنجاز المرجو وإنما لابد من الناحية التطبيقية وهي الأساس لأن الإبداع الحضاري وإنجازاته أعمال وليست أقوالا وأفعالا، وسلوك وليست نوايا وآمالا، وإن كان من سنن الله أن تبنى التطبيقات على النظريات فإن مؤشرات المستقبل هي بداياته إن خيرا فخير وإن شرا فشر بمقتضى أن سنة النتائج من جنس العمل.

- **مستقبل مآل الازدهار الحضاري**: بقدر ما تنسحب السنن على الماضي ويحس بانتمائها إليه تجري على الحاضر بالقدر ذاته، مثلما تنسحب على المستقبل ويحس بخضوعه لها، فهي سرمدية أبدية. وقد تناولت أكثر الدراسات السنن باعتبارها مما كان لا مما سيكون، ولذا بات من استحقاقات دراسات السنن قراءة المستقبل من خلال الحاضر بدفع من الماضي، سيما وأن حب اكتشاف المستقبل والتطلع إلى معرفة الغيب فطرة رغب الإنسان في تحقيقها استجابة لنوازعه منذ كان، وإن كثرت اجتهادات الإنسان منذ القدم في البحث عن طريق المستقبل، فلجأ بعض القدماء إلى التنجيم والكهانة، بينما اعتمد المحدثون تحليل مؤشرات الحاضر وتتبع مساراتها نحو المستقبل، حتى أصبح من سمات العصر الحديث: السعي إلى معرفة المستقبل عن طريق الدراسة والبحث برصد مؤشرات الظواهر ومآلاتها، وتتبع الإرهاصات ونهاياتها، وبناء النتائج على مقدماتها، والمسببات على أسبابها. ثم اتسع الاهتمام بالمستقبل من قراءة الاحتمالات، ورصد الاختيارات، وتحسس التوقعات، حتى أصبحت الحاجة تلحّ أكثر على

تأسيس قواعد بحوثه ولاسيما من خلال الرؤية الإسلامية، مثلما كتب أحمد صدقي الدجاني «دراسة المستقبل برؤية مؤمنة مسلمة»[1]، فأصبح يترشح للهيمنة عليه من مؤهلات الحاضر.

- **سنن أهلية مرشح المستقبل**: إن من عدل منطق السنن ومفهومه أن يوفر مرشح المستقبل لنفسه وفي نفسه ما يؤهله لقيادة ذاته وغيره وإدارة شؤونه وشؤون غيره بما توافر له من أهلية ومؤهلات مؤهلات وهي كثيرة:

ا- **قراءة الماضي**: يبدو أن كبير السن يقرأ الماضي أكثر من غيره، لأن من طبيعة الكبير حوزة التجربة وصبر الخبرة، وهذا مؤهل أساس يتوافر للأمم والشعوب وقادة الرأي مثلما يتوافر للأفراد والجماعات، وهو يفيد القدرة على الإدارة والتسيير ومهارة حل المشكلات ومعترضات السير والتقدم نحو الازدهار الحضاري وديبلوماسية العلاقات الخاصة والعامة من سلوكيات الأفراد والمؤسسات والشعوب والدول.

ب- **استيعاب الحاضر**: تتوافر دراسات كثيرة في تناول الحاضر تنادي بالواقعية ومواجهة مجريات الأحداث، وهذا ما يستدعي قدرة استيعاب لما يجري مع ربطه بالماضي والتطلع من خلاله إلى المستقبل، ولذا كان هذا مؤهلا من مؤهلات ترشح المستقبل الحضاري للأمم والشعوب وحتى للأفراد والجماعات.

ج- **التطلع للمستقبل**: إذا كان كبير السن يجره الحنين للاهتمام بالماضي، فإنّ الشاب يجرّه تفكيره إلى الاهتمام بالمستقبل لأنه مقبل عليه، ومن هنا ربما يفضل أن يكون كبير السن مؤرخا أكثر من الشاب الذي تستقيم له وظيفة المفكر للتطلع إلى المستقبل، ولكل قوة ذاتية ولكنها قد تكون قوة كامنة راقدة، ولذا عندما تثار مسألة القوة ينبغي البحث في وسائل

١- مجلة المسلم المعاصر، ع٦٢، س١٦، إصدار مؤسسة المسلم المعاصر والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، سنة ١٤١٢هـ ١٩٩٢م، ص١١٣.

تحريكها ثم كيفية استخدامها، سيما وأن التطلع إلى المستقبل رغبة من رغبات طموح الهيمنة الشديدة وتولي مهام العمل ومسؤولية القيادة التي تحرك القوة في الشعب والأمة مثلما تحركها في الفرد وفي المنظمة من أجل الهدف المرجو.

ولذا استحقت النخبة تحريكها لتصنع حدث المستقبل الحضاري من خلالها، وهو الأمر الذي قد يطول لبطء سيره مثلما يقرأ من تجارب التاريخ كتجربة تاريخ الإسلام الذي استغرقت صياغته العالم أكثر من ستة قرون[1]. وإلى جانب هذا لابد أن تلتزم قوة صياغة المستقبل بمنهج ورؤية التحكم في مؤشرات الحاضر نحوه، ومن هنا يتأسس مرتقب المستقبل ومن قد يؤول إليه أمره بفضل التزام سنن تداول الحضارات التي لا تحابي أحدا ولا تنحاز له للتمكين له أو ضده.

- **سنن أهلية التمكين الحضاري**: إذا كان يحدث للأمم وشعوبها ما به تفقد أهلية قيادة الحضارة البشرية فإن فيها ما به يؤول إليه الأمر الحضاري، والذي به تؤهل لقيادة البشرية أول مرة أو مرة أخرى بعد الأولى أو الثانية، وإنه من حكمة فقهاء الشريعة الإسلامية اعتبار النية شرطا من شروط العبادة والعمل، فتعيّن لديهم أن تصيّر النية العادة عبادة وألا تكون العبادة عبادة إلا إذا توافرت على شرط النية، وهذا ما ينبغي أن تكون عليه أعمال الإنسان الأخرى كلها، ولذا كانت النية الأصل في أعمال الإنسان المسلم كلها وإلا فقدت غايتها وضيّعت منطلقها لدخولها مجال ما يضره ولاينفعه.

ويظل الشاهد أنه ما من شعب أو أمة تريد تحقيق التقدم الحضاري وازدهاراته إلا وتعين عليها تبييت نية ذلك، ثم عقد العزم على العمل

---

١ – فؤاد محمد شبل: حضارة الإسلام في دراسة توينبي للتاريخ، سلسلة المكتبة الثقافية، ع٢١١، دار الكتاب العربي، القاهرة، ص٠٩.

حتى لا يقول قائل ما النية إلا قصد محله القلب وليست سلوكا عمليا، وهذا صحيح ولكن الأعمال لا تكون إلا بعد توافر نياتها، لأن عمل الإنسان وسلوكياته: التزام لحيثيات النية ومقتضياتها وتحمّل تداعيات المسؤوليات التي لا تنبثق من عدم وإنما لابد من خلفية مُؤَسِسَة لما ينبثق عن الأعمال والأفعال والسكنات والحركات، ولذا فإن النية هي النقطة الأولى في بدء المشروع الحضاري وانطلاقه، وهي التي تظل تصحبه إلى أن يحقق من إنجازاته ما يحققه، وإذا انعدمت النية في مشروع ما فقد التحكم في إدارة ذاته وما في محيطه من حوله من مواد الحضارة الأخرى ومواردها حتى ولو غيّر مصطلح النية بما يرادفه كالقصد، فإن تغيير المصطلح لا يغير كثيرا من المضمون.

وأعتقد أنه من توسيع إفادة النية إخراجها من العبادات بمفهومها الخاص وحده كالصلاة والزكاة والصوم والحج إلى دائرة مفهوم العبادة الواسع بل الأوسع، لتصبح النية شرطا في أعمال الإنسان كلها وسلوكياته جميعها ولو بمصطلح آخر من مرادفات معاني ألفاظها ومنها القصد والعزم.

- **عقد العزم**: قد يأتي العزم بعد النية من حيث ترتيب انبثاق أعمال الإنسان وأبجديات تحركاته، حيث العزم هو أول جزء يتحرك من النية الجامدة المضمرة الصامتة، ولذا قد يتداخل مفهومه مع مفهومها وكأن النية قرار والعزم إجراء، ولذا عندما تعرف النية بالقصد يعرف العزم بأنه حزم الإرادة فتكون العلاقة بينهما كالعلاقة بين القول والفعل، وقد يقدم العزم على النية مثلما قد يقدم الفعل على القول، وإن أهملت الدراسات الحديثة ألفاظا كثيرة ولم تستنطقها فتستخرج حمولاتها وتبيّن تأثيرات خطابها النفسية والاجتماعية وغيرها، ودورها في تحريك المشاعر وتنبيه العقول وشحذ الهمم حتى يتربى الإنسان على مفهومات الألفاظ والسعي إلى ترجمتها في الواقع إلى أفعال وأعمال.

ولذا عندما يتوافر العزم في شعب ما أو أمة ما ويزيد نموه يبدأ يوفر في نفسه سنن ما به يؤول التداول الحضاري إليه، حيث ما غربت الشمس في منطقة ما من الخريطة الجغرافية إلا وأشرقت في أخرى ومثلها الحضارة التي توزعها سنن التداول بين الشعوب والأمم كما توزع سنن الفلك الشمس كل حين بين مناطق الأرض لحكمة تجعلها تجري لمستقر لها تقديراً من العزيز العليم، وهذا ما ينبغي على الإنسان التكيف معه والتزام حيثياته وليس مغالبته وافتعال الصراع معه.

- **مسايرة السنن**: ما دامت السنن هي قدر الله ومشيئته ولا مرد لها فإنها غلابة وسارية المفعول من دون حول ولا قوة أحد، وهذا ما يدعو الإنسان إلى مسايرتها ومطاوعتها والتزام حيثياتها والانضباط بإجراءاتها وحسن التعامل معها بمنهجية صحيحة من غير تشدد ولا تعسف، لأن السنن هي مسارات التحولات الحضارية ومسالكها، حيث تشق تحولات الحضارة طريقها من خلالها نحو مقاصد الأفول وانهياراته أو نحو مقاصد التقدم وازدهاراته في مآلات كثيرة كل منها يعمل على شاكلته.

ولذا صارت مسايرة السنن ضرورة حضارية، وأنها إذا توافرت في شعب ما تحقق له الوعي الذي به يتحقق له مآله الحضاري، لأن الإنسان إذا ضيّع الالتزام انفلتت من بين يديه وسائل التقدم الحضاري، وحينئذ تضيع طموحاته وأمانيه، وإن كان التزام السنن وحده يقتضي قوة إرادة ودفع ضريبة انتماء ما إلى قيم المشروع الحضاري ومبادئه، لأن سنن التحضر تأبى الضعف والاستكانة، وشواهد التاريخ دالة على أنه ما انقادت الأماني إلا لقوي، وفي المقابل لا موقع لضعيف في الحضارة إلا موقع الهامش ثم الإهمال، حيث لا قدرة للإنسان على إدارة شؤون الحياة ومفردات الحضارة إلا إذا اقتدر على إدارة ذاته، حيث وسائل الإبداع الأصل كامنة فيه كالجد والاجتهاد.

- **قدرة التحكم**: التحكم هو الآخر، مثله مثل مرادفاته ومن على شاكلته، يحتاج إلى وسائل تحققه وتمثله في برنامج واقع يومي وسلوكياته التربوية العملية، وإن الذين استطاعوا تحقيق أهدافهم هم الذين تحكموا في إدارة أمزجتهم النفسية واستخدام قدراتهم العقلية، ومن ثمّ في من حولهم من مفردات المحيط حيث مجالات أعمالهم وميادين تحركاتهم في الثقافة والفكر والاقتصاد والسياسة وما سواها.

وهنا تبدو الفروق بين الذين ربحوا تحديات الحياة حين التزموا الجد والذين خسروها وكانوا في موقع التبعية والاتكالية والتواكل والجهل بدل الريادة والتوكل والعلم والعمل، ومن ثمّ حين يعمّ الأمر يخرج من دائرة الفرد وفيما تولاه من أمور الحياة وصلاحيات وظائفه فيها ومصالحه الخاصة إلى دائرة الجماعة، فيتحول من تحكم أفراد في إدارة أنفسهم إلى تحكم شعب أو أمة في إدارة نفسها، وهو تحكم عام تتسع دائرته أكثر فأكثر، وحينئذ تكون قد توافرت قدرة التحكم في وسائل الحضارة من خلال سننها، فيؤول التداول الحضاري إلى الشعب أو إلى الأمة التي توافر فيها أكثر من غيرها فاشتدّ تحكمها في وسائل التحضر مثل التحكم في المزاج النفسي والسلوك وضبط النفس، ومن ثمّ في الإرادة والعمل، وعندئذ تنضبط الحياة فيتحقق التحكم في الوقت وشؤون الإدارة ودواليب المجتمع، ومن ثمّ في المآل الحضاري.

إذاً، فالتحكم قدرة على الإدارة في تسيير كل شيء في مجاله بين يدي الإنسان ومن خلاله التحكم فيما يطمح إليه من أهداف فيؤول إليه المستقبل أو جزء منه في مفردة ما من مفردات الحضارة، لأنه ما من أمة من الأمم آل إليها المآل الحضاري إلا ونبغت في مفردة من مفرداتها وزادت عليها ثانية أو ثالثة إلى ما قدر لها، لأن الأمم والشعوب كأنها تتخصص في مجال ما من الحضارة مثلما يتخصص الأفراد . وهذا ما تؤكده تجارب التاريخ بعدما أثبتت وجوده.

- **أهلية المرشح الصيني**: إذا تجاوزنا الحديث عن أهلية المرشح الأمريكي وأهلية الاتحاد الأوروبي، لاعتبارات تتعلق بشهرة أوضاعهما الاقتصادية والسياسية والحضارية، سواء على مستوى الإنجازات أو الإخفاقات أو التحديات، فإن الحديث عن أهلية المرشح الصيني تبقى ضرورية في هذا السياق.

تعتبر الصين قوة بشرية عسكرية تجارية أكثر من كونها قوة صناعية، بينما تحول دون تصدرها واجهة العالم عوامل أخرى كثقل المشكلات الداخلية والضعف اللغوي الإعلامي، وإن كان أكثر مراقبي الساحة الدولية ينظرون إلى الصين باعتبارها إحدى قوى ترشح مآل تداول الحضارة المرتقب لأسباب تتعلق بجغرافيتها وأخرى بتاريخها الذي مازال يمدّها بنفس منه.

- **الجغرافيا**: إن جغرافية الصين مؤهل مرشح جيد لمآل تداول الحضارة، فمن حيث الموقع تجاور الصين ١٤ دولة، وتمتد على مساحة تبلغ ٩,٦٤٠,٨٢١ كلم، فهي بمعدل ٣ أو ٤ من مساحة العالم ويتشكل مشهدها الطبيعي من غابات وسهوب وصحاري وجبال، ويمتد ساحل الصين بما يقدر بـ ١٤,٥٠٠كلم، ويبلغ عدد سكانها نحو مليار و٣٣٨مليون نسمة حسب إحصاء ٢٠١٠م.

- **التاريخ**: تتكئ الصين على رصيد تاريخي عريق في المجد الحضاري مساعد على استقبال مرتقب تداول الحضارة الباحث عن ميناء رسو أو محطة توقف أو مطار عبور إلى انطلاق آخر ليواصل ازدهاراته العامة أو توقفه إلى الأبد، سيما وأن تخصص الصين الحضاري الحديث صار يظهر في الاقتصاد والتجارة الخارجية والاستثمار استنادا إلى الجغرافية والتجربة التاريخية منذ كانت الصين، ومازالت تنسب إلى أقدم الحضارات التي ازدهرت على ضفاف النهر الأصفر منذ أكثر من ٦٠٠ سنة قبل تأسيسها

الثاني بعد انتهاء أعمال العنف بها على يد الشيوعيين عام ١٩٤٩م.

- **الصين بين ثقل الواقع وتطلعاته**: من ينظر في واقع الصين يحسّ بثقل حاضره، ولكن يكتشف قدرات الإنسان فيه على مواجهة التحديات وبخاصة تحديات المستقبل وكيف صار يخترق أسوار آفاقه، لاسيما منذ دخلت الصين نظام اقتصاد السوق سنة ١٩٧٨م، وأصبحت أسرع دول العالم نموا، فهي ثاني أكبر اقتصاد عالمي من حيث الإنتاج المحلي بعد أمريكا، وأكبر دولة مصدرة في العالم وثاني دولة استيرادا، ورابع دولة في السياحة، واحتياطها من النقد الأجنبي ٢،٤٨ تريليون دولار فهي تحتل المرتبة الثالثة في هذا المجال، وتستثمر في الخارج مبلغا قدره ٥٢،٢ مليار دولار حسب تقديرات سنة ٢٠٠٨م لتصبح سادس أكبر مستثمر خارجي في العالم، وجيش الصين الأكبر في العالم مع أن إلزام الصين التعليم الذي هو عماد الحضارة ليس بعيدا، حيث بدأ عام ١٩٨٦م فقط لتسع سنوات الأولى وهو مجاني، ومنذ عام ٢٠٠٧م شملت محو الأمية ٩٣،٣٪ من السكان فوق ١٥ سنة، أما ما دونها فقد بلغ محو الأمية ٩٨،٥٪ منها ٩٩،٢٪ ذكورا.

ولعله بذلك صارت الصين خامس أمة تطلق قمرا صناعيا مستقلة عن غيرها، ففي سنة ٢٠٠٣م أرسلت حاملة رائد فضاء مما جعلها ثالث دولة ترسل رحلة مأهولة بالإنسان إلى الفضاء، وفي سنة ٢٠٠٥م أرسلت بنجاح سفينة فضاء مما جعلها ثالث دولة لديها القدرة على إجراء عملية سير في الفضاء، وفي سنة ٢٠٠٧م نجحت في إرسال مركبة فضاء تيمنا بآلهة القمر الصينية القديمة لاكتشاف القمر باعتباره جزءا من برنامجها الفضائي، وصارت الصين تخطط لبناء محطة فضاء وتحقيق هبوط على سطح القمر برواد صينيين، كما تخطط لإنزال مركبة مأهولة على المريخ. وتمتلك الصين لهذا الغرض وغيره أكبر ميزانية في العالم للبحوث والتنمية، وقد استثمرت أكثر من ١٣٦ مليار دولار في عام ٢٠٠٦م بزيادة ٢٠٪ عن عام ٢٠٠٥م.

وهذا لا يعني أن الصين في مأمن تام، وإنما مازالت تهددها توقعات تبدو من خلال واقعها وما ينتابه من مظاهر سيئة كالاحتجاجات التي قدرت سنة ٢٠٠٥م بنحو ٨٧٠٠٠ مظاهرة لضيق مجال حرية الرأي والصحافة ولشدة رقابة الخطاب السياسي وما ينشر في الأنترنيت، وللتخطيط الأسري المبالغ فيه في سياسة الطفل الواحد إلى غاية سنة ٢٠٢٠م، وهذا ما أدى إلى اختلالات ديموغرافية حيث قدرت زيادة الإناث بعد تشريع هذا القانون بنسبة ٥٣٪ والذكور ٤٧ ٪، ولقانون الملكية الذي يخول للدولة الاستيلاء على الأراضي الخاصة في سبيل المصلحة العامة ولقانون الإعدامات الذي تساوي نسبته في الصين ٧٢٪ من إعدامات العالم تقديرات سنة ٢٠٠٩م، وإن كان يبدو هذا ربما ضروريا في حكم الصين مما لها من وضع خاص، هذا إلى جانب ما قد تفاجأ به الصين وتفاجئ به من يرتقب توقع صدارتها العالم مما ليس في الحسبان.

وتتطلع الصين إلى ازدهار اقتصادي متطور أكثر، سيما وأن مقترح رئيسها عام ٢٠٠٦م دعا إلى اعتماد اقتصاد قائم على الابتكار الصناعي والاختراع العلمي والإبداع الفكري بدلا من اقتصاد قائم على الصناعة، وتعمل الصين على المزيد من الإفادة من الطاقة المتجددة كطاقة الريح والشمس وغيرهما، وهي مادة اقتصادية جديدة ناشئة قد تحلّ محل البترول وتؤدي ما أداه أو أكثر من دور حضاري اقتصادي يتداعى على مجالات الحياة الأخرى كلها، مثلما قد تتدارك الصين بعض أخطائها ولاسيما في مجال سياستها الداخلية.

أما سياسة الصين الخارجية فلا تظهر تشنجا ولا تهورا ولا تخفي عداءا في علاقاتها مع غيرها وهي علاقات تحكمها المصلحة المادية التجارية أكثر مما تحكمها مبادئ إيديولوجية قد تناضل من أجلها مجانا فتدفع فاتوراتها من دون مقابل مما يثقل كاهلها الاقتصادي، وينصّب لها عداءا

شديدا مع غيرها مثلما هي تجربة الاتحاد السوفييتي من قبل والتي كانت من أسباب سقوطه ومثلما هي تجربة بعض دول الاتحاد الأوروبي وأمريكا تجاه الآخر ومنه الإسلام الذي تسميه الخطر الأخضر وتنفق في سبيل صده ووقف زحفه الأموال الطائلة والجهود المضنية ولاسيما في الدفاع عن إسرائيل، وهو ما يقوي فرص فوز الصين بصدارة العالم ولاسيما في جانبها الاقتصادي، خاصة حين تتغلب عن جوانب سيئة في سياستها الداخلية تجاه الأقلية الإسلامية الذي تعرف على يد النظام الصيني مظالم دينية واجتماعية، مع العلم أن دخول المسلمين الصين كان مبكرا جدا سنة ٦٥١م أي بعد ٢٨عام من الهجرة فقط، وقد كان فتحا تجاريا تخللته مبادئ الإسلام كالصدق والوفاء بالوعد والأمانة وترك الربا، وعلى هذه المبادئ تأسست علاقة الإسلام بالصين التجارية التاريخية لعلها منذ رحلة الشتاء والصيف. ثم تجددت علاقة العالم الإسلامي بالصين الحديثة على شيء من العلاقة التاريخية، سيما وأن سياسة الصين الخارجية لا تتضمن النزعة العدائية العقدية الإيديولوجية كالتي تستبطنها بعض الدوائر في أمريكا ودول من الاتحاد الأوروبي، ولعل هذا ما أفسح المجال للصين في علاقتها مع العالم الإسلامي وفتح الباب أمام مصالحها أكثر من غيرها، حيث مازال الحس التاريخي يعزز علاقة العالم الإسلامي بالصين التي لم يشبها ما شاب علاقته بدول من الاتحاد الأوروبي كبريطانيا وفرنسا، ولا كالذي يشوب العلاقة الحديثة بينه وبين أمريكا ولاسيما في دعمها لإسرائيل، بل تحسّ شعوب العالم الإسلامي أنها تلقت مساعدات تاريخية من الصين أثناء حركات التحرر، مثلما مازالت مواقف الصين تساند بعض قضايا العالم الإسلامي ولو من منظورها وبخاصة الاقتصادي. ولذا باتت الصين، وبخاصة من هذا المنظور، من أكثر دول العالم حظا في سنن مآل التداول لصدراة العالم ما لم يصرفها عنه صارف طارئ مفاجئ يعمل لغير صالحها مما قد يكون في صالح منافس من منافسيها الآخرين مثل اليابان.

- **أهلية المرشح الياباني**: اليابان قوة اقتصادية تكنولوجية تقعدها عوامل أخرى عن تصدر العالم كالموقع الجغرافي غير الاستراتيجي إضافة إلى الضعف اللغوي الإعلامي وعدم توافر رغبة الهيمنة غير الاقتصادية التي تستميت اليابان في تحقيقها، أما ما سواها كالهيمنة السياسية أو الثقافية أو الفكرية فلا تعيريها اليابان اهتماما كبيرا، وقد يكون من الطرائف أنه في الوقت الذي أصبح الاتحاد الأوروبي وأمريكا يعانيان الأزمة الاقتصادية، واصل اقتصاد اليابان ازدهاره أكثر فأكثر وخاصة في الناحية التجارية واقتصاد الاختراع.

- **الجغرافيا**: اليابان مجموعة جزر تقع شمال المحيط الهادي وتمتد على مساحة منه تقدر بنحو ٣٧٧،٨٦٥ كلم، وهي منطقة بركانية تعرف باسم جلفة المحيط الهادي النارية مما يؤدي إلى زلزال اليابان زلزالا شديدا فيسبب ما يسمى التسونامي، وتغطي جبال اليابان الشاهقات من مساحتها العامة أكثر من ٧٠٪ ويسكنها نحو ١٢٧ مليون نسمة، ولذا تبدو جغرافية اليابان غير مساعدة على الترشح للوصول إلى صدارة العالم من خلال سنن مآل تداول الحضارات.

- **التاريخ**: لا تعرف اليابان تاريخا عريقا ذكرته كتب التاريخ القديمة مثل الذي تعرفه جارتها الصين وإن كادت تكون جزءا منها، ولعل أقصى ما يتحدث به التاريخ عن اليابان هو ما بعد القرن ٧ ق.م، وقد أنشئت عاصمة اليابان طوكيو خلال القرن ١٦ الميلادي. وَصَدّاً لأطماع الأوروبيين في اليابان كالبرتغال وبريطانيا ثم الصين وأمريكا، أغلقت اليابان أبوابها في وجه كل وافد مدة ٢٥١ سنة إلى أن عاودت فتحها البحرية الأمريكية فوقعت لهذا الغرض اتفاقية ١٨٥٤م، ومن ثمّ كانت اليابان الحديثة منذ سنة ١٨٦٨م عندما صحت من غفوتها على يد أمريكا فحاولت بناء ذاتها اقتصاديا، ثم سعت إلى التوسع فاصطدمت مع جارتيها الصين وروسيا، وكانت

الحرب بينهما سجالا إلى أن أنهتها أمريكا بجريمة هيروشيما ونجازاكي فاستسلمت اليابان ووقعت معاهدة ١٥ . ٠٨ . ١٩٤٥م وبقيت تحت الاحتلال الأمريكي إلى سنة ١٩٥٢م.

ولذا يبدو تاريخ اليابان الحديث ماردا عسكريا لولا قهر القوات المجاورة له كروسيا والصين ثم أمريكا، مما اضطرها إلى تغيير سياستها الخارجية، وهذا التحول الاستراتيجي الحضاري أنتجته بعض الدول الحديثة التي أفادت من تجربة الهيمنة التاريخية، حيث انتهجت قوة الأفكار والاختراع والإعلام والاقتصاد والسياسة والدبلوماسية آليات هيمنة العصر الحديث بدلا من آلية القوة العسكرية التي اعتمدتها هيمنة العصور القديمة كالرومان وبعض الأمم الحديثة كبريطانيا وفرنسا.

- **اليابان بين شد الواقع وفعالية الاختراع**: يبدو أن واقع اليابان يشدّ حاضره وكأنه يريد منه أن يفسح المجال لغيره ليتجاوزه، ولكن فعالية القدرات والمبادرات في اختراعاته تجعله يتقدم غيره، خاصة وأن اقتصاده صار اقتصاد الاختراع التكنولوجي أكثر منه اقتصاد ثروات ومواد أولية، ثم إن الإنسان الياباني ذاته إنسان تحد وصبر على الشدائد، ولذا لقّبت حضارته بالحضارة المعجزة الحديثة.

وقد صارت أشد اهتمامات اليابان انتهاج سياسة التنافس الاقتصادي السلمي كالذي تعرفه مع الصين،مع ملاحظة التجاذب بينهما في العديد من الميادين، وإن كان أشد الميادين بينهما التنافس الاقتصادي والاختراع التكنولوجي من غير أن ينتظر تراجع إحداهما عن الأخرى أو كلاهما، وإنما المنتظر تراجع أمريكا عن المرتبة الأولى لتحل محلها إحداهما الصين أو اليابان فترقى إلى المرتبة الأولى. وهذا ما يحتاج إلى دراسة، ويستحق أن تفرد له بحوث لتفاضل بين قوة حظي كل منهما في ميدان الاقتصاد وغيره.

والذي يمكن الحديث فيه هو أن اقتصاد اليابان كان ومازال يعتمد

مؤشرات ربما انفرد بها عما سواه منها:

- اعتماد أخلاقيات العمل ومتانة أدائه.

- التحكم التكنولوجي وتقنية آلياته الدقيقة.

- خفض الإنفاق العسكري وانتهاج سياسة السلم وعدم التدخل في شؤون الآخر الداخلية، على خلاف منهج قوة الاحتلال العسكري البريطاني والفرنسي ثم قوة الاحتلال الإيديولوجي الذي انتهجته روسيا، وهو المنهج الذي تعتمده أمريكا من أجل النفوذ الاقتصادي وتحقيق الهيمنة على غيرها، ولكن مما يهدد الاقتصاد الياباني ويحول دون هيمنته على العالم ليؤول إليه المآل الحضاري جملة مؤشرات منها:

- الاستثمارات الضخمة المرتبطة باقتصاد الآخر والذي يؤدي انهياره إلى انهيار جزء من اقتصاد اليابان قد يكون كبيرا.

- تكرار الكوارث الطبيعية التي تصيب اليابان كالزلازل والبراكين والمد البحري، وهي كوارث أصبحت تكبّد اقتصادها أضرارا فادحة إلى جانب كوارث الصناعة النووية التي بدأت تعانيها مناطق اليابان.

- شيخوخة المجتمع وثقل صرف التقاعد واكتظاظ المدن مما أفقد الإنتاج التوازن ولاسيما بين المدينة والريف.

ويبدو أن اليابان لم يستثن مما عند غيره من فرص وإيجابيات أو مشكلات وسلبيات، ولذا فإن كانت إرادة اليابان أقوى من تحدياته كسب من رهاناته وحقق من غاياته ما به قد يؤول إليه المآل الحضاري العالمي ليتصدر الأمم ولو في جانبي الحضارة الاقتصادي والتكنولوجي.

ولذا صار أمام اليابان تحديات كثيرة قد تكسب بعض رهاناتها أو تخسرها، ولاسيما إذا انقادت لغيرها مما قد يجرها إلى مشكلات فض النزاعات الدولية وحل مشكلات الآخر عسكريا، العمل الذي صار

يكبّد المنشغل به خسائر في الأرواح والاقتصاد ولو جرّب فعالية التكنولوجيا العسكرية ليطورها أكثر لتدر عليه مردودا اقتصاديا من الصناعة الحربية، وهذا مما صار يصرف اليابان مثل غيرها عن الاختراع التكنولوجي السلمي منطلقها الأول والذي به وقفت اليابان الند للند أمام أمريكا.

هذا، ولعل اليابان تفاجئ العالم مرة أخرى بما فاجأته به أول مرة ولكن في جديد قد يكون غير مرتقب منها، سيما وأنها تتكئ على سياسة السلم وتعتمد المبادرة الذاتية وسيلة لتحقيق مآربها، وهو ما تفوقت به على غيرها في مناطق من الصراع الحضاري كثيرة ولو عانت من أثر ذلك حروبا مع جارتيها روسيا والصين ثم أمريكا لأسباب عرفتها في مطلع ازدهارها كرغبة التوسع التي ردت عنها مقهورة وإن دفعتها إلى انتهاج سياسة السلم في نهاية الأمر.

وهذا لا يعني خلو مسار اليابان من مشكلات وعوامل أخرى قد تقعد تجربتها عن السير نحو مقاصدها، وتحول دون ترشحها بقوة لصدارة العالم وكسب مآل تداول الحضارة مثل الموقع الجغرافي المحاصر داخل أسوار الجزر ورعب البراكين والزلازل، ومثل الضعف الإيديولوجي والنقص الإعلامي الخارجي وتصرف الإنسان الياباني المستثنى بأعرافه عن أعراف شعوب أخرى مقصد هيمنته ولاسيما في المأكولات، ومثل التلوث البيئي الذي يطرح مشكلات أساسية مازال يزيدها الازدهار الصناعي تعقيدا وكثافة لما يترتب عليها من أمراض مزمنة ولاسيما أمراض العمل لشدة تطور آلياته الصناعية.

ولذا قد يكون المرشح الياباني أقل حظا في مآل تداول الحضارة وتصدر العالم من خلالها إلا في جانبيه الاقتصادي والتكنولوجي الصناعي الذي قطع فيه شوطا كبيرا ولاسيما فيما يعرف باقتصاد الاختراع، وهذا ما يدعم حظه في جوانب أخرى من مآل الحضارة لما قد يتوافر له من فرص ربما غير متوقعة.

واليابان،مثل غيره، في وضع دائم يبحث عن المصلحة في أملٍ دون كلٍ وبين يديه أوراق يتقنها أكثر من غيره قد ينال بها غاياته كالحفاظ على الوقت وحسن إدارة الاستثمار الخارجي المحظ من غير خلطه بما قد يعكر جو علاقته مع شركائه مثلما تنتهج دول أخرى هذه السياسة فتدفع فاتورات تنقصها من رصيد حظوظها في مآل تداول الحضارة نحوها.

- **أهلية المرشح الإسلامي**: إن الإسلام مرشح بارز من مرشحي هيمنة مآل المستقبل وفتوحات الحضارة ومن السنن أن أمة أو شعب مرشح المستقبل لابد أن تتوافر فيه مؤهلات استمرار النمو الحضاري وفضله المعنوي والمادي، لإثراء البشرية بقيم جديدة في الرشد الحضاري وإبداعاته بالقياس إلى ما عرفته في فترات رشدها مثل فترات الوحي وصحو الضمير كالذي حدث بعد الحرب العالمية الثانية، حيث أسست المؤسسات الدولية والإنسانية، مما وفر لنبغاء البشرية جو الإبداع الحضاري، ولذا فإنه ما من مرشح مرتقب إلا ولابد أن تبدو في حاضره ما يعتبر شروط صحوة نهضة تؤهله للتصدر والهيمنة.

ويبدو أن الإسلام يملك من مواصفات مؤهلات المرحلة المرجوة كثيرا، سيما بعد ازدهار الإبداع الحضاري المادي التكنولوجي، وصار الجانب المعنوي من الحضارة يستدعي العمل له بمثل عمل الجانب المادي أو أشد لأنه أصبح وكأنه زاد عطاء في جانبه التكنولوجي قد نفد من كثرة ما أبدع فيه العصر الحديث حتى صار إفلاسه المعنوي الروحي قاب قوسين أو أدنى، مثلما حدث من قبل يوم عرف التاريخ الحضاري جدلية فلسفة اليونان وهرطقة فكر الفرس وعجرفة قوة الرومان العسكرية، فصار حتما لازما في حكم السنن أن يبدع ما يستدرك به جديد لفقد إبداع يومئذ مبررات بقائه واستمراره، مثلما حدث يوم بلغت تجربة الشيوعية مبلغا مستهجنا حتى أنكرت المعلوم من الحياة البشرية بالضرورة كالإيمان بالله ورغبات الفطرة كحب التملك،

ويبدو أن النهج ذاته، ولو من وجهة نظر أخرى، أصبحت تسير عليه قوى هيمنة اليوم تحت عنوان الديمقراطية فاستدعي نهج خيار آخر أفضل.

ولكن من السنن أن تنتصب المعارضة لكل مهيمن عند كل اقتضاء حتى لا يعتقد أن البشرية قد نفد زادها في الإبداع الحضاري في جانبيه المادي أو المعنوي، ولذا من ينظر في الإيديولوجيات التاريخية والحديثة كالقومية والعلمانية وحتى الوطنية يعرف أنها فقدت بعض مبرراتها، واستنفدت من عطاءاتها كثيرا، وهذا مما يشكل إعلان تراجعها ويعني تهيئة السنن لمرتقب آخر قادم، وأن ظروف الحاضر تمهد له، وأنه قد بدأ يخرج بعضها من البعض الآخر مثلما يعقب الليل النهار والنهار الليل، وهذا ما تترشح من خلاله الأمم لتتصدر بعضها بعضا، ومنها ترشح العالم الإسلامي، والذي لابد له أن يبسط تجربته مرة أخرى من خلال الوسطية التي صارت رهانا نحو المستقبل إلى جانب رهان الديموقراطية والبراغماتية.

والذي يهم هذه الدراسة تأهل مشروع العالم الإسلامي الذي نضجت بعض جوانبه إلى حد ما، وإن كانت المسافة بين واقعه وتطلعاته ونظرياته وإجراءات تنفيذها ،مازالت بعيدة مع ما توافر لديه من جوانب كالجماهيرية والفكرة الفطرية ومخزون التجربة التاريخية واحتياط الثروات الاقتصادية الأولية كالبترول والطاقة الشمسية، وإن كان هذا لا يردم من الفجوة بين الواقع والطموح كثيرا. ولذا تبدو المسافة بين الواقع ومنزلة تصدر البشرية الحضاري متسعة لغياب العالم الإسلامي أو شبه غيابه خلال مرحلة تيهه وانشغاله بما هو هام عن ما هوأهم، مثل تحرير الأوطان التي بددت في سبيلها طاقات عزيزة في العلم والبطولات والثروات، وإن كان هذا إنجازا عظيما ولكن هناك إنجاز آخر هام منتظر قد يطلق عليه التمكين الحضاري، والذي يتوقع أن يخرج ما بين تناقضات العصر وصراع مفرداته، وهو ما يبدو في ملمح المشروع الإسلامي.

ولهذه الاعتبارات وغيرها مما على شاكلتها، فإن أهم ما يطلب في سبيل التمكين الحضاري: فقه السنن بعد اكتشافها في مصادر التحضر ولاسيما الأصل منها كالقرآن والسنة وتجربة التاريخ، ولذا صار فقه السنن والالتزام به من أهم ما ينبغي أن يعرف عن طريق نهضة العالم الإسلامي المرجوة ومن خلاله البشرية، وتبدو هذه حقيقة ينبغي ألا تُتَخَطى لأنها غير قابلة للتجاوز، ولكن لابد من توافر مؤهلات هذا القصد التي سماها مالك بن نبي شروط النهضة، ومنها ما ينبغي توافره على مستوى المعنى بالقدر الذي وفره الآخر على مستوى المادة وبالقدر الذي تدعو الحاجة إليه وفق مشروع سنن التاريخ ولاسيما التاريخ الإسلامي الذي وازن منذ بدايته بين المادة والروح والواقع والمثال وحقوق الإنسان وواجباته إلى آخر موازنات التجربة الإسلامية النظرية والإجرائية.

ولكن كيف الإعداد؟ وما أولوياته لتحقيق هذا التمكين الحضاري من خلال سنن التداول؟ وهذا ما يكثر الاجتهادات ويعدد أساليبها، مثل الذي يقترح من أجل تكوين طليعة تضطلع بمسؤولية التحضر كقوة تمضي في الطريق[١] لتطرح النموذج العلمي من خلال ما تبدعه في ميادين الحضارة كلها، ثم تأتي سنن التداول التي ترتب الأمم حسب الالتزام بها أمة وراء أخرى وشعبا وراء آخر، ولكن حظوظ الفوز مرهونة بالتزام شروطه، وهذا ما يعني ضرورة دراسة مؤهلات الأمم والشعوب من الناحية الجغرافية والتاريخية وما يجمعه الواقع ويحتضنه بين جنباته من مبشرات ومثبطات أو حسنات وسيئات أو إيجابيات وسلبيات في العالم الإسلامي وفي بيئة كل مرشح.

- **الجغرافيا**: تتألف خريطة مساحة العالم الإسلامي من مناطق من آسيا إفريقيا و أوروبا الشرقية، وهذا لا يعني غياب الإسلام عن القارات الأخرى، ولقد عرفت مساحته هذه حضارات تاريخية قديمة عاشت من

١ - سيد قطب : معالم في الطريق، دار الشروق، القاهرة، ص١١ .

خلالها صدارة العالم مثل الحضارة الفينيقية والفرعونية وحضارة عاد وثمود وأصحاب الأيكة، ومازالت مناطق منه أخرى بكرا ذات دم جديد تنتظر المرتقب الحضاري.

وهذه الخلفية الجغرافية للعالم الإسلامي تدعو إلى اعتمادها حافزا نحو تصدره العالم لما للموقع الجغرافي من أهمية كبرى على كافة المستويات التجارية والسياسية. وإذا كانت الخريطة الجغرافية وعاء، فإن لفظ الإسلامي حين يضاف يعدّ انتماء ممتدا على تلك الرقعة الجغرافية.

ومن هنا تسعى فكرة انتماء العالم الإسلامي إلى جغرافية وتاريخ لتكون إيديولوجية ومنهجا وأداة تعتمد في سبيل تحقيق غايات لتتصدر العالم كله ويؤول أمره إليها من خلال سنن التداول الحضاري أو جزءا منه، وهو ما انبثق منه مفهوم العالم الإسلامي المعرفي الحضاري وعنه امتد حتى تجاوز حدوده الجغرافية وصارت له حدود أخرى فكرية واقتصادية وسياسية وحضارية أوسع من الحدود الجغرافية، لأن التطور جعل الحيز الجغرافي مفتوحا مما كوّن مفهوما آخر أوسع من المفهوم الجغرافي لاستخدام مصطلحه في الاستعمالات السياسية والاقتصادية وغيرها، وهذا ما أكسب العالم الإسلامي مفهوما حضاريا من خلال مساحته الجغرافيا ومفرداتها الأخرى كالثروات والأحوال الجوية والتضاريس الطبيعية وغيرها .

- **التاريخ**: لقد أصبح التاريخ الإسلامي أزيد من أربعة عشر قرنا الأمر الذي أكسبه تجربة مازال يستمد منها وجوده وقدرته على التطور والتكيف والتشكل والتغلغل والإقناع للتجدد والاستمرار والتطلع إلى المستقبل، ليترشح مع كل مترشح إلى الصدر عند كل اقتضاء من خلال سنن التداول الحضاري السرمدية الأبدية الأزلية التي فاز من خلالها يوم ظهر في شبه الجزيرة العربية أول مرة، فخرج من بين قوتين كبيرتين يومئذ

الفرس والروم[1]، فورث أرضهما ومجدهما وأقنع البشر بما لم تكونا عليه إيديولوجيتهما فانساح على خريطة العالم بدلا عنهما، حيث كانت الروم قوة عسكرية والفرس قوة إيديولوجية تتقاسمان أكثر خريطة العالم وإن كان حظ الروم منها أوفر من الفرس.

ولذا صار يساند العالم الإسلامي تاريخه ويدفع به من حسناته إلى التطلع نحو المستقبل لتحقيق غايات يرجوها فيما قد يطلق عليه نَفَسُ التاريخ، ولاسيما حين النظر إليه من إيجابياته وبعيون الرضا عن وقائع كثيرة منه تعتبر تجارب إفادة، لأن في تاريخ الشعوب والأمم ما يميز بعضه عن بعض في القيم الذاتية والعلاقات الدولية.

- **العالم الإسلامي بين واقعه وآليات تحقيق مشروعه:** أعتقد أنه ما من أمة أو شعب يتوافر لديه شيء من الحس بذاته والوعي به إلا وتطلع إلى مستقبل حضاري، وبخاصة إذا كان في واقعه ما يعين على تحقيق مآله، وليس العالم الإسلامي استثناء من هذه القاعدة حتى ولو كانت إمكانات واقعه تبدو أقوى من قدرات تطلعه إلى المستقبل، ولذا بات أمره مرهونا بانتظار ما يعينه على إقلاعه الحضاري من آليات تساعد مشروعه الذي مازال أفكارا أكثر منه مناهج وآليات تحقيق، حيث قد ترسم أمام الإنسان أفكاره أحلاما جميلة ولكن تظل أحلاما إن لم توضع وسائل تحقيقها وتتوافر شروط تنفيذها، ومن هنا كان حرص أولي العزم شديدا على توفير شروط الأشياء ووسائل تحقيقها، ولذا كان من الضرورة البحث على وسائل تحقيق مشروع المرتقب الإسلامي من خلال سنن التداول الحضاري في إطار واقعه ومنها:

---

١ - ﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ② فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ③ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ④ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ سورة الروم الآيات: ١-٠٥.

أ- **المسؤولية الرسمية**: تتحمّل مؤسسات الدول الرسمية جزءا هاما من مسؤولية تحقيق المشروع الإسلامي الحضاري من خلال مفرداته لتدفع به إلى التصدر، ولذا فإن مؤسسات الدولة مؤهل هام من مؤهلات الترشح الإسلامي الحضاري نحو المستقبل والفوز بمقعده فيه مثلما تبوأه من قبل، وذلك من خلال تعليم الإسلام والإشراف على شؤونه، وقد بدا في الأفق جزء من هذا من خلال تجربة دول مثل ماليزيا وتركيا، سيما وقد صار العالم الإسلامي في حاجة إلى قاطرة تجر قاطرات أقطاره الأخرى، والتي يترشح منها إلى جانب الدول التي سلف ذكرها قاطرة العالم العربي الذي هو الآخر ربما في حاجة إلى قاطرة تجر قاطرات أقطاره والتي قد تكون دول الخليج، ولاسيما على المستوى الاقتصادي والإعلامي، أو قد تكون إحدى دول مشرقه أو مغربه، ثم إن قاطرة قاطرات الإسلام في حاجة إلى وقود تحرك فعالية أفكار مبادراته.

ب- **الحركة الإسلامية**: لم تتشكل الحركة الإسلامية وتحمل مشروع انتمائها الحضاري من الناحية الإيديولوجية ومفرداته الثقافية والسياسية والاقتصادية إلا بعد الحس بالتفريط الرسمي في حقه من مؤسسات الدولة، ولذا تبنت الحركة الإسلامية الإسلام منهج حياة شامل ولم تتبناه عقيدة وعبادة فقط مثلما ضاق فهمه في تصور القوة الرسمية ثم تبنته برنامج مشروع حضاري سعت إلى ترجمته في مؤسسات مثل تجربة البنوك الإسلامية، والجامعات الخاصة وغيرها مما مازال يبادر به كالمشاركة السياسية التي قد تتحوّل إلى قوى تداول سياسي في إدارة حكومات الدول الإسلامية أو تظل إلى حين مفردة أساس لا يفصل في أمر هام من دونها حيث يحسب لها حسابها[1]، وهذا مما يخدم مشروع المرشح الإسلامي الحضاري من الناحية السياسية في إدارة الحكومات إلى جانب ما تقدمه له مفردات أخرى من مشروعه مثل مفرداته الثقافية والفكرية.

١- أنظر كتاب: الإسلام شريك للمستشرق الألماني فريتس شتيبات .

ج- **الفعاليات**: أعتقد أنه ما من حركة إصلاح عرفها التاريخ الإسلامي وغيره إلا أبدعها نابغة من نوابغ زمانه وعلم من أعلام الإنسانية فيما يعرف في الحس الإسلامي بالمجدد الذي هو أساس بداية الحركات الإسلامية في الحاضر والتاريخ القريب والبعيد، والتي أرخ لها على أن أولها كان على يد عمر بن عبد العزيز[1]، ثم ما تلبث الفعالية جمع فعاليات غير بعيد حتى تكوّن حركة إسلامية ثم ما تلبث الحركة الإسلامية هي الأخرى حتى تكون مؤسسة من مؤسسات المجتمع المدني، حيث تدعو إلى العمل الجماعي وتنظيماته لتحمل المسؤولية أكثر، وقد تكون مؤسسات المجتمع المدني يوما مؤسسات دولة.

أما حين تلزم الفعالية ذاتها من دون غيرها حتى ولو تجمع حولها تلاميذ، فإنها تظل تحتفظ بخصوصية الفرد مثلما هي تجربة مالك بن نبي وبعض الذين تتلمذوا عليه بطريق غير مباشر مثل محمد مهاتير زعيم تجربة ماليزيا التي أعطت الاهتمام الأكبر للدين الإسلامي منذ أحست قوة الشعور بالهوية الإسلامية لدى الشعب الماليزي، وهو ما جعل هذا البلد موطنا من مواطن قوة تأهيل الإسلام مرشحا لما قد يؤول إليه العالم.

د- **المجتمع المدني**: لقد أصبح لما صار يعرف بالمجتمع المدني فضل في مآزرة الإدارة العامة للدول وتعزيز قدرات أدائها ولو من باب المعارضة، حيث التكامل المباشر أو الاستفزاز لتدارك النقائص وتجنب الأخطاء، وهذا عمل له وظيفته لتحقيق مشروعات الإيديولوجيات ووجهات النظر في العالم كله، ولذا فإن المجتمع المدني معتمد أساس في دفع المرشح المحلي وحتى العالمي للتصدر والفوز بما يحقق به أهدافه عن طريق التطوع الشعبي الذي يبتغي وجه الله في المنظور الإسلامي ويقصد خدمة الإنسانية في منظورات الآخر، ويبدو أن آلية «في سبيل الله» في منظور العقيدة الإسلامية ونيتها:

---

١ - توفي ١٠١هـ.

آلية مغالبة قوية من آليات تحقيق المرجو مما به يتقوى المرشح الإسلامي أكثر من قوى الترشح الأخرى.

ومن الجدير بالملاحظة أن باب الترشح لمآل الازدهار الحضاري سيظل مفتوحا أمام كل من رغب دخوله ولو من دون شروط تأهل، ولكن لن يفوز بمنصب مقعده إلا من كان أهلا له حيث وفر لذاته شروطه، ولذا فإنه لا يتسنى لهذه الدراسة تناول قوى الحضارة كلها وفحص ملفاتها والاطلاع على أوضاعها الجغرافية والتاريخية والاقتصادية والسياسية وغيرها مما تتوافر من خلاله شروط الترشح بل شروط الفوز، ولهذا اختصر الحديث في جملة قوى ترشح تبدو حظوظها وافرة أكثر من غيرها .

- **آليات تحقيق مآل الازدهار الحضاري:** يبدو أنه من حكم منطق السنن ألا يؤول المآل الحضاري إلا لمن يحقق له شروطه، فهو تبع لمفردات منه أشد قوة من بعضها البعض كالمآل السياسي والاقتصادي والفكري وتصور إدارته بحكم منطق السنن الذي لا تعرف حقائقه إلا بعد تجارب تاريخية تمحص من خلالها حقيقة التيارات والمذاهب فيتبناها الزمان بعدما تعفو أحداثه الأخرى وتتجاوزها، وكأنها فقدت صلاحيتها بين يديها فأصبحت غير سارية المفعول، وبقي منها ما يقرّه منطق إدراك حكم السنن ليكون المآل الحضاري من خلاله، وهذا ما قررته هذه الدراسة في جملة أفكار تيارات ومبادئ ومذاهب وقيم تبدو أكثر قدرة على تحويل توجه الحضارة نحو الأفضل والأشد التزاما من منافسيه.

- **إدراك السنن:** أعتقد أنه تتوافر في موسوعة السنن ما قد يسمى سنن التحكم، وهي مناط مآل التحضر لأنها جوهر السنن التنفيذية، حيث تنطلق سنن التحكم من ذات الإنسان في قدرته على التحكم في حركاته وسكناته وأقواله وأفعاله وسلوكياته مع ما يشاققه من متاعب في إدارة ذاته ومن ثمّ مفردات محيطه من حوله إلا أن التربية والإعداد والتكوين تذلل صعاب

الحياة وتجعل العسير يسيرا مع عدم انتفاء الصعوبة بين يدي الإنسان.

وأعتقد أنه ليس للإنسان قدرة على التحكم في مفردات ما حوله إلا إذا كان مقتدرا على التحكم في إدارة ذاته بالتزام الجد والاجتهاد، ويبدو أنه من هنا ينطلق الاكتشاف ليكون الإبداع الحضاري التربوي والفكري والعلمي وغيره، ومن خلال قدرة الإنسان على التحضر تقتدر الشعوب والأمم عليه، لأن التخلف أو التحضر قبل أن يكون وضع شعب أو أمة فهو وضع أفرادها، ومن هنا حرص المربون لتغيير ما بالنفس من أجل تغيير ما بالقوم، وبات تَحَكُمُ الإنسان في ذاته وفي مفردات ما حوله مرهونا باقتداره على العمل من خلال الممكن ومن أجله، لأن الإبداع الحضاري ليس من المستحيل ولكن الممكن مرهون بشروط بتحققها يتحقق المبتغى الذي قد يكون تقدما حضاريا عاما أو تقدما في ميدان ما من ميادين الحضارة.

- **تبني الديمقراطية: إن** فكرة الديمقراطية من أقدم أفكار النظريات الحديثة، حيث يرجع انتسابها إلى الحضارة اليونانية، ومن يومئذ واكبت حضارات كثيرة ومازالت تساير أخرى وتتطلع إلى أن تكون من آليات مآلات المستقبل، حتى كأنه ليس بين يدي الفكر الإنساني قدرة إبداع أخرى إلا في إطارها.

ويبدو أن تشبث العقل بالديمقراطية منذ العصر اليوناني وفلسفته وحرصه على الالتزام بها إلى اليوم بل إلى الغد دليل على عدم توافر البديل والعجز عن إنتاج جديد، وحتى لو كان في هذا شيء من الصواب فإنه يبدو في نية الآخر عدم الاعتراف بما قد يكون خياراً آخر يوفر للإنسانية ما هو أفضل من الديمقراطية التي عرّت مناهج تطبيقها وإجراءات تنفيذها أكثر سوءاتها التي بدت من ممارساتها إزدواجية التعامل والمعاملة، الأمر الذي أوقعها، ولو من الناحية التطبيقية، موقع التناقض الذي يفقد أفكار النظريات والقيم والمبادئ المصداقية في

نظر النقاد والذين من حولهم فيفشل الذين يناضلون من أجلها، حتى كأن التنفيذ امتحان عسير أو مسابقة شاقة لا يفوز فيها إلا من كان أهلا للفوز.

ولذا، فإن أكثر ما يهزم أفكار المناهج الواقع الذي قد يزيد في شدة وطأته عليها عدم اقتدار أدعيائها على الالتزام ببنودها، حيث يظهر التناقض بين العمل والقول والسلوك والادعاء، ولكن يبدو من الذي مازال يشبّث البعض بالديمقراطية ويُجْمِعُهُ عليها وحولها المصلحة وبخاصة المادية منها وليس المبدأ، ثم عدم بلورة خيار آخر يكون الأفضل وفق منطق ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها، ويبدو أن خيار مآل المرتقب لن يكون إلا في الفكر الإسلامي الذي يحيل جزء من احتكاماته إلى الوحي الأمر الذي لا يرضى به أولو شأن الفكر الديمقراطي، وفي هذا السياق فإن الذي يقترحه الإسلام ربما بإلحاح والذي بدأ يجمع حوله النخبة هو منهج الوسطية، ثم إنه يبدو أن الديمقراطية مازالت لم تفقد مبررات استمرارها كلها لما فيها من عناصر تسعف مرونتها الفكر البشري وهو ما قد يمدّ في عمر الديمقراطية.

ومن سنن تاريخ الفكر أن يستصحب ما يناقض بعضه البعض الآخر وقتا قد يطول إلى أن يكتمل الجديد ويتقادم القديم أكثر فأكثر فيستنفد آخر قدراته وفق قاعدة الناسخ والمنسوخ، وكأن بين البديل والمبدل منه نقل مهام وتوديع من موقع التسليم إلى مواقع الاستلام وتولي المهام لاطمئنان المتولى على المتولي والثقة في قدرته على أهلية الإدارة والتسيير، ثم التمكين لاستقبال المآل الحضاري والقيام بتكاليف أداءاته وتحمّل مسؤولياته أمام المستقبل.

- **انتهاج البرغماتية:** تبدو قوة فكرة البراغماتية في اعتمادها سياسة نهج «الغاية تبرر الوسيلة»، ولو كانت هذه السياسة في الوقت نفسه نقطة ضعف في نهج البراغماتية من جهة أخرى لافتقادها قيمة الالتزام والانضباط والمصداقية الأخلاقية، ومن سنن فلسفة الأفكار وحتى الأشياء أن حسناتها تمدّ في حياتها وتزوّد مسار تواصلها، ولذا فإن نهج البراغماتية وفكرته

لم تستثن من هذه القاعدة ولم تخرج عن إطارها، حيث إن مرونة أفكارها وإسعافاتها مازالت تمدّها بزاد التواصل والاستمرارية ولو على حساب قيم الخير ومبادئ الإنسانية التي تدعو إلى عدم تبرير الغاية الوسيلة، مما يؤدي إلى فقد البراغماتية مصداقيتها.

ولذا، فإن أداء نهج فكرة البراغماتية مؤجل إلى وقت رشد الإنسانية وصحوة ضميرها، ومن هنا فإن تداعيات البراغماتية تهدم ما قد يكون حققه أداؤها من إنجازات المصلحة، مما يعني أن البراغماتية أصبحت لا تعتمد قوة مستقبل لتبني عليها سياسة حضارة عامة، وإذا صلحت فإنها تصلح إلى حين مؤجل لاستصحاب فكرة أخرى تشكل القاعدة العامة تكون البراغماتية جزءا إلى جانبها يرجع إليه عند الاقتضاء الشديد كالاستثناء، ولعل هذا ما صار يؤدي إلى الجدل الشديد في مناقشة جوهر البراغماتية، الجدل الذي ظل يحافظ على أن الغاية لا تبرر الوسيلة بينما يدعو خصمه الغاية لتبرير الوسيلة.

- **اعتماد منهج الوسطية**: من يوم كان فكر الإنسان يمينا ويسارا كان كرسي الوسطية شاغرا، وإنّ مازال لم يملأ بقدر كاف يؤهله ليؤمن به أكثر الناس، لأنه لم يبلور رأيه ليكون منهجا من مناهج الفكر والرأي والحضارة، ثمّ وبما أن من المسلمين من ليسوا لا من أصحاب اليمين ولا من أصحاب اليسار، فقد كان من منطق السنن أن يكونوا ممن يتولى كرسي الوسطية، سيما وأن مصطلحه مستمد من القرآن الكريم، ولذا حين تبلور جزء كبير من منهج الوسطية كان المسلمون أهلا له أكثر من غيرهم.

ويبدو أنه من هنا أصبح يؤول أمر الحضارة القائمة نحو منهج الوسطية لتكون الحضارة الأخرى القادمة مرهونة بالتزام منهج وسطية الإسلام الذي أصبح يزيد حظه كلما اكتملت مكونات بنوده ولو من الناحية النظرية لتقوى حظوظه وتزيد نسبة قوة التمكين له، ولكن من سنن الفكر أن تنشأ آفات المناهج في وسائل تطبيقها أكثر مما تنشأ في أفكار نظرياتها، وذلك

حين تجري حيثياتها بعدما تفرغ من تصورات أصحابها وتنزل من أبراج مثاليتها، وتصبح قيما ومبادئ ذات قابلية لتكون إجراءات تنفيذية وذلك لعدم ارتقاء سلوكيات أصحابها إلى مستوياتها النظرية المثالية بترجمة الأقوال إلى أفعال والادعاءات إلى دلائل، وهنا ترتفع الأفكار إلى أبراج نظرياتها مرة أخرى ويصعب إعادة تحويلها إلى واقع ملموس محسوس ولو ظل القسم النظري من الأفكار فيه نظرية قابلية للتحقق مرة أخرى، إلا أن التطبيق الثاني يكون أشد من التطبيق الأول لفقد الثقة فيه من خلال فقد الثقة في أصحابه من حملته المؤمنين به.

ولعل الذي ساعد نظرية المنهج الإسلامي على التطبيق القابلية له والنخبة التي التزمت به فارتقت إلى مستوى عال من قيمه ومبادئه، سيما في تربية العالمية الإسلامية الأولى التي تداعت بشيء من السلب على تطبيق برنامج مشروع تجربة العالمية الثانية التي ما استطاع إنسان اليوم تمثلها في سلوكياته وأعماله ويوميات حياته إلا نخبة من الداعين إلى الإسلام ومنهج وسطيته، ولكن هذه النخبة لم تستطع تعميم ذاتها على غيرها، ولذا ظلت هذه النخبة استثناء من القاعدة وحينئذ صارت غير مؤثرة فيمن حولها.

ومع كل ما يقال، فقد صار منهج الوسطية يمثل وجهة نظر في الحياة، لاسيما حين يضاف إلى الإسلام وإن سمي الطريق الثالث، فإن هذا الاسم يزيد في رصيده أكثر، لأن مشروع الحركة الإسلامية الفكري الحضاري لا يحتكر ألفاظه ومصطلحاته ومناهجه بل يحبذها لغيره ربما أكثر مما يحبذها لنفسه شرط الالتزام بها والسعي إلى ضبط إجراءات تنفيذها وألا يشينها شائن من الفكر الآخر ولا تحول طموحاته دون طموحاتها، وألا تناوش أفكار الأحزاب الإيديولوجية والطموحات السياسية والعسكرية صفاء أفكار مشروع الحركة الإسلامية الاستراتيجي، سيما وقد استنفد مشروع الحركة الإسلامية الاستراتيجي الحضاري كثيرا من جهودها الذاتية في مقاومة الاحتلال الغربي ومواجهة الأنظمة السياسية

بعد خروجه من أقطار العالم الإسلامي، فأصبح يخشى على نفسه العياء فيما مازال على خطوات طريق العالمية الإسلامية، ولذا يبدو أنه قد آن الآوان لاهتمامات المشروع الحضاري الإسلامي تنفيذ نظرياته في الواقع فيكون اهتمام غيره به وليستأنف أعماله في ميادين الحضارة كلها ليمثل وجهة نظر عامة تحقق ما تريده غايات الشعوب ليؤول إليها المآل الحضاري الإسلامي المرتقب.

- **التحكم التكنولوجي:** قد تبدو قدرة وظيفة التكنولوجية وآلاتها غير مباشرة في إدارة شؤون العالم وصنع أحداثه، ولذا كانت في المنزلة الثانية بعد منزلة وظيفة الفكرة المباشرة في توجيه الحياة، ولكن الذي يحسب للآلة التكنولوجية ووظيفتها بأس القدرة الشديد في صنع الحدث والسرعة الفائقة في إنجازه لأن لها الوظيفة الأقوى، وإن ظل قرار الفصل في صنع الحدث الحضاري العام وجزئياته بيد الفكرة التي تبدع القرار وتدفع به إلى آلية التنفيذ الذي من خلاله كانت وظيفة التكنولوجيا في توجيه مستقبل البشرية وترشيد مآله .

ومهما كانت التكنولوجيا،فإنها سلاح ذو حدين فيه قابلية الاستخدام للأغراض كلها خيرها وشرها وصحيحها وخطئها وإن ظلت مرهونة برشد الإنسان وتعقلاته والذي منه تأتي وظيفتها ومن خلاله تسهم في التحكم في مستقبل البشر الحضاري ومآلاته، والذي لن يكون إلا بيد من بيده القرار وإبداعه ومثله قوة التكنولوجيا.

وبحكم أن الفكرة أفكار ونظريتها نظريات فإن التحكم التكنولوجي ووظيفته هي الأخرى وظائف وأداءات، ومن هنا صار التحكم التكنولوجي مرهونا بالفكرة ويكاد يكون وقفا عليها يأتمر بأمرها وينتهي بنهيها لأنها الأقوى وإن كان هو الأقدر على تطبيق الرأي وتنفيذ القرار، والفكرة الإيديولوجية والآلة التكنولوجية مقرونتان كاقتران المادة والروح والمبنى والمعنى.

ويبدو أن وظيفة التحكم التكنولوجي وفكرته في توجيه مستقبل البشر الحضاري ومآلاته تلزمه بقدرة تحكم الأداء وضروة تواصل الاختراع في مجاله، وَحُسَن التوجيه لصالح الإنسان من أجل تحقيق أهدافه، لاسيما وأن التكنولوجيا صارت عالما واسعا وقد نشأت بين أرجائه مشكلات كثيرة تتصارع من أجل أهداف تتناقض بينها مثل المشكلات البيئية والأمراض المستعصية واختراقات القرصنة والجوسسة.

- **حل مشكلات الحضارة:** تطرح أمام مناهج الفكر الحضاري مشكلات، لعل مالك بن نبي أولاها اهتماما كبيرا، حين عنون مؤلفاته بـ «مشكلات الحضارة»[1]، وهي كثيرة تمس ميادين الحياة كلها، منها مشكلات الأمراض المستعصية كالسرطان، والإيدز، والسكري، وضغط الدم، ومشكلات الصحة النفسية مثل القلق، والاكتئاب مما يؤدي إلى الجنون والانتحار، ومشكلات الحياة الاجتماعية كالجريمة المنظمة، وانتشار الآفات، ومشكلات البيئة مثل ثقب الأوزون، والاحتباس الحراري، والمشكلات الاقتصادية كالفقر، وسوء توزيع الثروات بين الشمال والجنوب، وسوء التغذية إلى آخر ما يتحدى البشرية من مشكلات الحضارة، كالتهديدات النووية وأسلحة الدمار الشامل، مما ينبغي على القوة المرشحة لقيادة مستقبل الإنسانية أن تجد حلولها وفق برنامج مشروع حضاري عام، تشارك فيه البشرية كلها عن طريق مؤسسات الأمم المتحدة فيتحقق العدل والسلم والأمان والتوازن، وأعتقد أن هذه أكبر وسائل سنن ما به دال الماضي الحضاري بين الأمم وبه ما سيؤول ليكون بين يدي من يكون أكثر توفيرا لها والتزاما بمقتضياتها بين الشعوب والأمم وبخاصة تلك التي ترشحت للتمكين للمآل الحضاري وتولي رسالته الإنسانية.

١-أنظر، غلاف مؤلفات مالك بن نبي، إصدار دار الفكر، دمشق، ١٤٠٢هـ ١٩٨١م.

١- الشهود الحضاري للأمة الوسط في عصر العولمة.

د.عبد العزيز برغوث.

٢- عينان مطفأتان وقلب بصير(رواية).

د. عبد الله الطنطاوي.

٣- دور السياق في الترجيح بين الأقاويل التفسيرية.

د. محمد إقبال عروي.

٤- إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية.

د. الطيب برغوث.

٥- ظلال وارفة (مجموعة قصصية) .

د. سعاد الناصر(أم سلمى).

٦- قراءات معرفية في الفكر الأصولي.

د. مصطفى قطب سانو.

٧- من قضايا الإسلام والإعلام بالغرب.

د. عبد الكريم بوفرة.

٨- الخط العربي وحدود المصطلح الفني.

د. إدهام محمد حنش.

٩- الاختيار الفقهي وإشكالية تجديد الفقه الإسلامي.

د. محمود النجيري.

١٠- ملامح تطبيقية في منهج الإسلام الحضاري.

د. محمد كمال حسن.

١١- العمران والبنيان في منظور الإسلام.

د. يحيى وزيري.

١٢- تأمل واعتبار: قراءة في حكايات أندلسية.

د. عبد الرحمن الحجي.

١٣- ومنها تتفجر الأنهار(ديوان شعر).

الشاعرة أمينة المريني.

١٤- الطريق... من هنا.

الشيخ محمد الغزالي

١٥- خطاب الحداثة: قراءة نقدية.

د. حميد سمير

١٦- العودة إلى الصفصاف (مجموعة قصصية لليافعين).

فريد محمد معوض

١٧- ارتسامات في بناء الذات.

د. محمد بن إبراهيم الحمد

١٨- هو وهي: قصة الرجل والمرأة في القرآن الكريم.

د. عودة خليل أبو عودة

١٩- التصرفات المالية للمرأة في الفقه الإسلامي.

د. ثرية أقصري

٢٠- إشكالية تأصيل الرؤية الإسلامية في النقد والإبداع.

د. عمر أحمد بو قرورة

٢١- ملامح الرؤية الوسطية في المنهج الفقهي.

د. أبو أمامة نوار بن الشلي

٢٢- أضواء على الرواية الإسلامية المعاصرة.

د. حلمي محمد القاعود

٢٣- جسور التواصل الحضاري بين العالم الإسلامي واليابان.

أ.د سمير عبد الحميد نوح

٢٤- الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية.

د. أحمد الريسوني

٢٥- المرتكزات البيانية في فهم النصوص الشرعية.

د. نجم الدين قادر كريم الزنكي

٢٦- معالم منهجية في تأصيل مفهوم الأدب الإسلامي.

د. حسن الأمراني

د. محمد إقبال عروي

٢٧- إمام الحكمة (رواية).

الروائي/ عبد الباقي يوسف

٢٨- بناء اقتصاديات الأسرة على قيم الاقتصاد الإسلامي.

أ.د. عبد الحميد محمود البعلي

٢٩- إنما أنت... بلسم (ديوان شعر).

الشاعر محمود مفلح

٣٠- نظرية العقد في الشريعة الإسلامية.

د. محمد الحبيب التجكاني

٣١- محمد ﷺ ملهم الشعراء

أ. طلال العامر

٣٢- نحو تربية مالية أسرية راشدة.

د. أشرف محمد دوابه

٣٣- جماليات تصوير الحركة في القرآن الكريم .

د. حكمت صالح

٣٤- الفكر المقاصدي وتطبيقاته في السياسة الشرعية.

د. عبد الرحمن العضراوي

٣٥- السنابل... (ديوان شعر).

أ. محيي الدين عطية

٣٦- نظرات في أصول الفقه.

د. أحمد محمد كنعان

٣٧- القراءات المفسرة ودورها في توجيه معاني الآيات القرآنية.

________________ د. عبد الهادي دحاني

٣٨- شعر أبي طالب في نصرة النبي ﷺ.

________________ د. محمد عبد الحميد سالم

٣٩- أثر اللغة في الاستنباطات الشرعية.

________________ د. حمدي بخيت عمران

٤٠- رؤية نقدية في أزمة الأموال غير الحقيقية.

________________ أ.د. موسى العرباني

________________ د.ناصر يوسف

٤١- مرافىء اليقين (ديوان شعر).

________________ الشاعر يس الفيل

٤٢- مسائل في علوم القرآن.

________________ د. عبد الغفور مصطفى جعفر

٤٣- التأصيل الشرعي للتعامل مع غير المسلمين.

________________ د. مصطفى بن حمزة

٤٤- في مدارج الحكة (ديوان شعري).

________________ الشاعر وحيد الدهشان

٤٥- أحاديث فضائل سور القرآن: دراسة نقدية حديثية.

________________ د. فاطمة خديد

٤٦- في ميـــزان الإسـلام.

د. عبد الحليم عويس

٤٧- النظر المصلحي عند الأصوليين.

د. مصطفى قرطاح

٤٨- دراسات في الأدب الإسلامي.

د. جابر قميحة

٤٩- القيمُ الروحيّة في الإسلام.

د. محمّد حلمي عبد الوهّاب

٥٠- تـلاميـذ النبـوة.

الشاعر عبد الرحمن العشماوي

٥١- أسماء السور ودورها في صناعة النهضة الجامعة.

د/ فـؤاد البنـا

٥٢- الأسرة بين العدل والفضل.

د. فريد شكري

٥٣- هي القدس... (ديوان شعر).

الشاعرة: نبيلة الخطيب

٥٤- مسار العمارة وآفاق التجديد.

م. فالح بن حسن المطيري

٥٥- رسالة في الوعظ والإرشاد وطرقهما.

الشيخ محمد عبد العظيم الزُّرْقاني

٥٦- مقاصد الأحكام الفقهية.

______________ د. وصفي عاشور أبو زيد

٥٧- الوسطية في منهج الأدب الإسلامي.

______________ د. وليد إبراهيم القصاب

٥٨- المدخل المعرفي واللغوي للقرآن الكريم.

______________ د. خديجة إيكر

٥٩- أحاديث الشعر والشعراء.

______________ د. الحسين زروق

٦٠- من أدب الوصايا.

______________ أ. د/ زهير محمود حموي

٦١- سنن التداول ومآلات الحضارة.

______________ د. محمد هيشور

نهـر متعـدد.. متجـدد

هـذا الكتـاب

وأعتقد أن فهوما خاطئة كثيرة ترتبت على ضعف ثقافة السنن وعدم استيعابها، ومنها فهم دور العوامل والأسباب التي أوعز إنشاؤها إلى قوة غيبية وليس إلى أعمال الإنسان، فأهمل مسؤوليته تجاه ما يحدث مما أدى إلى إخفاقاته لعدم قدرته على مواجهة مشكلات الحياة مواجهة واقعية لا تنتهج الفلسفة التبريرية ونظرية مؤامرة الآخر على الذات الإسلامية. وأعتقد أنه لو سادت ثقافة السنن ومورست في أفكار الإنسان وسلوكياته لتجلت أمور كثيرة، ولوعيت حقائق غائبة عن تصور الإنسان تميز بين الخطأ والصواب، إلى آخر ما هو من وظائف السنن ودورها في الحياة، كالتخطيط لهندسة الأفكار والآراء والبرمجة بالدليل والبرهان ومنطق الإقناع بالحجة...

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية
إدارة الثقافة الإسلامية
www.islam.gov.kw/thaqafa